كتاب الأمان

رواية

ياسر عبد الحافظ

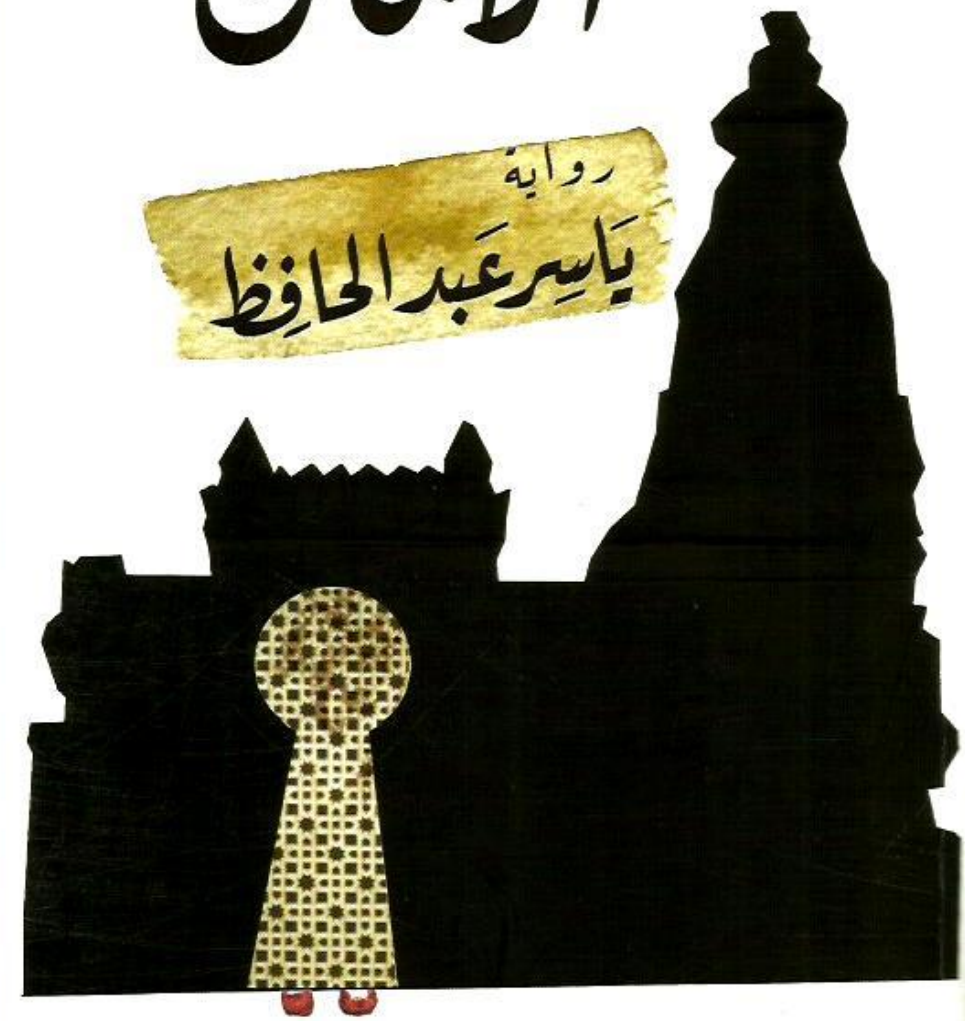

ياسر عبد الحافظ

كتاب الأمان

الكتاب: كتاب الأمان
المؤلف: ياسر عبد الحافظ

عدد الصفحات: 272 صفحة

الترقيم الدولي: 978-9953-582-65-8

الطبعة الأولى: 2013

جميع الحقوق محفوظة ©

الناشر: دار التنوير للطباعة والنشر ©.

مصر: القاهرة ـ وسط البلد ـ 8 شارع قصر النيل ـ الدور الأول ـ شقة 10
هاتف: 27738931(2)20+ - 7332225(100)20+ فاكس: 27738932(2)20+
البريد الإليكتروني: info@dar-altanweer.com
الموقع الإليكتروني: www.dar-altanweer.com

بالاشتراك مع دار محمّد علي للنّشر ©

نهج محمّد الشّعبوني – عمارة زرقاء اليمامة – 3027 صفاقس، تونس.
الهاتف: 00216/74407440 الفاكس: 00216/74407441
البريد الألكترونيّ: edition.medali@tunet.tn
رقم النّاشر: 13/484-16

توزيع: دار التنوير
لبنان: بيروت ـ الجناح ـ مقابل السلطان إبراهيم
سنتر حيدر التجاري ـ الطابق الثاني ـ هاتف وفاكس 9611843340+

ياسر عبد الحافظ

كتاب الأمان

رواية

كلُّ معركةٍ ولها أسلحتُها، وإذا تراجعت عن استخدام أحدها تحت مُبرِّرٍ أخلاقيٍّ ما، فهذا يعودُ لك، لكن لا تنتظر تكريمًا عند هزيمتك؛ لأنَّك كنت شريفًا.

مصطفى إسماعيل
كتاب الأمان ـ النسخة الأصلية

كتاب الأمان

خالد مأمون

«هل تحبُّ الاطِّلاعَ على نهايتِك، ثم ترتّب حياتَك وفقَها»؟

اختر ما ترى أنّه الإجابة الصحيحة مع مراعاة إملائها على كاتب التحقيق، لا تُدوِّن شيئًا بنفسك من فضلك، ليس هناك داعٍ لأن تبذل هذا المجهود، القلم والأوراق أمامك لتسجيل فكرة عابرة تراها ضروريةً لكنَّها خارج سياق حديثِنا الآن، وتودّ أن نعود إليها فيما بعد.

هنا يمكنُك الاستمتاعُ بالاعتراف. ربَّما تحبُّ التمشية في الغرفة لتنساب خواطرُك بشكلٍ هادئ، نعم مثل المَشاهِد الشهيرة التي لا بدَّ لها مردودٌ ما في ذاكراتك، رجلٌ يفكِّر وآخرُ يكتب. بين صديقين أقول لك أمينًا هذه آلة جيّدة جدًّا، خطُّها منمّق، ومهما تماديت، فهي قادرةٌ على ملاحقتك، لا تتردّد، جرِّبها لن تخسر، لا تخجل.. ليس ذنبك أنّ هذا عمله، كلٌّ ميسّر لما خُلقَ له يا عزيزي، هل تحتقر عامل المنجم الذي يخرج مُلطَّخًا بالسواد؟

.....!».

آه، معك حقٌّ، أنتَ لم ترَ عامل منجم قبلًا، أنا أيضًا لم أرَ عامل منجم في حياتي، آسف تشبيهٌ ينزع للتغريب كثيرًا.. أَلَا توجد لدينا مناجمُ في الشرق! تخيَّل أنَّ هذا الموضوع لم يخطر على ذهني قبل هذه اللحظة. لكن، المؤكَّد أنَّ الفكرة وصلتك، دعنا لا نضيِّع الوقت في المزيد من التشبيهات. المقصود أنَّ مساعدي هذا في خدمتك، وسيظل كذلك حتَّى تصل البشرية إلى اختراع كاتب تحقيق آلي، أظنُّ أنَّهم على وشك ذلك، لكن، ودعني أكون صريحًا، حتَّى لو اعتبرتني تقليديًّا.. هذا سيكون اختراعًا كريهًا. أَلَا توافقني بأنَّنا كلَّما تقدّم العلم، ابتعدنا عن التواصل الإنساني. أَلَا تشعر، وحتّى مع كونك في

هذا الوضع، وأتمنَّى صادقًا ألَّا يقيّدك، بالدفء الإنساني الذي يجمع ثلاثتَنا في هذه الغرفة، تخيّل لو أنَّ ثالثَنا مُجرَّد آلة، آلةٍ لا تُخطئ، تنفِّذ الأوامر الصادرة لها بدقَّة غيرِ مسبوقة، بالتأكيد سنطمئنُّ؛ لأنَّ أسئلتي وأجوبتك لن يتمَّ التلاعُب بها، لن يراودنا شكٌّ في هذا، لكن هل وصلت الإنسانية إلى حضارتها إلَّا عبر مجموعة الأخطاء والمصادفات؟

(1)

عادةً لا ينتبه لي أحد. أُراهن على هذا وأتمنَّاه، أن تظلَّ عين الضحية معلقةً بالجالس في فخامة إلى المكتب الضخم، هذا تصرُّف أيِّ مُتَّهَم يدخل إلينا مهما بلغت نباهته، لا يراني إلّا بإشارة من رئيسي نبيل العدل إلي، ساعتها أضطرُّ للخروج من الظلال.

«ظِلِّ الساعي إلى الحقيقة».

التعريف الذي أحببته لنفسي. يفكِّر وأكتب، شاءوا أن أكون يدَه وقلمه. لا ينبغي لي الجلوس بمحاذاته تمامًا، وإذا سار فأنا خلفه بخطوة كريفية تتبع زوجًا لم تصله قواعد الحضارة. والقادم يعلم سلفًا، لهذا لا يوليني ولو مجرَّدَ نظرة، عيناه مُعلَّقتان بمَن يقرّر مصيره، وليس بمَن يدوّنه. التدوين مُجرَّد حالة شكلية لتوثيق القرار. غيرَ أنَّ مصطفى إسماعيل، الأستاذ الجامعي السابق في مجال القانون، والحائز على لقب أمهر لصٍّ لعقد التسعينيات، انتبه منذ اللحظة الأولى لوجودي، حانت منه التفاتة خاطفة خلفه حيثُ أَجلس، وبعد انجذابي لأفكاره، ظللتُ مسكونًا بتلك الالتفاتة أبحث لها عن تفسير.

لكن، وللأمانة، أنا ومهنتي لسنَّا على هذا القدر من الضآلة، ماذا يمكنني تسميتُه؟ ادِّعاء للتواضع، أم رغبة متأصِّلة في الانسحاب؟ مزيج من كليهما أعماني عن موقع مميّز لم أستخدمه كما ينبغي. شخص آخر متمرِّد كفاية

كان بإمكانه نشرَ أسرار لم تكن لتخطرَ على البال، وهذا ما أدركه مصطفى الباحث عن تخليد حكايته، ووجد في الرسول.

ربَّما لهذا استجبت لذاك الإعلانِ الغريب المعلق على حائط مقهانا، وجئتُ لأجدَ الدَّور المكتوب لي. خلال فترة عملي تعاظمَ داخلي شعورٌ بالقوّة لا حدَّ له، أسمع الناس يتحدَّثون عن واحدة من القضايا الشهيرة المتداوَلة على الساحة، كلٌّ يتبنَّى وجهة نظرٍ ويدافع عنها بقوّة مُقدِّمًا استنتاجاتِه ودلائله، غير أنَّ الحقيقة مختلفة عن المطروح، وأنا كنتُ من القلائل المتاح لهم الاطِّلاع على الحقيقة الغائبة، لكنِّي لا أستطيع اطِّلاعهم على ما أملك، ملزَمٌ بالصمت دون أمر، امتثالًا لطقس يتعلَّمه مَن يأتي إلى «قصر الاعترافات»، غير أنَّ هذا ناسبني، لم تضايقني السرِّية، كَفَتني القوَّة، الثقةُ المتزايدةُ التي تُجبر مَن حولي على الاقتراب بحذر، وكأنِّي إلهٌ تواضع، ونزل للسير بينهم.

فكرتي التمهيدية عمَّا يسعى له مصطفى سقطت مع اعترافاته، لم يكن يريد منِّي تخليد حكايته كمّا توهمت، لم يكن مكترِثًا. هذا ما بدا من كلماته...

> كاذبون مَن قالوا إنَّ سيرة الرجل ما يتبقَّى منه.. يسيِّروننا بكلماتٍ عقيمة تثبت في أذهاننا، ونتحرّك وفقها مثل الآلات المجرَّدة من التفكير. أنت مجموعةُ أفعالك التي تقوم بها في التوِّ واللحظة، وعندما ترحل يملأ الهواءُ حيِّزَك. الأفعالُ مصيرُها النسيان، وكتابُ التاريخ لن يحفَلَ على الإطلاق بما كنت تُخطّط له، يرى ما يحبُّ أن يراه.. امرأة جميلة تنظر إليك لكنَّ عقلها وقلبها لا يلمحانك. لا تتحامق وتشغل بالَك بمسألة الخلود.

كان يشتغل بهوايته وكأنَّه ما زال حُرًّا طليقًا، يضمُّ آخر إلى قائمة جنوده، كما انتقى المختارين السابقين.. يومئ فيصبحون رهنَ إرادته، ينتظرون الأوامر وساعةَ التنفيذ. أنا أحدُ مختاريه، أنقذني من الأبحاث المكتبية،

وتلفيق النظريّات المقتطعة من عشرات الكتب، بواعث الجريمة، سلوك الجماهير عند غياب الهدف الجماعي، حقد الفقراء الذي يُسيِّر البشرية. أنقذني من تمثيل دورٍ غيرِ مَرضِيٍّ عنه...

«ليس مفيدًا».

على حدٍّ تعبير نبيل العدل. الذي قضيت الفترة الأولى من تدريبي محاولًا السيطرة على رهبتي منه، أو ممَّا يمثّله.. الشكل الأكثر نعومة للسلطة، تلك التي لا يمكن التكهُّن بما تفكِّر فيه أو تخطط له.

«ربَّما مفيد، لكن لا بدَّ من ربطه بالواقع، نحن لسنا مركزَ أبحاث، جزءٌ منَّا ممكن، إنَّما لنا وجوهٌ أخرى لا بدَّ تجرِّبها».

ساعدني مصطفى في اكتشاف وجوهي الأخرى، مَنحَني الكفيل بنقلي إلى الضفّة المقابلة، من عدوٍّ إلى حليف، ولم يكن عليَّ سوى انتظار إبلاغي بتفاصيل مهمَّتي.

عرفناه قبل مجيئه، أوراقُه السابقة على المكتب، لكنَّنا عادةً لا نعتدُّ بتلك الأوراق، ندرك كيف تمَّت كتابتها، يزفر العدل...

«تعذيب وتلفيق وقرف».

لكنَّه، أيضًا، لم يكن معجبًا بما قدَّمته. لم يلتقط من تقريري إلَّا الكلماتِ البارزة ذات المعنى الواضح. كنتُ قد كتبتُ أنَّ...

«ما أتاه مصطفى إسماعيل وأعوانه يذكِّرُ على نحوٍ خاصٍّ بأسطورة وحقيقة علمية، الأسطورة تتعلَّق بـ «الرجال المبتهجين» الذين التفوا حول روبن هود. وما يتّصل بتلك الأسطورة حقيقة علمية..

الرجال بطبيعتهم النفسية والجسدية في حاجة إلى نشاطٍ قد يتجاوز إمكاناتِهم نظريًّا. هذا الجزء المبتهج في الرجل يحتاج إلى إرضاء. هذا يفسِّر تفضيل الذكَرِ الحربَ على الحوار مثلًا، ثم، وبعد الإخصاء المعنوي لتلك

الطبيعة باسم التمدُّن، أصبحت تجد متنفَّسَها في إدمان الجنس، الرياضة، الخمر، لكنَّ آخرين لا يمتلئون إلَّا بعراك متمرِّد يعتقهم من السيطرة».

وصَفَ رئيسي ما قدَّمته له بأنَّه...

«تقرير عاطفي».

وبرغم أنَّ الجملة لها معنًى مهَنيٌّ قاسٍ إنَّما أعجبتني، تصلح عنوانًا ملغزًا لكتاب، ربَّما أستخدمها، أوافق على عرض أنور الورقي صاحب المطبعة الذي يرغب في الترقِّي درجةً في مهنته ويحمل لقب ناشر، يعتقد أنَّ ما أحكيه له عمَّا يدور في قصر الاعترافات يصلح كتابًا يكشف كيف تدور الأمور في البلد...

«وبعدين يا أخي فرصة نخرج من هنا، نشوف الدنيا قبل ما نموت».

أجعل من العدل بطلًا للكتاب، أتخطَّى الحدود وأضع اسمه، ومن ليصدق أنَّ نبيل العدل شخصيةٌ من لحم ودم تشغل منصبًا له حساسيَّتُه، مَن سيعلم سوى أعضاء النادي، خاصّةِ الخَاصَّة، مَن ليقتنع أنَّ هذا يحدث في الواقع؟ برغم الخطورة لا يمكن تفويتُ شخصية فنية كهذه، لديه من الملامح ما يضمن نجاحَ العمل، إخلاصِه الأعمى لمجموعة المبادئ التقليدية، ولعِه وخضوعِه للجُمل الرنَّانة التي ما إن ينطقها، حتَّى تبدأ في حفر موسيقاها داخل عقلي، وكأنِّي في حضرة منوِّم مغناطيسي. تسيّره فلا تملك إلّا أن تصدِّقَه مجازفًا بما تعتقده. هل كان ليضحِّي برنين «تعذيب وتلفيق وقرف» ليبحث عمَّا يستقيم مع تقريري العاطفي؟ أزعم أنِّي عرفته، زاملْتُه خمسة أعوام، هو مَن اختارني، للمسؤول في موقعه حقُّ اختيار مساعده.

بعد أن اجتزنا اختباراتٍ مُتعدّدة، جمعونا في غرفة واسعة، نجهل ما ينتظرنا، ولم نغامر بالسؤال. لا صوت، لا دردشة بين الموظَّفين كما المعتاد، لا باب يُغلق أو يُفتح. مَن صحبنا إلى الغرفة لم ينطق بحرف، صعدنا من الدور الأرضي إلى الثالث، سرنا في ردهة طويلة، أشار دليلنا

إلى نهايتها ومضى.. غرفة فارغة إلَّا من خمسة كراسٍ، لا كرسي زائد، كأنَّها تتوقَّع مجيئَنا.

لم أستطع تحديد عمره، ملامُحه حيادية إلى درجة يصعُبُ معها تكوين انطباعات. تفحّصنا وملفَّاتُ معلوماتنا بين يديه، ثم لم ينطق سوى كلمتين...

«خالد مأمون».

واستدار ليغادر الغرفة تاركًا الباب مفتوحًا، تبعتُه وأغلقتُ الباب خلفي مُحاذرًا ألَّا يرتطم. خُيِّل إليَّ أنَّ على وجهه ابتسامةً. ظنّه في محلِّه، صدق حدسُه، وانتقى مساعدًا مطيعًا لا تلزمه كلمات كثيرة ليؤدِّي المطلوب منه.

صيغة الإعلان المنشور في الجريدة أجبرتني على التوقُّف أمامها...

«بخطِّك اكتب قصَّة حياتك كما تراها في 300 كلمة. يمكنك استخدام المدارس الأدبية المختلفة لإيصال الفكرة. أرسل الأوراق في مظروف إلى العنوان المذكور وأسفله: يصل ويسلم إلى المسؤول عن مسابقة «لمن يريد أن يعرفني»، وسوف نتولَّى الاتصال بك».

على هذا أرسلت المطلوب دون أيّ فكرة عن طبيعة الجهة وراء الإعلان أو ما الذي تريده من المتقدِّمين. أدهشني لاحقًا معرفةُ أنَّه تمَّ اختيار ثلاثين خطابًا من بين آلاف وصلت. دعنا نكون عقلانيِّين، هل ترسل قصّة حياتك إلى عنوان وهدف مجهولين إلَّا إن كنت مثلي تنتظر اتّصالًا غامضًا عبر طريق لا تتخيَّله، تمرُّ الأيام لكنَّك لا تفقدُ حماستَك، تحافظ على وتيرة المتابعة حتَّى لا يضيع النداء. لكن وبعد حصوله تكتشف هذه المسخرة. كنت أتخيَّل أنِّي مختلف عن الناس وأتجنبهم.. أكتشف أنَّ آلافًا ينتظرون النداء. هل ما فات كان عمرًا مهدورًا!

الثلاثون تمّت تصفيتُهم سريعًا إلى خمسة، شخص ما أتى يتأمَّلُ الطابور الواقف على الباب.

بعد ثلاثة أعوام بالضبط اطَّلعت على آليّة الانتقاء، وقفت بين ما يقرب من أربعين يرغبون الحصول على الجائزة المجهولة، جئت من بيتي وانضممت إليهم حسب التكليف، متظاهرًا بأنّي متقدِّم مثلَهم. ساعتين بالتمام أوجِّه الحوار، الحدس يحرِّكني لتخمين الأفضل، أستفزُّه وأتلاعب بأعصابه، اختبار من قائمة يحدّد الثلاثة المختارين.

اختبارنا الأخير تلخص في أن يعيد كلٌّ منّا كتابة قصّة حياته من جديد، ليس من الضروري بالجُمل والأحاسيس نفسِها التي أرسلناها في الخطابات، بأيِّ طريقة تتراءى لكلِّ واحد، فقط للمقارنة والتأكّد من أنَّها ليست منحولة، أو أنَّ آخرين تولّوا كتابتها عنَّا. انسحب أحدنا بحجّةٍ ما لم تتناهَ إلى مسامعنا لكنَّ المسألة كانت واضحة.. ليست لديه قصةٌ تخصُّه.

«أوّل مرّة بكيتُ فيها شخصًا كانت عندما مات فهمي بن السيِّد أحمد عبد الجوّاد، أوّل مرّة انتابني الفزعُ عندما قرأت عن تحوّل جريجوري سامسا، تستيقظ من النوم فتجد نفسَك حشرةً وعليك التعامل مع العالم على هذا النحو، ولأنَّك تعرف أنَّ الدنيا لا منطقَ لها وأنَّ الحكاياتِ أصدق من الواقع، إذن فكلُّ شيءٍ واردٌ حتَّى لو كان كابوسيًّا إلى هذا الحدِّ. لكن في فترة لاحقة أدركت من خلال «ثلاثية نيويورك» أنَّ المعانيَ مختلطةٌ بدرجة غير عادية وأنَّه غالبًا لا قيمةَ لشيء. هكذا يمكنني أن أصف حياتي.. من كتاب لآخر، ومن حكاية لأخرى. من الممكن أن أعدد عشرات بل مئاتِ الأعمال. لكنَّ هذا ليس ما ترغبونه، أنتم تريدون معرفة ما حدث معي في الحياة الواقعية. غير أنَّه للأسف ليس عندي نشاطٌ مميّزٌ إلى الآن يستحقُّ الحكيَ. بالطبع أمارس مجموعة الأفعال الحيوية التي تُبقيني حيًّا، إنَّما، وبعد أن شارفت على بلوغ الثلاثين، لا أجدُ ما يستحقُّ. قد يكون المأزق في رؤيتي، هناك من يستطيع تحويل أبسط حدث إلى واقعة درامية تنافس الأعمال الكبرى، لكنِّي أؤمن أنَّ للمغامرة شروطًا تعطيها حقَّ حمل الاسم، والحياة أيضًا لها شروطٌ ترشِّحها للتدوين، القدرة على التنفس والكلام والتزاوج لا تكفي لتسردَ حكايتَك.

هذه، باختصار، قصّتي التي ترغبونها، وكما ترَون فإنَّها انتهت قبل الكلمات الثلاثمئة التي حدّدتموها، ولأنّي أعتقد أنّكم لن تتهاونوا مع هذا، لأنَّه الشرط الوحيد الذي وضعتموه، أضيف الآتي.. طريقة التفكير تلك ترشِّح للانهيار، لكن ما منعني أنَّ بطلي المفضل فلورنتينو اريثا مثلي يقضي على الوقت بأنشطة غير مُهمّة في انتظار تحقُّق هدفه.. الارتباط بحبيبته. رجلٌ محظوظ وصل لما يريد».

في اليوم التالي، حصلتُ على بطاقة بلاستيكية فارغة إلَّا من اسمي، لا شعار، لا رقم هاتف، لا مسمّى وظيفي، فقط في منتصفها وبخطٍّ أسودَ محفور.. خالد مأمون. كانت أولى الرموز حول الغموض الذي عليَّ تقبُّلُه من دون أسئلة. لا أحد يطرحها، يتصرَّفون على أنَّ الأمور طبيعية. لم أتبيّن أكان ذلك تجاهلًا متعمَّدًا، أم غباءً، أم أنَّه الاعتياد الذي يحيل الغريب مألوفًا.. هل سيأتي عليَّ حينٌ لا يستوقفني وجودي في مؤسّسة غير مُدرَجة على لائحة التكوين العامِّ للدولة، تستقرُّ في بقعة مهجورة يحيط بها سورٌ يحمي تلالًا من الرمال ممنوع الاقتراب منها.

لكنّي ربَّما أبالغ في دهشتي. ما مدى علمي بالعالم على أيِّ حال؟ في أزمان مغايرة كانت هناك ديناصوراتٌ بحجم عمارات، وبحارٌ تنشق لتبلع ملوكًا. ما المانع من عجيبة إضافية. لماذا عليَّ التوقُّف أمام تفاصيل هامشية فيما يفوتني الأهم، حسب اعتقاد عبد القويّ، زميلي في العمل...

«لماذا لا تكتفي بأنَّنا المرحلة الأعلى، جهة لا تباشر إلَّا المسائل المُهمّة والحسّاسة».

وبشكل منطقي كنت أوافقه، لكن تبقى عقبة أمام نهاية أسئلتي...

«جهةٌ تابعةٌ لمَن؟».

يزفر ضيقًا، ثم يتمالك نفسه محاولًا التحلّي بصبر والد في مواجهة عناد طفله؛ إيمانًا بأنَّه هكذا يحيطُه بكلِّ شيء خَبرًا...

«عشان ترتاح وتريحني.. إحنا جهة مَهمّتها البحث في كلِّ شيء، ومتابعة كلّ شيء، لصالح مَن لستُ متأكِّدًا، لكنَّ المؤكَّد أنّنا في جانب الخير ضدَّ الشر، أنا لست مشغولًا بهذا، لكنّي أقوله لك ليساعدَك على تجاوز حيرة لا مبرّرَ لها، لماذا تهتمُّ بأسئلة لن تفيدك. هذا المكان موجودٌ من زمن على ما أعتقد، معجزةٌ أنَّه تمَّ اختيارنا. وصراحة أنا شايف إنّك بتطرح السؤال الخطأ، بدل ما تسأل ماذا نعمل؟ اسأل نفسك: كيف أعمل؟».

ملاحظةٌ مقصودةٌ سمعتُها مرَّات عدّة. رسالة يردِّدها آليًّا.

إمّا أن الهواء طغى لحظة صنعه على بقيّة العناصر في جسده، أو استطاع تسخيره لمصلحته. يتحرَّك مثلَه، خفيفًا وسريعًا، يفاجئني وجودُه، لا أسمع بابًا يُفتح أو خطواتٍ تدقُّ على الأرض. نحيفٌ بما لا يستقيمُ مع شراهته المَرَضية للطعام، بعد أن غادر حياتي ظلّت له صورة كاريكاتورية في ذهني: عظمة يستخدمها للكتابة أو لتمشيط شعره، ملابسه يزيِّنها بالخضار. مجموعة متناقضات اسمُها عبد القويّ، بقدر الهدوء الذي يتحلّى به والمرسومة به ملامحه إلّا أنّه الكائن الأكثر إزعاجًا الذي صادفتُه، بدون أيِّ مؤشِّرات ينتقل من حال إلى آخر، يقرِّر الكلام فلا يمكن مقاطعتُه، نبرة صاخبة ينقل بها ما يريد، وعادةً ما يصمت في منتصف القصص التي لا تنفد من عنده، يعود هواءً ساكنًا. قبلَ تمتِينِ الصّلة كنتُ أتجمَّد أمام تصرُّفاته، يستغرب من طريقتي، واعتبر هذا علامة على سرحان مَرَضي، أو الأسوأ.. عدم اهتمام بالآخرين. وكعادته فإنَّ ما يعتقده غير قابل للمناقشة.

حرتُ في الموقع الذي يناسبه. عَصيٌّ على التصنيف في مكان وظيفته إصدارُ التصنيفات والأحكام. أنا خرجت لهذا، وهو بقي، خبرته تمكِّنُه من تفادي الأسئلة الصعبة، قلتُ له تعليقًا على تصرُّفاته...

«نحن ملزَمون بالجِدِّية».

فردَّ ببساطة هزمت جُملتي...

«مين ألزمنا؟».

ألهذا يحبُّه الجميع؟

تورَّطنا في صداقة متغاضيَين كمراهقَين عن غياب المشترك. بأنانية مَن يسعى إلى الاكتشاف لم أهتمَّ بهذا، احتجت إلى دليل في المرحلة الأولى وخلالها لم يعد ثمَّةَ ما أُخفيه عنه باستثناء أنّي أُعيد تدوين ما يحدث.

منجرفًا فيما يقول، مسحورًا بلهجته وضحكته الطفولية التي تنافس ثرثرته، يشغلني بألغازه التي يتركها معلقةً فوق رأسي...

«كلّموني النهارده من اسكندرية.. تخيّل حصل إيه».

هؤلاء لم يُمكِنّي معرفتهم أيضًا. لكنّي تعلّمت ألا أسأل لأنّه سيتجاهل استفساراتي مستخدمًا واحدة من حيله العجائبية. افترضت أنّهم أهلُه، وأنّه لخص العلاقة بهم في المساعدة المالية. إنّما ومع توطد العلاقة بزملاء آخرين زاد الغموض الذي يحيط بعبد القوي وأصوله وعائلته. يتحدّث عن الإسكندرية بما يُوحي أنّه عاش فيها طفولته وصباه، لكن بعض المفردات الصعيدية تعاند الارتباط الذي يحاول الإيحاء به. كلّ زميل لديه قصّةٌ مختلفةٌ عنه يؤكّد عليها وكأنّه عاشره منذ طفولته.. واحدة من ألعاب قصرنا الذي يقوم على الأسرار والتناقضات. القصص تدور في محيط الدراما المبتذَلة.. هاربٌ من ثأرٍ يطارده. لا، أهله قُتلوا في حادث غامض. لا، لم يُقتَلوا، وليس هناك من ثأر، الأمور أبسط.. تخلّى عنهم ليحيا كيفما شاء، عائلة فقيرة بشكل مبالغ فيه، والعدد ضخم، أبوه تسلّى بالمضاجعة فأنجب سبعة غيره، فهل عليه تحمُّل مخلّفاتِ شهوةِ رجلٍ آخر؟ حتّى النُّبل له حدودٌ يتوقّف عندها، وليس عدلًا وصفُه بالنذالة؛ لأنّه يرى الأمور بواقعية. المسألة كالتالي: إمّا أن ينقذ نفسَه أو يغرقَ الجميع.. وما الفائدة وقتَها؟!

يحبُّونه وينشغلون به، تَفقِدُ مؤسّستُنا روحَها إن اختفى في مَهمّة أو لظرف خاصّ. مع هذا وجدت مَن يميل عليَّ مُحذِّرًا...

«خد بالك منه».

جملةٌ كافيةٌ لينسجم الخوف منه بجانب الصداقة فيصبح لما يقوم به مهابة واحترام. غير أنّي لم أحذر، لم أمثّل خطرًا على أحد وعليه بالتحديد، وضعت نفسي في موقع العابر فأصبحت خارج دائرة الصراع. ما خفت منه بجدّية.. الفراغَ المريعَ الذي يحيط به ويجرّ إليه مَن يرتبط به، لا تاريخ، ولا حاضر، ولا مستقبل.. مجرّد اللحظة التي يتواجد فيها ومع انصرافه فكأنّه لم يكن.

بعد إسدال الستار وفيما الممثلون ينحنون للجمهور أفقت على أنَّ الأعوام الخمسة التي صادقتُه فيها سرابٌ، أسير بالساعات، وأقف فجأةً أكاد أُجن.. لا ذكرى ثابتة، صور تنمحي قبل لَضمِها لأخرى، ليس فقط معه.. كلّ ما لمسه، مَن صافحه، مَن حكيت له عنه. هل حدث ما فات أم أنّه مجرّدُ تخيّلٍ طال أكثر ممَّا ينبغي.

هل سجنُك كفيلٌ بتخليصِك من ذنبك؟ هل خروجُنا على القانون يعني أنَّ لدينا دينًا ما تجاه المجتمع علينا تسديدُه؟ ولماذا لا يُسدِّد النظامُ دينَه تجاه المجتمع هو الآخر؟ لماذا لا يحاسبه أحد ويحاسبنا هو؟

هذه أسئلة من الضروري الإجابة عنها قبل أيِّ تمرُّد، قناعاتك بأنّك على صواب ستوفِّر لك حريةَ تفكيرٍ مذهلةٍ لم تتخيّل أنَّك تملكُها، تُعينك في التخطيط لكلِّ التفاصيل بدءًا من انتقاء الضحية وليس انتهاءً بكيفية الخروج من المآزق المختلفة.

مصطفى إسماعيل
كتاب الأمان ـ النسخة الأصلية

(2)

افْعَلْ مَا يَتَوَجَّبُ عَلَيكَ فِعْلُه!

جملةٌ لا معنًى لها تقريبًا، تليقُ بأن تكتبَها على الورق، في روايةٍ ما، يقولها البطل في فيلم مغامرات لمساعده بأسلوبٍ غامض، أمر غير مباشر بقتل شخصٍ ما، بحرق كلّ الملفَّات.

لا شيءَ يستدعي الفخر أن تكون تلك الجملة الغرائبية ما ورثته عن أبي إسماعيل السيّد؛ لا مال، لا ذكريات، لا شيء، فقط خمس كلمات تركها كوصية لوالدتي، ولم تكن بأقل منه غرابة.. اعتبرتُها رسالةً لا بدَّ لي من حفظها، لقَّنَتها لي منذُ كنتُ طفلًا، تلفظُها بعربية فصيحة تناسب رجلًا أنفق حياته في حُبِّ الشعر واللغة العربية، لكنَّها فصاحةٌ لم تكن تليق بامرأة بلهاءَ تعي الحياةَ بغريزتها فقط.

لكنِّي وبعد رحلة طويلة نسبيًّا أجد نفسي مُعتزًّا بما ورثت، ومثل أبي، سأورثها لابنتي حسناء إن لم أجد أقوى منها، لن أتركها تعيش كالآخرين بلا جُملٍ تنير لها الطريق وقت الحاجة.

لم ألتفت إلى تلك المعلومة في اعترافات مصطفى وقتها، بالنسبة لي كان ذلك عابرًا جدًّا في سياق القصّة كلِّها، الطبيعي أن يكون للناس أبناءٌ، لكن من غير الطبيعي أن يكون لديهم حسناءُ التي عرفتها. ربّما لو استفاض مصطفى في الحديث عنها لكان لديَّ من المعلومات ما يُمكِّنُني من التعامل

معها، وربما لو سعيت إليها في ذلك الوقت لتغير الكثير في معالجتي لكتابي عن أبيها، لكنّي أضعت تلك الفرصة. بعدما عرفتها وعدت إلى أوراق القضية من جديد لم أجد في كلّ ما دوّنت أيَّ جملة عنها باستثناء اسمها، كنت مشدودًا إلى مصطفى وخطابه الفخم.

مات أبي وأنا في التاسعة، لم يبقَ منه لديَّ سوى مشهد مهيب: أقف بجانب أمّي مستندًا على الحائط الذي بني على عجل بأمر الجيش على مداخل البيوت كجزءٍ من أنظمة الحماية. يلوح لنا مودِّعًا غير أنَّ الشمس تنعكس على الصفائح العسكرية التي تزيِّن بذلتَه، تصيب عيني فلا أراه. راح للمساعدة في صدِّ عُدوان الدول الثلاث ولم يبقَ منه إلّا ذلك الضوءُ الساطع، وعربة مكشوفة تُثير التراب في وَجهَينا. تركني في رعاية بلهائه التي تزوّجها ليكسب الحُسنيَين: ثوابًا عند الله، وجسدًا شابًّا يمكنه الاستمتاع به كيفما شاء من دون الالتزامات الزوجية المعتادة. هذا ما كان معروفًا في الحيِّ الذي نشأتُ به، تبيَّنتُه عندما بدأتُ أتخطّى مرحلةَ الطفولة، سمعتُ إشاراتٍ عنه في مناسبات متفرِّقة. أوّل جملة تصفُ حالي جاءت ختامًا لمشاجرة صبية على نتيجة مباراة لكرة قدم، اختلفنا مع الفريق المنافِس في هدف، يقولون إنَّ الكرة مرقت بجوار القائم المكوَّن من بضع قوالب طوب، ونحن من جانبنا مصمِّمون على رأينا، والحَكَمُ، ولأنَّه الأضعفُ بنيةً بين اللاعبين، قال إنَّ الحدث جرى بعيدًا عنه فلا يمكنه اتخاذ قرار. زعامة فريقي ألزمتني الصمودَ والتصدِّي، واحد من الفريق الآخر صاح مضطربًا...

«يا ابن العبيطة اسكت انت مش فاهم حاجة».

افعل ما يتوجّب عليك فعلُه.

مغزى الوصية يلمعُ كجوهرةٍ في الأوقات الملائمة. نصيبُ مَن سبَّ أمي حجرًا في رأسه. سالت دماؤه بينما يعدو صارخًا بالحقيقة الثانية...

«ما هو انت صحيح ابن حرام».

هل ترغب الإحاطة بالماضي كاملًا، أم لمحات منه؟ هل أقدّمه لك قصّةً مسلّيةً لا تترك لديك إلّا المتعة، أم تفضّلُه مصحوبًا بدلالاته؟ في هذه الحالة ستتحمّل بعض الألم الذي صاحب تكوُّنَ الحكاية. ماذا تريد؟ عبءُ الاختيار يقع عليك ووحدك تتحمَّل نتيجته.

السؤال سيقودنا إلى آخرَ، عذرًا، تحمَّلْني، المسيرةُ الإنسانيةُ، إن كنت لا تعلم بعدُ، سلسلةٌ مترابطةٌ من علامات الاستفهام والتعجُّب ما إن تجرّ واحدًا حتَّى تلاحقه البقيّة ككرات الثلج، على هذا: هل تحبُّ الحكاية من البداية أم من النهاية؟ باستطاعتي حكيَها بالطريقتين بضمان عدم وقوع خَلل. أسألك لأنَّ هناك مَن لا يحبُّون رؤية النهاية إلّا بعد تتالي الأحداث، هؤلاء يتمتَّعون بقدر كبير من الطفولة تجعلهم يكرهون الفلاش باك، ليس لمجرَّد أنَّه يُفسدُ لذَّة المفاجأة، إنَّما لأنَّه يجبرُك على استخدام عقلك، تصبح فاعلًا، تتوقَّع ما سيحدث وفق النهاية التي اطَّلعت عليها. الفلاش باك فيه طمعُ التدخُّل في المشيئة الإلهية...

هل تحبُّ الاطِّلاع على نهايتك ثمَّ ترتّب حياتك وفقها؟

كان هذا السؤال بداية علاقتي الحقيقية بمصطفى إسماعيل. سمعت عشراتِ الاعترافات وأيّ منها لم يؤثّر فيَّ مثل اعترافه. شدَّني واحدٌ لرومانتيكيته، وآخر لقدر العنف فيه، لكنَّهما لم يكونا أكثرَ من روايةٍ مكتوبةٍ باحترافٍ وبأكبر قدرٍ من التشويق إنَّما.. خامدة، بلا روح.

تقول الأوراق إنه تعدى الخمسين، غير أن ملامحه وتكوينه الجسدي لا يباليان بالسجلات.. قوي البنية، يمتلك قدرًا لا بأس به من الجاذبية مصدرها صرامةٌ غيرُ مفتعلة، ومثلما هم الأبطال الأسطوريُّون فإنّ شيئًا في وجهه يترك الانطباع بحزن غائر. أدركت ساعتها أنَّ الوصف الذي يردُ في الملاحم البشرية عن سمات البطل لم يكن تكاسلًا من مدوِّنيها كما ظننت، إنَّما، الوجوه تُنحت على حسب الدور المقرَّر لها لعبه.

نبيل العدل، اعتبر السؤال مثل معظم اعترافات مصطفى.. تجديفًا، ومحاولة ذكيّة لإبعادنا عن مسار القضية الأصلي بتحويلها إلى جدل حول الأساسيات.

«ثم أيّ نهاية.. الموت، ولا الحساب، ولا المستقرّ الأبديّ، ولا الخروج على المعاش، ولا الطلاق.. كلُّها نهايات، يقصد إيه سعادته؟».

«معك حقٌّ».

نطقتُها بصوتٍ هامس، وبلا اقتناع لم يخفَ عليه. منذ بدأت الاطّلاع على أوراق قضيّته لإعداد بحث استرشادي يساعدنا على التعامُل معه، نشأت بيني وبين مصطفى صلةٌ خاصّة، لديَّ موهبةُ العثورِ على نقاط ضعف الآخرين، أمنح لنبيل العدل السكّةَ السهلة إلى شخصية مَن أمامه ليستخلص ما يريد من معلومات بدون مجهود، لكنّي حرتُ كثيرًا أمام شخصية مصطفى، يبدو مثاليًّا للغاية...

«عمومًا كويس انّك مِصدق كلامه.. يعمِل توازن في القضية. لكن أحب أنبهك.. لازم تلاقي خطّ فاصل بينك وبين مَن نتعامل معهم، إيّاك تنسى انت محسوب على أيّ جهة».

تحذيرٌ صارمٌ آخرُ من رئيسي. في الآونة الأخيرة سمعت أكثر من تحذير ربّما يكون هذا أعنفها، أدرك أنّي على وشك فقد الارتباط مع المكان وقوانينه لكنّي لا أملك ما يردّني. العدل لن يفهم أن من يقدر على صياغة سؤال كهذا لا بدَّ يملك قوّة جعله واقعًا. أدرك هذا، وأدرك أيضًا أنّه لن تتاح لي الفرصة للحصول على إجابة من مصطفى، لن نكون صديقين أو شريكين، ليس لي إلّا الرضا بدوري.. أدوّن ما يقول خجلًا من موقعي الذي يفرض علي صفة عدوّه. يحدث إن لم نحظَ بشجاعة تقييم أنفسنا ووضعها في المكان الذي تهواه، أن تتلاعب بنا الدنيا لتصنع هذه المسخرة.

خلف حديقة الأطفال يقع محلّ عملي، مكان لا يدري عنه ولا يزوره إلّا من كتب له قدرُه خوضُ تجربةٍ مميّزة.

«قصر الاعترافات».

تسميتي الخاصّة. أقول لنفسي بينما يقلّني الميكروباص من شبرا إلى آخر نقطة مسكونة في مدينة نصر.. خالد في الطريق إلى «قصر الاعترافات» ليحصل على بعض المرح. الربُّ يحبُّ خالد فاختصّه من بين ملايين بهذه التجربة.

تفصل الحديقة المتسعة بين «قصر الاعترافات» وبين مجموعة قليلة من المباني السكنية. جزء كبير من الحديقة يطلّ على مساحة هائلة محاطة بسور كالح. لا أبنية ظاهرة خلف السور، فقط تلال من الرمال، وعليه لافتاتٌ تحذّر من الاقتراب والتصوير. تضيق الحديقة رويدًا لتنتهي بممرّ يحدّه صفَّان من نبات الصبّار الصحراوي، يتّسع الممرُّ لفردَين. إذا جاء الموظّفون في وقت متزامن فهم مجبرون على الصف في طابور بجوار الصبار. نبتة صبّار لكلّ موظّف. الباب لا يسمح إلّا بمرور واحد فقط بعد فحص بطاقته في جهاز الأمان ليمنحه إذنًا بالدخول. غير أنَّه لم يحصل ولو لمرّة الزحام الذي أتخيّله، ربّما لأنَّ عدد الموظّفين قليل في الأساس، أو لأنّني أصل متأخّرًا مفضّلًا التمهُّل في حديقة الأطفال، أتأني أمام ألوان خضرتها المبهرة، تأخذني إلى حدٍّ يزداد معه يقيني بأنَّ شاجال مصمِّمُها، الوحيد القادر على العبث هكذا بالألوان وخلطها لتُدخِل الفرح لقلب مَن يراها. غير أنَّه لسببٍ ما غاب الفرح عن أطفالها الذين لا ينقص عددهم ولا يزيد، شاردون بما لا يتّفق مع تصوُّري عن الطفولة، ليست لديَّ خبرةٌ بالأطفال، لكن بشكل عامٍّ أليس من المفترض أن يبدوا مَرحين وتلقائيِّين؟ هؤلاء ليسوا هكذا، منهمكون في اللعب بشكل منظَّم وكأنَّهم تلقّوا تدريباتٍ. ينزل أحدهم من «الزحليقة» العالية ويستدير عودة إلى سلمها، ينتظر دوره مثل بالغٍ تعلّم أنَّ النظام وسيلتُه لنيل ما يريد، لا صياح ولا صراع على لعبة. حفظتُ وجوهَهم

بلا أسماء، ولم أكن لأعرفَها فأمَّهاتُهنَّ على الكراسي الخشبية لا ينادين عليهنَّ، لم يحدث أن صاحت واحدةٌ على طفلها ليحترس، لم تجر إحداهن ملهوفةً على ولدها الذي سقط. يجلسنَ مطمئناتٍ، على وجوهِهنَّ وداعةُ مَن امتلك اليقين، نساءٌ في الثلاثينيات والأربعينيات، متأنِّقات اقتداءً بنساء مدينة نصر الغنية بلا جمال، منشغلات بهوايات من زمن أمهاتهنّ، ثلاث أو أربع منهنَّ لا يتركن مغازل التريكو، ومثلهن يتصفحنَ مجلَّاتِ الأزياء، بينما تغرِّدُ خارج سربِهنَّ شقراءُ أصغرُ عمرًا، تقرأ في كتب لها أغلفةٌ قديمة. غالبًا يعمل أزواجهن وراء السور الكالح، في مهنٍ غامضة داخل أبنية لا اسم لها، أو أنَّهم زملاء لي لم ألتقِهم.

الطابق الأرضي من القصر يضمُّ مكتبَ استقبالٍ يجلس إليه موظّفٌ عجوزٌ يمضي وقته في حلِّ الكلمات المتقاطعة، تدوم علاقتي به الثواني التي يستلزمها مرور حقيبتي على الجهاز الأمني، ألقي عليه التحية فلا يبالي، لا يرى مَن يعبرون بجواره، تمَّت برمجته مع الجهاز، طالما أنَّ صف الأضواء في أعلاه لم يتغيّر إلى الأحمر، ولم تنطلق صفارته المزعجة، فلا ضرورة لأن يرفع عينه. قد أضع سكينًا في حقيبتي ليزعق جهازه ويضطرّ للانتباه إليَّ.

العجوز مركز البهو، وحوله أربعةُ سلالم كلٌّ منها يؤدِّي إلى إدارة مختلفة. وخلف مكتبه سلَّمٌ إلى السرداب، حيث سَكنُ المُذنبين، عشر غرفٍ صغيرة مريحة، يتمُّ ترتيبُها وتفتيشها في الصباح بينما يتناول مقيمُوها إفطارَهم في المطعم الصغير المجاور لصالة الألعاب الرياضية، لهم حرّيةُ التنقُّل بين غرفهم والصالة والمطعم، ليست هناك مواعيد، ولا غرف مُغلقة، لكنَّ السرداب عالمُهم إلى أن ينتهي التحقيق.

جاء مصطفى إلينا مصحوبًا بقائمة مخيفة من ضحايا سرقاته، تضمُّ.. وزراء، دبلوماسيّين، فنّانين، رجالَ دينٍ، رجالَ أعمال. شخصيّات ووقائع هو من دلَّ عليها، أصحابُها فضّلوا عدم الإبلاغ، حرجًا أو رغبة في تجنُّب

الفضائح، مَن سيقبل الخوض في ما جرى بغرفة نومه، مَن يمكنه تجاهل التحذيرات العديدة المبتكَرة لمنعه من الإفصاح. أوراقٌ اختفت وليس من الصالح الكشفُ عنها، صورٌ خاصّة للزوجة أو الزوج مُخفاة بعناية بعيدًا عن الطرف الآخر وانكشفت أمام أعينٍ حسَّاسة لإيجاد المخبوء. تهديدات لم يكن في الإمكان إلَّا الانصياع لأوامرها. نبيل العدل نفسُه اخترق معتقداته وقناعاته لأجل إخفاء صورة زوجة أخيه سوسن الكاشف شبه العارية المرمية في أحضان عشيقها، تلك التي فاجأته وتحتها تحذيرٌ خُطَّ بالأحمر الناري...

«ما تبلَّغش».

المخيف بالنسبة للسُّلطات وما جعل ملفَّ مصطفى ينتقل إلى الدرجة الأعلى ليس فقط أنَّ من بين ضحاياه أسماءً تخضع منازلُها لحراسة صارمة على مدار الأربع وعشرين ساعة، لكنَّ الأهمَّ أنَّ أحدهم، وهو اللواء الذي سقط مصطفى أثناء سرقة شقَّته، يرأس فريقًا يتولَّى تحديث الخطط الإستراتيجية لحراسة رئيس الجمهورية. كما أن ذلك لا يمكن مقارنته باعتراف مصطفى أنَّه خطَّط لسرقة منزل الرئيس نفسه، وأنَّه نوى أن تكون تلك عمليّته الأخيرة في البلد، مبرِّرًا أنَّ نجاحه فيها يعني أنَّه لا يوجد تحدٍّ بعدُ يمكن أن يواجهَه، وأنَّ الوقت حان لتجريب خبراته في بلد آخر يعلو فيه مستوى الإثارة. كان الأكثر إدهاشًا أنَّ كلماتِه ارتقت من اعترافاتٍ إلى ما يشبه النظريات.

> كلَّما زادت الحراسة، كان اختراقُها أسهل. كلَّما زاد ارتفاع السور، زاد اطمئنانك وراءه، وكانت قدرتي على تخطيه هينة.

لماذا؟ إذا توافرت حول شخص ودارت بلا إجابة فهذا يعني أنَّه سيتمُّ تحويلُه إلينا، لنُزيلَ تلك الـ«لماذا» ونعيدَه بريئًا خاليًا من علامات الاستفهام. مجيئُه لنا اعترافٌ بأنَّه الأفضل والأمهر في مجاله، شخص من نوعية خاصّة، ينضمُّ إلى رفاقه.. عباقرة غيرُ مَرضيٍّ عنهم، مطرودين من جنَّة الشرعية.

المطلوب من هذا البحث الكشف عن هدف تنظيم مصطفى، والتوصُّل إلى أتباعه الذين لم يُرشد عنهم. هناك قلقٌ من انتشار الفكرة، وبرغم أنّه تمَّ القبضُ على أهمِّ مساعديه وأدلوا باعترافات تفصيلية، إنَّما الشكُّ في وجود شخص على الأقلِّ لديه القدرُ نفسُه من النباهة، متوارٍ، حفز على الاهتمام، مَن تمَّ القبضُ عليهم خطِرون جنائيًّا وهذا يمكن تقبّلُه، ليس لديهم قناعة كبيرة بآرائه ومعتقداته لكنَّهم سايروه بحثًا عن المكسب، كان في الإمكان، كما قالوا، أن تبقى عمليّاتُهم مستمرَّةً دون انفضاح لأنّ خططَه تلتزم الحذرَ بشكلٍ كامل، معتمدًا على ما أسماه «كتاب الأمان» ذلك الذي يضمُّ مئاتِ الملاحظات حول أفضل الأوقات لارتكاب جريمة، والمحاذير التي لا بدَّ من تجنُّبها، مئات العناوين وأسماء ساكنيها ومهنهم، هواتف مسؤولين، طرق الهرب والتخفِّي، أساليب التهديد والابتزاز. كتابٌ دوَّنَه بصبرٍ وحبٍّ من نتاج خبراته وخبرات آخرين، يكره الخطأ، راغبًا الوصول إلى حالة مثالية يستطيع فيها امتلاك نفسه والسيطرة على الظروف مِن حوله. حالمًا بالوصول إلى الكمال، في طريقه إلى هذا استطاع تحويل الناس العادية إلى شركاء، بعضهم لم ينتبه، وبعضهم متعاطفٌ مع أفكاره وأحلامه. ما لم يفطن إليه أنّ الخطأ يحدث تحديدًا عندما نحرص على تلافيه. مع ذلك لم يكن ليسمح لأفكاره أن تختفي، والسؤال الأساسي. إلى مَن انتقلت؟

«نحن استنتجنا أنَّك كنتَ تحاول إحياء أسطورة روبن هود؟».

«ماذا تقصد بسؤال كهذا، هل فشلتم في التعامل معنا بالطرق المعتادة فأصبحتم تلجَؤون إلى الأسطورة، أم أنَّ هذا شرفٌ لي وحدي؟».

برغم ذكاء مصطفى إلَّا أنَّه كان مرتبكًا إزاء المكان المتواجد فيه، يحاول إخفاء توتُّره خلف الصلابة واللا مبالاة، غير أنَّه لا قناع يستعصي على الترويض.. النظام يعمل ولديه صبرٌ ووقتٌ لبلوغ مراده. مصطفى في المقابل رومانسي لم يدرك أنَّ الزمن ليس الستينيّات، ما زال يحيا وفق رؤية ذلك العصر محاولًا التشبه بالآلهة، والمحصّلة أنَّه سقط في فخّ إنساني

ساذج، ومثلما يقولون.. السقوط لا يحتاج إلّا إلى مرّة أُولى ليستنسخ نفسَه بعدها. ألمحُ حيرتَه في نظرات متسلّلة، محاولات ماهرة يدسُّها بين كلماته لجلي السرِّ. يومًا خرج العدل من مكتبه وتركَنا، تغاضى عن طريقة التعامل الحيادية وسألني بشكل مباشر...

«احنا فين؟».

ارتبكت أمام جرأته، لم نتبادل الحديث قبلًا، حاولت إجابته والفخر يملؤني لانتباهه لي، لكنّه في الأغلب أدرك أنَّ حيرتي لا تقلُّ عنه. ونبيل العدل من جانبه كان يتعمد أن يضاعف له الغموض عن المكان. وسيلته لمواجهة تحدي مصطفى لسلطته...

«مَهمَّتي ليست الإدانة أو التبرئة.. ما يهمُّنا لا علاقة له بتخميناتك، لا تتخيّل كمَّ الموضوعات الغريبة التي نتصدَّى لها، وتستلزم منّا تطوير وسائل بحثنا. وعلى هذا عندما أقول إنّك سعيت لإحياء أسطورة روبن هود، فهذا ليس من عندي، بل بِناءً على بحثٍ خاصٍّ أعدَّه عنك شخصٌ مثقَّفٌ وفاهم».

أنا «الشخصُ المثّقفُ والفاهم» الذي يقصدُه نبيل العدل. وكلماتُه عنِّي ليست تعريفًا أنيقًا بي، لكنَّها طلقةُ المسدس التي تعني أنَّه علي الانطلاق. أنقضُّ لبخِّ السمّ، تتخدّر الضحية فلا تتأوّه حين سلخها، لا يستهوينا الألمُ ولا الدماء...

«نحن المرحلة الأكثر رُقيًّا واحترامًا في السادية».

سأردُّ بهذا على ما يمنحني إيّاه عبد القويّ من تعريفاتٍ لا معنى لها.

نبيل كان يسعى بشرٍّ صبيانيٍّ لتوريطي في عداء مع مصطفى، لكنِّي تجاهلتُه، لم أتدخَّل في الحوار، متمنِّيًا أن يعي مصطفى ما أقدِّمُه له. لكنَّه لم ينتبه إلى الطُّعم، بدأ يتحرّك لهدم نظريّتي مُقدِّمًا للعدل ما يريد...

«أنا لست مُصلحًا ولا زعيمًا سياسيًّا، فقط أسرق الأغنياء لأنَّ لديهم ما

يستحقُّ العناء، وربَّما لأنَّهم لن يفتقدوا ما ضاع منهم، لست معنيًّا بالطبع إن كانوا سيتأثّرون نفسيًّا أم لا، ليس هذا ما أقصد، إنَّما فقط أنَّهم وببعض الضغط قد يتغاضَون عمَّا تمَّت سرقتُه ولا يبلغون عن الواقعة، وهكذا أتجنب موقفًا مثل ما أنا فيه حاليًا».

«لكنَّ التحرِّيَّات أثبتت أنَّك تعطي بعض الفقراء من المال الذي سرقته، هذا يثبت أنَّك كنتَ تخلق من نفسك أسطورةً يتداولها الناس».

«على عكس ما تعتقده، أنا لا أتعاطف مع الفقراء، أرى أنَّهم بشكل كبير مسؤولون عن واقعهم، هناك شيءٌ مهمٌّ اسمُه الإرادة الإنسانية، إن لم يستغلّها صاحبُها في الخروج من مأزقه، فليس عليه أن يلوم أحدًا. كنت أبذل مجهودًا لا تتخيّله في التخطيط لكلِّ سرقة ثمّ في تنفيذها، هل تعتقد أنِّي أقوم بهذا لمصلحة فقيرٍ لم يجرِّب غير الشكوى ليلًا ونهارًا! ثم أنِّي لم أعتقد أنَّ ما امتهنته خاطئ لأكفّر عنه، ولم أعدم أسبابًا للرضا حتَّى استمدَّه من إسعاد الآخرين».

التحقيق يُغلَق، وكلماتُه ترنُّ في عقلي، لهذا لم أكن أتعب في إعادة تدوينها عند عودتي إلى المنزل، لكنِّي أضيف إليها إحساسي بسير التحقيق، الأسئلة التي كان ينبغي أن يُوجّهها نبيل العدل، أو التي وجّهها في غير توقيتها.

كيف حدث أن تحوَّلتَ إلى السرقة، كيف وجدت السبيل إلى تبرير الأمر؟

> الحقيقة أنَّ الحياة تصبح أسهل عندما تحدّد اختياراتِك بسرعة، اترك ما يمانعك وخذ ما يأتيك. أن تحوِّل الفشل إلى نجاح هذه قدرةٌ تكتسبها من مراقبة خيباتك، أن تتحوّل من النقيض إلى النقيض إذا تطلّب الأمر هذا. من أين تأتي القدرةُ على التحوّل.. من أستاذ جامعي إلى لصٍّ، من الحلال إلى الحرام؟ هذه طبيعتنا التي إن لم تدركها، فستظل تائهًا، المزيج المدهش من الطين والماء والنار. أنا أختبر نفسي لا أكثر، ربَّما فيما بعد أصبح شيئًا مغايرًا.

هل يمكنني إتيان هذا؟ هل في إمكاني التحوّل؟ كنت أدرك صعوبة ذلك، التحوّل الذي أجراه مصطفى برغم عنفه الرمزي إلّا أنَّه تقليدي.. من الخير إلى الشر، القصّة الإنسانية المُتكرّرة ملايين المرّات، إسهامه الخاصّ أنَّه عكس القانون النموذجي للبشرية.. الشرير الذي يتلمّس طريقه إلى الخير لديه مفاهيمُه الخاصّة ولا توجد مفاهيم أخلاقيةٌ تعطّل تنقّله بين القيم.

أنا أمضي حائرًا، لم أبلغ مقامًا يُلهمني ما الخير وما الشرّ. أعدتُ قراءة رؤى الفلاسفة والمفكّرين مرّات والفكرة تعاندني، حتَّى ظننتُ أنَّهم مثلي لم يصلوا للفارق بين المبدأين، ثم أدركت أنَّ شرط العلوِّ فوق هذه المنظومة المرور بها أولًا، اختبار الخير والشرّ، وأنا لم أكن إلّا أحمقَ ظنَّ المراقبةَ والقراءةَ يَصلُحان بديلًا للتورُّط لاكتساب الوعي، لكن هذه أكاذيب، الكَتَبة كذَّابون، حمقى مثلي، ظلُّوا على الشاطئ وكتبوا أوهامهم وأنا انخدعت بها، ظننتُ أنَّها نتاج خبرة وهي نتاج عجز وخوف.

لا تتصرّف في بيت ضحيَّتِك كَلِصٍّ نزِقٍ يدفعُه حقدُه إلى التخريب والتدمير.

عَامِل مكانَ سرقتِك على أنَّه بيتُك، لا تجرح مشاعر الآخرين بهتك كلّ خصوصيّاتهم إلّا لضرورات منعهم من الإبلاغ عمَّا حدث.

حفاظُك على مساحة الاحترام بينك وبين مَن تقتحم بيته يضمنُ لك سيطرتَك على مشاعرَ لا ينبغي أن تقودَك في تلك اللحظات فتفسدَ عملَك.

مصطفى إسماعيل
كتاب الأمان ـ النسخة الأصلية

(3)

أنا الفرصة التي تمنّتها سوسن الكاشف للخلاص. لم أُعلّق صورتها مع عشيقها على حائط بيتها، تمامًا بجوار صورة زفافها، لمجرَّد منع زوجها من الإبلاغ عن السرقة، لو أردت ذلك فقط، لهدَّدته بأوراق أخرى أكثر أهمية. هل هي مصادفة غيابه التامّ عن ألبومها السرِّي، صورٌ ترصدها في مناسبات مختلفة، في المدرسة، على الشاطئ، رحلات إلى أوربّا، وحيدة في بار لا ترافقها سوى زجاجة بيرة، ترقص بصحبة صديقة في عرس وملامح تذمّر على وجوه الأهل. أخذت القرار لأردَّها إلى صورتها وهي بعدُ في السابعة أو الثامنة عشر، تضع أصبعيها في فمها غالبًا تحاول «التصفير»، وفي الأعلى في إحدى الشرفات شخصٌ يشير لها، وفي الشرفة المجاورة رجلٌ وامرأة يجلسان متقاربين، ذراعه تحيط بعنقها، وأمامهما منضدةٌ عليها فنجانا شاي. في السبعينيات، قدّرت هذا من الزيِّ ومن حرّية كدت أشتمُّ نسيمَها بينما أتأمّل تفاصيل الصورة. ألبومُ سوسن الكاشف السري وتناقضه مع الصور المتجهِّمة المُعلّقة على الحوائط، أدخلني لقصّتها.. كيف حدث أن تحوّلت بها الحياة إلى تلك الدرجة.

حمايةً لسمعة عائلة العدل، كان المفترضُ ألَّا يتمَّ الإفصاح عمَّا أدلى به مصطفى إسماعيل ذلك اليوم. يحتفظ به ثلاثة لا ينقُضُ أحدُهم العهد.. اللصّ والمُحقّق والكاتب. غير أنّي، الآن، مؤلّف، ما الذي ينتظرونه! الكاتب لا يأبه إن استحلفته بالأعراض والشرف والأخلاق. الكتابة، وفق

العالِمين بأسرارها، إن لم تكن خيانةً للمستقرِّ والثابت فلا قيمةَ لها. ثم لماذا يعتقد نبيل العدل أنَّ شرف عائلته أسمى بحيْث يمحو أيّ ذكر لها من سجلِّ التحقيقات. والأهمُّ أنَّ حكاية سوسن الكاشف وما جرى لها ضرورية في توضيح الأسباب التي دعت مصطفى إسماعيل إلى مشروعه كلّه.. لهذا أبوح بالسرِّ

مصطفى لم يدرِ بالصلة التي تربط بين رئيسي وبين ذلك البيت، كتاب أمانه لم يتَّسع لمصادفةٍ كتلك، لهذا لم يفهم سبب تحفّز المحقّق من فضحه تلك المرأةَ أمام زوجها بهذا الشكل الفجّ. لكنَّ في ظنِّي أنَّه حتَّى لو علم لم يكن ليهتمَّ، لديه قناعاتُه التي تجعله مؤمنًا بما يجسّده...

كلُّ بيت دخلته قرَّبني خطوة ممَّا كنت أجهل.

الجملة الوحيدة التي كتبتها من اعترافه في السجلِّ الرسمي عن تلك الحادثة، أفصحَ العدلُ عن رغبته بوضوح، بينما يغادر مكتبه إلى حيث كنبة في نهاية الغرفة.. التقط القلمَ من يدي أغلَقَه ووضعه على الورق أمامي. اعتذرتُ للورقة التي ستظلّ بيضاء. هذا المساء أستمتع بدور المتفرِّج كاملًا، طفل يقرأ عليه أبوه حدوتة ما قبل النوم، لكن ماذا عن أصابعي! وضعتها على ساقي، أنقر بها لحنًا يطوف برأسي وضاع منِّي عنوانه ومؤلّفه. ما نسبة حدوث هذا.. تُعاونُ صديقِك على النسيان ليكتبَ الشعر فتضيع ذاكرتك أنت!

علا صوت نبيل يعتذر لمصطفى عن المقاطعة..

«اتفضل.. آسف».

بعد عمليات عدّة حفظ رفاقي التعليمات، ما نريده وما لا ينفعنا، ما لا ينبغي الاقتراب منه، ما يعني أخذه التورّط فيما لا يمكننا مجابهته، بعض الأشياء لا يتسامح الناس مع ضياعها، وغالبًا ما يكونون مجبرين، المستندات المُهمّة، السلاح. نحن نسرق ما يمكن نسيانه

ببعض التهديد. يباشر زملائي مَهمَّتهم كما يليق بمجموعة وضيعة من اللصوص بينما أجول كراهب في أرجاء البيت أتلمَّس تفاصيله. المسألة في البداية لم تكن تخرج عن نطاق البحث عن أوراق الابتزاز، لكنَّها تحوّلت إلى غاية في ذاتها، بتُّ أعشقُ تأمُّل كيف يحيا ضحايانا، والخبرة علّمتني كيف أحكم بسرعة ودقّة على البيوت، هذا تسيطر عليه امرأته من اللمسة الأنثوية الطاغية عليه، وهذا يخلو من المحبّة تتبدّى في غياب التناسق الذي تأتي به الألفة، هناك بيوتٌ ترتاح لها، تأسرك بمجرّد دخولها. هل سمعتَ خبرَ اللصوص الذين غَفَوا في بيوتٍ اقتحموها حتَّى فاجأهم أصحابها؟ كنت أظنُّ أنَّ هذا أغبى أنواع اللصوصية وأكسلها، حتَّى أتقنت المهنة ومررتُ بهذا الإحساس.. هذا بيتي، تلك المعلّقة صورتها على الجدار زوجتي، ملابسها الداخلية متروكة بإهمال كعادتها على السرير وفي الحمام ليظلَّ جسدها حاضرًا.

تتركني صحبتي لحالي عالمةً بأنَّ دوري يضمن انصرافَنا وكأنَّنا ضيوف أهداهم أصحاب المنزل الكرام بعضًا ممّا يملكون، أقارب فقراء لهؤلاء الأغنياء يعطوننا على سبيل المشاركة ملابس لنا ولأولادنا قائلين برقّة إنَّها لم تستعمل لكنَّها أتت غير مناسبة، ونحن سنقبلها، نقنع أنفسنا أنَّنا نتبادل الهدايا...

«تهادُوا.. تحابُّوا».

غير أنَّنا فقراء متمرِّدون، وناضجون للدرجة التي تمنحنا القدرة على الاعتراف أنَّنا حاقدون لأنَّنا الأقل شأنًا، سيدفعنا هذا الحقدُ إلى إهدائهم أيضًا ما يُبقينا في قلوبهم، شيئًا موجعًا ومؤلمًا، ربَّما يقلّب منظومة مبادئهم، يكفّون عن استقبال أقارب فقراء، ولا يمنحونهم هدايا، ليس بتلك الطريقة، لا داعي للرقة.

قلت لك إنَّ كلَّ بيت دخلتُه قرَّبني خطوةً من نفسي، كلّ ما سرقتُه دلَّني على جزءٍ منِّي وما أريده، كان الأمر أقرب للعلاج النفسي، لهذا أدمنت العيش في حيوات الآخرين، لم أعد أهتمُّ بما نخرج

به، غنائمي التفاصيل. أنا لا أملك مثل تلك السيّدة صورًا لصباي، التصوير ميزانية إضافية لم نكن نملك تحمّل كلفتها، الكاميرا التي ورثتها عن أبي لم يستخدمها إلّا قليلًا، ونحن من بعده حافظنا عليها للمناسبات الاستثنائية، تلك التي يتمّ الإعداد لها جيّدًا لأنّه سيتمُّ تصويرها، هكذا لا يمكنني تذكُّر كيف كنتُ أبدو إلّا اعتمادًا على ذاكرة تتحرَّك وفق إرادة اللحظة. ضمن أوراق أبي، ضابطُ الاحتياط إسماعيل السيّد، التي يتشكّل معظمُها من مستندات رسمية وخطابات موجّهة إليه من قيادة الجيش، بضع صور لمناظر طبيعية، وواحدة فقط منها أعرف هيئته.. واقفًا على الشاطئ في الإسكندرية، كما دوّن عليها، مع مجموعة من زملائه، يقلّدون وقفة أبطال العالم في رياضة كمال الأجسام، إحدى اليدين قوسًا في جنوبهم، والأخرى ترتفع وترًا إلى السماء ومعها الوجه، لأعلى نقطة يمكنه أن يصلها.. الآلهة الصغار الذين سقطوا دون أن يدركوا لماذا.

أنغمس في حياتها، أقارن بين تلك الصور المخبوءة والصور الرسمية على الحائط: زوجها الملتحي، بنات العائلة المحجّبات، أولادها الأكثر شبهًا بأبيهم. لا صور عائلية إلّا واحدة.. مع بنت صغيرة، الاثنتان في البحر، الصغيرة تصبُّ ماء الجردل على رأس أمِّها. من بين أولادها الثلاثة تبدو الأقرب لها، في صور الحائط تتميز نظرتاهما بالتمرُّد، بينما الأب والولد والفتاة الآخرون هادئون ومسالمون بما يليق بتديُّن تشي به تفاصيل عديدة متناثرة في الشقّة.

يجلس مصطفى على الكرسي الضخم المكسوِّ بالجلد الأسود، بطريقة تناسب ثقته بنفسه، يضع يديه على مسنديه، يتكلّم في استرخاء وكأنّه في غرفة مكتبه مع أصدقاء قدامى لا حرج بينهم في الحديث عن أدقِّ التفاصيل التي يمرّون بها. أجلس على كرسي مشابه لكنِّي غارق فيه، حاولت اختيار جلسة تتناسب مع ما أتصوّره عن نفسي لكنَّها جاءت متكلِّفةً إلى حدٍّ بعيد. ما نظنُّه عن أنفسنا لا يتحقَّق دومًا في الواقع، يظنُّ في نفسه العظمةَ وأنا كذلك لكنَّ التطبيق العملي يثبت أنَّ رؤيته لنفسه

صحيحة، فهل كنت مخدوعًا في نفسي أم أنَّ الأمر في حاجة إلى تدريباتٍ ما لمطابقة الفكرة مع الواقع...

«تدريبات على العظمة»!

يصلح عنوانًا جيِّدًا لكتابٍ يتناول مشاكل نوعية من الناس يبحثون عن حلول لمآزقَ مشابهة، عن التناسق بين الفكرة عن الذات وحركة تلك الذات في الواقع. قنعتُ بالجلوس على طرف الكرسي مائلًا بجسدي إلى الأسفل قليلًا، تلميذ في محراب أستاذه، أتعلّم في صبر إلى أن تتكوّن قناعاتٌ كافية تجعلُني أجلس منتفشًا.

> عندما بدأت السرقة كان ذلك وفق غضب لم أستطع تنفيسه إلَّا عبر هذا السبيل، هذا لا يعني اعترافًا ما بالخطأ، لا على العكس، لكنِّي فقط لم أكن أُدرك على وجه الدقَّة أبعاد ما يجعلني أتصرَّف على هذا النحو، لكن في منزل هذه السيّدة تحديدًا أدركت أنَّ لديَّ رسالةً ما لا بدَّ من القيام بها. يمكنك اعتباري شيطانًا إن أردت لكنِّي أملك قدرة فضحِ الزيف الذي نعيش مسجونين فيه.

لا عملَ يتمُّ إلَّا بإشارةٍ منِّي، مُشاركًا من البداية إلى النهاية، القائدُ الحقُّ مَن يتقدَّمُ جنودَه، هذا ضمانة بقائه في موقِعه.

وجودي على أرضِ العمليّاتِ يحمي مشروعي، مهما بلغت براعةُ الجنود وتدريبُهم، يعجزون عن التعامل مع المفاجآت.

القيادةُ تعني سرعةَ ردِّ الفعل، الهدوءُ في مواجهة الأزمات وطمأنة الرجال بأنَّهم دومًا محميُّون ممَّا لا يعرفون التعامل معه.

مصطفى إسماعيل

كتاب الأمان ـ النسخة الأصلية

(4)

«مرحبًا... هل تحبُّون الاطِّلاع على نهايتكم ثم ترتّبون حياتكم وفقها»؟

وجهت السؤال إلى ديمتري، صاحب مكتبة «سافو»، وأصدقائه الصامدين في صورتهم التاريخية. منذ كنت صغيرًا آتي مع أبي إلى المكتبة، لم يتغيّر في الصورة أيُّ تفصيلة، عناصرُها متمسّكون بمواقعهم، يُثبت ديمتري من خلال الصورة، الفترة الأجمل في حياته. يقف بحلّة أربعينية بيضاء.. لولا منديل أحمر في جيب الجاكت العلوي، لبدا أشبه ببقعة حليب ضخمة. وعن يمينه ويساره ماريا وهيلين، وعلى الطرف الآخر صديقُه صاحبُ الاسم الصعب الذي لم أتمكّن من حفظه. تحفّظ ديمتري في الأمور الشخصية يفتح حولها الافتراضات. أضع بين الحين والآخر سيناريو مختلفًا للصورة، ولتلك العلاقة الرباعية التي انتهت برحيل ثلاثة إلى اليونان وبقاء ديمتري.. الشبراوي الأصيل المولع بمصر. كان لا بدَّ لصديقه هذا أن يغادر، ملامحه الذكورية الحادّة وجسده الرياضي وملابسه البسيطة والأنيقة في آن، تشي بطموح لم يعد له محلٌّ وسط الديكتاتورية الوليدة، مؤكّد أنَّ الفتاة في الطرف البعيد رحلت معه، سيناريو اليوم يؤكّد أنَّها حبيبته، لا مبالاتها بانفراجة ساقيها تناسب تحرّره، بينما تليق الجلسة المتحفّظة لصديقتها بتمسُّك ديمتري بالتأنُّق في مناسبة لا تستحقُّ، لكنَّها لم تكن لتحتمل تحفظه فآثرت اللحاقَ برفاقها.

أمام الأهرامات وأبي الهول امتطى رجلان وامرأتان أربعةَ جمال ونظروا

للأفق محاولين التشبّه بالتمثال الذي لم يكن فقدَ مهابته بعد، غير أنَّ الصورة لم تعطِ الانطباع المنشود.. سحرٌ فرعونيٌّ ما تسلّل من الأهرامات إلى الجمال الأربعة باعثًا فيها روحًا ساخرة دفعتها لتقليد فرسانها والنظر معهم بتحدٍّ.

نعم يا مصطفى، أُحبُّ، بل وأتمنى، الاطّلاع على نهايتي ثم أرتب حياتي وفقها.

يجرُّ ديمتري جسده قادمًا من غرفة المخزن التي لم يسمح لي إلى الآن بدخولها. لم يعد هناك شبه بينه وبين صورته، لكنَّ البدايات تقود إلى النهايات عادة، استجاب إلى ميله للسمنة مضيفًا لكلِّ خلية في جسده أضعاف حجمها. يرفع نظّارته إلى عينيه ويمسح حبّات العرق. يبذل مجهودًا كبيرًا داخل تلك الغرفة، لهذا لا بدَّ من مساومات طويلة للحصول على كتاب منها، كالعادة سيؤكّد أنّه إصدارٌ نادرٌ لا وجود له، ولا حتّى في دار الكتب التي طالها الإهمالُ مثلما طال كلَّ شبرٍ في البلد.

«كنت بتكلِّمني».

«لا يا عم ديمتري، سلامتك».

لم يُخفِ استرابته. بالنسبة له بعض التصرُّفات البسيطة تكتسب أهمية لا تليق بها. تشاغلت بالتطلّع إلى الكتاب في يده لأمنع شكوكه من التمادي. لم يتآلف مع ضعفه الذي فرضه العمر، يعمل بدوام كامل للبرهنة على لياقته، وأكثر ما يكرهه التشكيك في حواسه باعتباره عجوزًا مسكينًا. أخطأت، كان لا بدَّ من مصارحته بأنَّ عادتي في محادثة نفسي انفلتت من سيطرتي، ساعتها سيبتسم مُبديًا ذلك النوع من التعاطف الذي يضع مسافة بينه وبين الآخرين، المهمّ أنَّه سيطمئن أن لا خلل أصاب أحد أعضائه فذلك يعني بداية الانهيار.

وضع الكتاب فوق مجموعة متراصة من الروايات البوليسية الخفيفة التي رفض التعامل فيها مع بداية انتشارها محتقرًا فكرتها وأسلوب صياغتها

وحتَّى أغلفتها، قبل أن يضعف أمام إغراء ربحها. أخفى عنوان كتابي بيده، حريصًا على إتمام لعبة التشويق التي يتقنها...

«علم الشيفرة مثل السحر، يحتاج أولًا للإيمان بأنَّ الواقع غير موجود، شرط أساسي بدونه سيظلُّ ما تراه مجرّد طلاسم».

يصمت ليلتقط أنفاسه. الجملة القادمة ستكون أطول بمراحل، قد تشمل التفرقة بين الشيفرة من حيث إنَّها علم، والسحر باعتباره غيبيًا لا يمكن المجازفة بالاعتماد عليه كلية، كيف يمكن الدمج بينهما؟ هذه لعبة الإبداع طوال التاريخ. جملة ديمتري الأساسية، يخلطها ويقحمها في أي موضوع حتَّى إن كان عن الطعام، كثيرًا ما فكَّرت أنَّه في الغرفة الممنوع دخولها لسواه، يخترع شيئًا يتوافق مع نظريته، غير أنِّي فشلت في تخمين العناصر المتنافرة التي يدمجها، ولا أظنُّ أنَّ أحدًا يقدر، فديمتري موسوعة تتنفّس، لديه بجاحة أن يعي كلّ شيء عن شيء بقراءة كتاب عنه. لكن ولأنّ مَن يجيد الحديث يستعصي عليه الإنجاز فإنَّ الأمور لا تسير مع نظريته كما ينبغي، منذ توطّدت علاقتي به وأنا أسمعها منه، وربّما كان أبي من قبلي. نعيش في إطار جُمل لا تتغيّر، ثم نقدّم على عكسها هربًا من ملل التكرار والتشابه، هذا ما لجأ إليه صديقي المقرّب لطفي زاده، لم يحتمل جملة أبيه المكرّرة عن الحرّية فانتقل طوعًا إلى صفوف جماعة تراها كفرًا.

يرن خلفي صوت الناي اليوناني، إحدى علامات حياتي. أسبق أبي لأدفع الباب بقوّة فيخبط الآلة المثبتة خلفه ويعزف اللحن، وكثيرًا ما أتركهما لأخرج إلى الشارع وأعود لدفع الباب لسماع الموسيقى مرّة أخرى، ينهرني أبي طالبًا منِّي التزام الأدب، فيصيح به...

«لا لا، باراكالو، من فضلك، باراكالو، سيب الولد يلعب».

بخطوات مرتبكة تدخل على الإيقاع شابّة ترتدي فستانًا مليئًا بالورود، شعرها غزير بصورة ملفتة حتّى أنّي انشغلت به ولم ألمح وجهها. تلفتّ

حولها قبل أن تقف على بعد خطوات منّي مطرقة إلى الأرض وسكنت وكأنَّ ميدوسا جمّدتها. هذا ما يناسب ديمتري، لا بدَّ أن يكون زبائنه مختلفين بطريقة ما، هائمين وحيارى، يناديهم صوت نايه اليوناني الحزين فلا يعودوا يملكون أنفسهم بعد.

انتهزت فرصة انشغاله بها لأنصرف. لم يلح كثيرًا لأبقى.

«نكمل كلامنا».

«عندي ميعاد مهم».

خرجت محتضنًا الكتاب إلى صدري...

«إينجما.. قصّة الحرب والشيفرة».

آملًا أن يساعدني على الاهتداء إلى نقطة بداية. اعترافات مصطفى شبكة من الألغاز، يستشهد فيها بأقوال من الكتب، أحيانًا لا تتماشى مع السياق، في ثنايا كلماته رسالة ما، ربّما تتجاوز الواقع إنَّما ليس إلى درجة نفيه كما يقول ديمتري، لكن من خَبَرَ صديقي اليوناني الطيّب مثلي لن يدقّق فيما يدلي به من آراء، ولن يلوم نفسه لتملّصه من ثرثرة عجوز وحيد مخلص لزبائنه ولا يرغب إلّا في مَن يسمعه لبعض الوقت.

يفصل بيتي عن المكتبة عشر دقائق مشيًا، المسافة نفسُها التي تفصل المكتبة عن المقهى. ثلث ساعة كاملة لم أفكّر قبل الآن في كيفية استثمارها، لكنّ الإدراك المتأخّر خيرٌ من عدمه. أقف أمام المكتبة، التي سنحتفل قريبًا بعيدها الذهبي، لافتاتُها فوق رأسي...

«سافو».

يجاورها...

«النعل الذهبي للأحذية».

ثم...

«كشري اللذّة».

ليس هناك من تنافر كما يبدو، على العكس، لقد تمّ ترتيب الأمر بدقّة متناهية، عندما تبدأ الشمس في المغيب تخرج سافو لترتدي نعلها الذهبي، لا تمنعها قامتها القصيرة ولا ملامحها المائلة إلى القبح، من التبختر ولعًا بأنوثتها، فرحة بمشوارها اليومي إلى حيث اللذّة مع تلميذاتها. ينتشي سكّان شارع خلوصي سعادة بينما تنشد على إيقاع نغمات ديمتري...

«انظر هو ذا شعري منثور على رقبتي بغير عناية/ لا حجر برّاق يُزيّن يدي ولا خاتم/ ردائي اليوم فقير شعري عاطل عن الذهب/ وهدايا بلاد العرب لا تعطّر خصلاتي/ لمن أزيّن نفسي.. مَن الذي أرجو رضاه؟/ بعيد أنت عني.. يا مَن له وحده كنت أصنع كلَّ هذا».

ليس هذا شارع شبرا الذي شقَّه محمّد عليّ، نحن الآن في جزيرة ليسبوس موطن الحُبِّ والجمال. بيوت متقاربة الارتفاعات والطرز المعمارية تتناغم مع سكّانها الراضين بحياة مستمرّة ومنتظمة لم تتبدّل ملامحها بعد، لا يفسد ذلك سوى واحد من المباني الحديثة، شمخ فوق ما يجاوره. عمارة فرعون، هكذا أطلق عليها جيرانها، طريقتهم في الانتقام من تعالي صاحبها الثريِّ المُقيم مع عائلته في الأدوار الأربعة الأولى، وسكّانها، كهنته الذين يملك بعضهم محلّات شهيرة في شبرا، وبعضهم الآخر قادمون من الخليج، تجمعهم الثروة والتفاخر بأنّهم من سكّان العمارة الأعلى والأفخم في شبرا. أضعها الهدف الأوّل لتنفيذ خطّة تمردي. بعد أعوام سيأتي شابٌّ مثلي يبحث عن دوافع تحوّلي من رجل سلطة إلى لصٍّ لا يبالي. أجمع معلومات لا فائدة منها على الأرجح. ألديَّ عزمُ السير في طريق مصطفى إسماعيل؟

تخرج الفتاة من المكتبة، تندهش لرؤيتي. ياه.. كم أحبُّ تلك الانطباعات الواضحة. سيدور في ذهنها أنّي أنتظرها. اطمئني يا صاحبة الشعر الغزير،

بيني وبين سافو عهدٌ بألّا أعتدي على ما تملكه، لكن على الأقلّ تسمحي لي برؤية هذا الوجه الطفولي المندهش.

تابعتها تسير بخطوات سريعة جادّة، أشبه بصبيٍّ يتصنع الجِدِّية، تملك طولًا لا يليق بالفتيات، لا تتأوّد في مشيتها مثلهنَّ ولو رغبت لتمرّد عليها ذلك الجسدُ الصارم، لهذا تركت شعرَها غزيرًا، ورعت الورود على فستانها علمًا تلوح به على نعومة مَخفيّة. الهواء القليل يلصق القماش بجسدها لتتّضح معالم أردافٍ صغيرة مكوّرة. كلّ قطعة من هذا الجسد تشير إلى أنّه لذَكَرٍ وتلبّسته بشكلٍ ما روح أنثى. لن أحيط بكيفية حدوث ذلك إلّا بعد زيارة بلدتها ومعاينة المكان الذي عاشت فيه طفولتها.

في نهاية شارع خلوصي وقفت تتلفّت إلى اليمين واليسار حائرة. سارعتُ بالعبور إلى الجهة المقابلة حريصًا ألّا تراني للمرّة الثالثة، اتجهتُ يمينًا في شارع «الترعة البولاقية» قاصدًا المقهى، أجاهد ألا ألتفتَ إلى الخلف لأتأكّد من هاجس أنّنا تبادلنا الأدوار، وأنّها من يتأمّل تفاصيل جسدي الآن. كيف تبدو مؤخرتي أمامها؟ سؤال زاد ثقلها أسفل ظهري. توقّفت مرتبكًا، متظاهرًا بإشعال سيجارة أحاول بطرف عيني تحديد مكانها، لكنّها لم تظهر من تلك الزاوية، أتشجّع وأتلفّت بحثًا عنها لكنّها اختفت تمامًا. أكمل سيري للمقهى مستمتعًا بأحلام يقظة تصوّرني ملكًا لا يهتمّ برعيّته قدر اهتمامه بجمع النساء، ستكون الأحدث في مجموعة تضمّ منال حبيبة لطفي، وهدى التي فرضتها لعنةٌ ما حبيبة لي. أقارن بشكل علمي يخلو من الشهوة بين تفاصيل الأجساد الثلاثة.

فشلت المَهمّة التي نزلت من بيتي خصيصًا لأدائها، لم أسجّل إلّا القليل من المعلومات، مَنْ حارس العمارة؟ متى يغيب عنها؟ كيف الطريق للصعود إليها دون إثارة الشكوك؟ والأهم. أيّ شقّة الخالية من سكّانها حاليًا؟

سيكون عليَّ الانتظار أعوامًا قبل أن أعي ما تعنيه تجربة مصطفى. في

عمري اليافع ذاك استمعت إليها مبهورًا على اعتبار أنَّها قصّة مغامرات، وإحاطتي بتفاصيلها من بطلها الأوّل أوهمني أنّ لي دورًا في أحداثها، السادس الذي احتاجته عصابته، العقل الموازي لعقله، الذي يجد التوازن لتجنب خاتمة ساذجة لا تليق بمسار الأحداث. تلبّستني شخصيّته.. أفحص الأماكن، أدقّق في الحراسات، أتقرّب من البوّابين وأصحاب المحلّات موثقًا الصلة معهم، أخطّط لسرقة هدف ما، كيفية الدخول والخروج، والخطّة البديلة. مستمتعًا بالتنقّل بين دورين متناقضين، اعتبرتها مباراة شطرنج، إنّما هذه المرّة على الرقعة الأساسية. لكنّي لم أكن أنانيًّا، حرصت على إشراك أصدقائي في بعض تفاصيلها، مشدّدًا على أنّ ذيوع التفاصيل خارج إطار جلستنا قد يعرِّضنا لمتاعب لا يمكننا تفاديها.

يُسقِط المهزوم مَلكَه على الرقعة فتتعلّق عيوننا به ثوانٍ مُشفقين، نراها ممالك لها جنودُها وحكّامُها ووزراؤها. لا يحقُّ لأحد الحديث وقت المباراة، تعليقات مختصرة وموجزة عن الخارج إن كان لديه ما يستحقّ. ما إن يسقط الملك حتّى تعلو الهمهمات.. تحليل للمباراة والأسباب التي أدّت للنصر والهزيمة، وإعادة النقلات المؤثّرة لتفادي الوقوع في الأخطاء، وعلى هامش ذلك دراسة الافتتاحيات والكتب الصادرة حديثًا. نجومنا وأبطالنا لاعبو الشطرنج الكبار، أذكياء العالم المستبعدون من حقّهم الطبيعي في إدارة الرقعة الأساسية.

يبعد الأستاذ فخري رقعة الشطرنج الرخيصة الخاصّة بالمقهى إلى منضدة خلفه، تسقط بعض قطعها على الأرض فيسارع لطفي للمساعدة. الوزير، الذي نهشت السنوات رأسَه، استقرّ بجانب قدمي، أجاهد لإبعاد رغبة قوية في دهسه مع أصابع لطفي التي تهمُّ بالتقاطه.. خلال فترة قصيرة سأكون في حاجة لزيارة طبيب نفسي لبحث سرِّ تلك الرغبات اللا معقولة.

يضع فخري حقيبته «السامسونايت» على ساقيه، تضيق عيناه ويتقارب حاجباه الكثيفان. هذه واحدة من صور الشيطان.. عينان جاحظتان

مخيفتان، حاجبان ثقيلان يكادان يلتصقان، وجه مزموم على غضب خفي. لكنَّه شيطان سلبي، متكاسل عن أداء واجباته، ممتنع عن الوسوسة.

يمرّر أصابعه على خانات الأرقام المجاورة للقفلين، أبصارنا تتعلّق به قلقة، نكتم أنفاسنا في انتظار صوت التكّة المألوف معلنًا أنّ الكنز أصبح في المتناول. نسي يومًا الأرقام السرية وفشلت جهود استعادتها، والحلّ المتشفّي بكسر الحقيبة الذي قدّمه أنور الورقي زاده توترًا وعصبية، بدا أنّه الطريق للوصول إلى قطع الشطرنج العاجية الملكية. نقترح عشراتِ الأرقام بناء على التواريخ المميّزة في حياته، يوم ميلاده، يوم التقى الملك، تاريخ زيارته لروسيا، بلا فائدة. يطلب أن يبقى وحيدًا بعض الوقت، يمنحه صاحب المقهى الباشمهندس أشرف السويفي ركنه الأثير ليختلي بنفسه وحقيبته، تضحية عظيمة لكن الهدف أعظم، الشطرنج الملكي رمز للمكان وزبائنه، وفخري لن يلجأ إلى كسر الحقيبة ففي ذلك إهانة لذكائه وذاكرته، ستظلّ قطع الشطرنج حبيسة وفي ذلك علامة شؤم. استلزم الأمر نصف ساعة من الصمت المطلق حتّى انتهت المحنة.

«تلعب»؟

أرفض متعلِّلًا بصداع. يعرض الأستاذ فخري علي لطفي، ينتقل إلى الكرسيِّ المواجه له، يمنحه فخري اللون الأبيض مباشرة، يداري بدخان سيجارته ملامح ضيقٍ من اعتباره منافسًا أضعف. لا يخفي أنور الورقي الجالس بجوار لطفي ملامح هازئة. يميل بجسده ليقترب منِّي...

«ثم؟».

المصري الوحيد الذي يحافظ على نطق الحروف كما ينبغي لها، عادة اكتسبها من الحياة وسط العرب...

«المصريين شعب كسول لدرجة إنّهم بيتكاسلوا عن نطق الحروف بطريقة سليمة».

يستحثّني لأحكي آخر ما وصلنا إليه في القضية. أصبحت لعبته المفضلة، يرغب في ترك شبرا إلى نوع أرقى من العيش، لكنّه يدرك أنّ ما يسعى إليه ليس مجرّد انتقال مكاني، بل خطوة تحتاج إلى أسلوب مختلف يُعينه على التكيّف مع بيئته الجديدة، ووجد في حكاية مصطفى إسماعيل ما يبحث عنه. ومن جانبي لم أكن في حاجة إلى السؤال، لم أكن قادرًا على التخلّص من سطوته، أنقل لهم ما أراه، راغبًا في زيادة عدد المفتونين به، أنفّذ رغبته الخفية في الحفاظ على قصّته من قدرة السلطة غير المحدودة على مسح ما تريد من الذاكرة.

نبيل العدل لم يخفِ دهشته، في أوراقه لا يوجد ما يبرّر ذلك التحوّل العنيف، لماذا يضحّي أستاذ جامعي بما لديه وينتقل إلى الجريمة، والأهم: كيف ومتى اكتسب تلك الخبرات التي حوّلته إلى أسطورة؟ المال ليس السبب الرئيسي، لديه منه ما يكفيه، ومؤهّلاته وقدراته تسمح له بجني المزيد عبر طُرق لم تكن لتودي به إلى هذا المصير، وفي كلّ حال لا يبدو متيمًا بالمال، ما الذي جعله يغامر بكلّ ما حقّقه؟

يرمقني الأستاذ فخري الجالس بجواري بطرف عينه مؤنِّبًا. لا يحتاج إلى التركيز في مباراة مع لطفي، لكنّه لا يريد سماع المزيد. تنتابني رغبة متزايدة في إغاظته، أضع ساقًا فوق الأخرى، تملؤني كلمات مصطفى إحساسًا بالعظمة...

«الأسباب متنوّعة إلى الحدّ الذي تتلاشى معه لتصبح الجريمة فعلًا يتمّ لأجل ذاته.. ببساطة عندما تفشل الطرق «المأمونة» في إرشادك إلى ذاتك فلن يكون أمامك إلّا تجريب مجموعة الأفعال المحرّمة بوصاية السابقين، وما يحمله الطريق من مخاطر أفضل من العيش والموت دون اكتشاف من أنت. ما الذي يؤدِّيه الناس سوى أنّهم يصحون وينامون ويأكلون ويتضاجعون؟».

يقاطعه نبيل العدل...

«وقاموس الأفعال يتحسّن عندما تضيف إليه.. يسرقون ويبتزّون؟».

«أنت تحكم على الجريمة عبر إطار تفرضه عليك وظيفتك وهذا لا يلزمني، أنا تحرّرت من المنصب، ومن التبعية. إذا استطعت أن تنال حرّيّتك يمكننا أن نتجادل حول الأفعال التي دخلت دائرة التحريم وحقّنا في تعاطيها».

«فلسفة مش جريمة».

يعلّق لطفي وعيناه على الأستاذ فخري. محاولة مبتذَلة للتقرُّب منه، لا يرضيه موقعه. ستسقطه شهوته. جئت به لمساعدته على استرداد ذاكرته الضائعة في الشعر، معلوماته عن الشطرنج كانت تقف عند الحدود العامّة. «عسكري» من ثمانية متماثلين، أوّل من يتمّ التضحية بهم، نقلة تلو الأخرى انكشفت له الأسرار واستعاد الضروري من ذاكرته المفقودة، ساعدته في الوصول إلى نهاية الرقعة ليترقّى إلى طابية محترمة تحرس الحدَّ البحري لمملكة فخري، ما الذي يريده بعد؟

ساعات أقضيها هنا، بجوار الأستاذ فخري عمدة المكان وأحد المصنفين على مستوى الجمهورية في لعبة الشطرنج، ولولا أنَّ غبيًّا في الستينيات منعه من السفر بحجّة عدم التعامل مع الدول المعادية لكان له أن يصبح أحد مشاهير اللعبة العالميين. أنا والأستاذ فخري وجهان لعملة، أب وابنه، هكذا تقول بقيّة المجموعة مازحة. شبه مصدره الطباع، تحديدًا.. السلوك الصارم الذي يسعى إلى هجران العالم، فردان من سلالة مندثرة لا يهمها ما يحدث حولها، تراقب ولا تتورّط. لكنّي اعترف أنَّ الأستاذ فخري حالة متطرّفة إلى حدٍّ بعيد، أنا لم أقاوم طويلًا وعدت إلى الواقع نادمًا على ما أضعت، هو قضى عمره هكذا دون أن ينتابه ولو للحظة شعور بالخسارة، على العكس بدا مشفقًا عندما أبلغته بقراري، ومع أنّي حرصت على العلاقة معه ومزاولة

الطقس القديم، كلّما اتّسع الوقت، إلّا أنَّ ما تحطّم أكبر من محاولة إعادته، أصبحت مثل «تاليا» التي غادرت قريتها واستقرَّت في المدينة: لا يمكنها كبح الاستعلاء ولا أهلها بإمكانهم مجاراة ما يجهلون.

المشاهد ثابتة، لا نولي العالم إلّا نظرات خاطفة. يمنع الزجاج معظم الصوت فيصلنا ما يحدث مصفى من ابتذاله، لو أدركت الناس كم تكون جميلة عندما تصمت لتخلصت في طقس جماعي من ذلك العضو الزائد. يجلس الأستاذ فخري هنا منذ عشرين عامًا، كلّ يوم، ما عدا الجمعة.. يقضيه في ساعات من التمشية، ثم وجبة مخصوصة، والنوم. يخلصه السير ممَّا علق بصدره من دخان السجائر، وأحلامه من أيِّ جملة أو تصرف زائد اضطرَّ للمرور به. برنامج لا يقبل المشاركة فيه، وإذا حدث، وقد حدث مرّات، أن التقى أحدًا من زبائن المقهى فإنَّه يعبره بلا أدنى تصنُّع، وقد تعود معارفه على ذلك، أن يحافظ رجل على وحدته هذه السنوات فلا بدَّ أنَّ أمرًا ما أصاب عقله. الوحدة تخلفك مجنونًا أو عبقريًّا، وهو يتأرجح بين الاثنين، لكنَّ الغالب، وبعد فناء القسط الأكبر من عمره، أنَّ الجنون أقرب، ربَّما طقس الجمعة فقط ما يمنعه من الانهيار.

أنا حصان طروادة وقد دبّت فيه الروح. لم أملك وقتها من الوعي ما يجعلني أُلمّ بأنّي زرعت الفيروس عندما بدأت رواية القصص التي انفتحت أمامي من مغارة لم أتوقّعها. خائن ساذج، سلم المفاتيح ولم يفقه ما أقدم عليه إلّا بعد نهاية مهمته. أحكي متفاخرًا. وما نحن إلّا مجموعة من الحكايات نرويها أو نسمعها! ومع ضعفي أمام تلك الغواية يتّسع الشرخ في الزجاج، والشارع بتفاصيله يقتحم مساحة إضافية.

متى انتبهت إلى خيانتي أوّل مرّة؟ من بائع السمبط! آه.. بالضبط. تلك الالتفاتة والنظرة التي رمقني بها. في حدود الخامسة مساءً يفتح الباب الذي ربعه خشب وبقيته زجاج بهدوء مطلق مثيرًا استياء المتواجدين من الضجيج الذي تسلّل معه، يطالبونه بالإسراع، بعضهم ينتظر تلك اللحظة

ليختبر قدرته على إطلاق دعابات لم نسمعها عن بطء الرجل. الجلباب والعمامة لا يتغيّران.. ربَّما لديه أكثر من زيّ بهذا اللون الكالح نفسه، ومن القماش الخشن، وعلى طول واحد يسمح برؤية قصبة ساقه بالغة النحافة والتي تنتهي بقدم منبسطة وضخمة يلفّها صندل غريب يبدو وكأنّه مجدول يدويًّا من شرائط ضاع لونها فلا يمكن تخمين أصلها. شرائط مماثلة تربط سلة السميط، يعلقها على صدره فيما السلّة نفسها تتأرجح على ظهره. يرفع الشرائط بيديه فتعلو السلّة فوقه، يدور بخفّة راقص لتصبح السلة في مواجهته، يحتضنها وينزل بها إلى الأرض ويبدأ في مَهمَّته، يدور حول المناضد يوزّع بضاعته على الزبائن من دون أن يسأل، لم يمرّ يوم إلَّا وراقبت المشهدَ كلَّه، منذ أن يقف أمام الباب لثوانٍ يتطلّع إلى الداخل قبل الاقتحام وكأنَّه يحصي أعداءه قبل الهجوم. آسر ذلك البطء الذي يسير به، ليس عجزًا ولا ضعفًا، ليس العمر ما يجبره على ذلك الإيقاع، يتمتّع بالعافية، تلمحها في جسده المستقيم الصُّلب ويديه المعروقتين، إنّما كمَن يسير في مقبرة محاذرًا إيقاظ أمواتها، إيقاع مخيف يعيد إقلاقي بالجانب الذي طالما أقصيته.. الموت وما بعده، مَن خلق الكون، ولماذا؟ أسئلة الروحانيات التي أتظاهر بأنّي لستُ جزءًا من منظومتها، ليس محكومًا عليَّ بما حكم به على بقيّة الناس، فلا دخل لي إذن بشؤونهم.

عندما ينتهي ويأخذ كل زبون حصته من السميط، يجلس في ركن وحده يشرب الشاي الذي أتاه به عمّ سيّد. نصف ساعة ثم ينطلق. احترف ذلك منذ أبد، والحركة تمضي هنا وفق نظام وروتين لن يجرؤ أحد على التفكير في تعديله، كلّ واحد يتحرَّك في عالمه الخاصّ قانعًا بالتصنيف المختار له.

ينتبه الباشمهندس أشرف السويفي إلى بائع السميط الفترة التي يكتمل فيها انغلاق الباب ثم يعود إلى جرائده، كومة تضمُّ كلَّ ما صدر. التكليف الذي باشر في تأديته بصدقٍ وإخلاص بعد دراسته في كلية الهندسة. وصلته الرسالة مبكرًا غير أنَّ أباه كرَّر على مسامعه الجملة المعهودة...

«خلّص دراستك وبعدين انت حرّ».

يتعالى صوت عمّ سيّد خارقًا الهدوء، يحدث السويفي عن اكتشافه نقصان السكر من المخزن بنسبٍ مريبة، ملمحًا إلى فتحي غريمه الواقف على النصبة لإعداد الطلبات. لا يحبُّ السويفي التفاصيل التي لا بدَّ أن يشركه فيها سيّد: نفاد بعض السلع، عدد الأكواب التي خسروها. لا يملك قدرة أبيه على التعامل مع شؤون العمل دون تورُّط. يردّ عليه منهيًا الحوار...

«أرجوك يا سيّد ابعدني عن التفاهات».

وبعد أن ينصرف عنه سيّد منتشيًا بإثبات جديد أنَّ القرار له في المقهى، يزفر الباشمهندس ساخطًا...

«مش كفاية السنين اللي ضاعت في تفاهات».

معظم الأمور الحياتية...

«تفاهات».

مرارة يتعاطف معها الزبائن، يحاولون التهوين عليه بأنَّهم فقدوا أعوامًا بدون إرادتهم.

«ربَّك يعوّض، في غيرك خسر أكتر».

يتأسى أنور الورقي على حاله وعلى الزمن الذي قضاه في خلافات زوجية منعته أحيانًا من المجيء إلى المقهى حتّى تحرّر بالانفصال.

وما الذي يفعلونه الآن يجعلهم نادمين على ضياع الزمن؟ يشاغلني السؤال، ويفطن له بائع السميط...

«ليس مكانك».

ليالٍ قضيتها أدبّر للتخلّص منه قبل أن يكشف أمري، أقتله في أحد شوارع شبرا الهادئة ليلًا، وأرسم بالسميط حول جسده واحدة من جمل

مصطفى إسماعيل المؤثّرة. هم يتعاملون بجدِّية فيما يخصّ الاختلاط مع العالم الخارجي، إيمان لم يسبقه اتفاق، ولا يوجب التبليغ، يتحرّكون وكأنّ تلك الفطرة.

الباشمهندس أشرف يعود متأفّفًا من كلية الهندسة في شارع شبرا، ليجد والده يستعدّ لتركِ المكتب لأخذ قيلولته. نظام لم يتغيّر إلّا في أحوال استثنائية، حالات قاهرة لا يمكن معها إلّا الاستسلام لإيقاع الخارج، إحداها أن يكون الابن قد وقع على صيد جديد. لا بدّ أيضًا من نقطة اتصال مع الخارج، اتصالٍ يعزز الإيمان بضرورة هجرانه، ولم يكن ليضيع ما منح له هباءً.

لا يعترض الأب على غياب ابنه، ما تبقّى له في هذا العالم أثمن من إضاعته في الجدل.. في ركنه الخاصّ، الذي ورثه ابنه عنه فيما بعد، يستثمر كلّ دقيقة. ليس بعيدًا عن الزجاج، لكنّ ضوء النهار لا يصله، ولا العابرون يمكنهم رؤيته. بقعة معجزة، كأنّ كائنًا عملاقًا يحرسها بظلّه. مزيد من التدقيق بالطبع كافٍ لحلِّ المسألة، ذلك الركن بداية ممرّ طويل مظلم في آخره غرفة فسيحة لتخزين مستلزمات المقهى، والظلّ يرمي بثقله على ركن الأب متحدِّيًا الضوء مهما بلغت شدّته. مساحة كتلك لا بدّ من استغلالها فيما أعدّت له، يجلس بالساعات صامتًا يراقب، ذاكرته تلتقط ملايين الصور لتقديم تقريره في الأعلى عمّا جرى. مؤسّس رابطة «المراقبون»، ومن مثله لا بدّ تُحفظ ذكراه، عندما رحل عن العالم خلده ابنه في جزء من ركنه...

«متحف السويفي لتحدي الموت والنسيان».

«دولاب» خشبي يضمّ مقتنياتِه، بعضَ الكتب والمجلّات القديمة، نظّارتَه الطبية، طربوشًا مفقودًا زرُّه، وراديو أثريًّا، وفي القلب تمثالٌ صغير صنعه فنان مغمور من روّاد المقهى، أبرز ما فيه نظرة موناليزية، أفاض الفنان في شرح مدلولها. العلامة المميزة في عمل رديء يُثير الضيق في

نفوس الجالسين لأنّه يراقب وجودهم، بل وبدأ نشاطه يمتدّ إلى ما بعد انصرافهم...

«بيطاردني في منامي».

وقبل أن ينقلب التكريم إلى حفلة سخرية لا تنقطع من «الأخ الأكبر»، قام السويفي بتغيير زاوية وضع الدولاب ليصبح في مواجهة الشارع مبرِّرًا بأنّ والده الراحل كان نظره دومًا ممدودًا إلى الخارج وسيواصل ما أحب. استحسن الجميع الفكرة متحاشين عند مرورهم الاصطدام بنظرته، مستمتعين بانزعاج المارة منها.

السويفي الصغير ورث الإيمان عن أبيه، بمهمة مختلفة لم يتوانَ عن أدائها متعاليًا عن الانتقادات حتَّى أثبت أنّه لا يطلب الدنيا، ليس مثل محترفي قراءة الجرائد والمجلّات الذين يتحوّلون لآلة تثرثر بالمعلومات والتحليلات. السويفي لا يتكلّم فيما قرأ، لا تصدر عنه انفعالات ما، الصفحة السياسية مثلها مثل صفحة التسالي مثل الوفيات، الهدوء نفسه والوضع نفسه لا يتغيّران، وما إن ينتهي من جريدة حتّى يسقطها تحت قدميه ليبدأ ما بعدها فورًا بلا وقفات، ماراثون مرهق. أصل بحلول منتصف النهار لأجد على الأرض كومة محترمة. إذا داهمه الوقت يسرع من إيقاعه وفقًا لساعة بيولوجية تنبّهه إلى ميعاده الذي أزف. عندما لا تتبقى جريدة أو مجلّة، وبعدما يعلق على الحائط قصاصة قطعها، يمسح «سيّد» بقطعة قماش مبلولة أثر وسخ الحبر والكلمات، ويضع «الطاولة» وجنزبيل بالقرفة للباشمهندس، سرّ طاقته الدائمة ومعه لا بدّ أن تنفتح سيرة النساء، الموضوع الذي يشاركنا فيه بالحديث، ولمن له خبرته حقّ الإرشاد. يجلس صديقه أمامه صامتًا لا يتدخّل في الحوار، لا يُحبي أحدًا منّا، يفتح «الطاولة» ويرتّب «الفيش» يأخذ اللون الأبيض لأنّ الباشمهندس يفضّل الأسود. هما فقط المستثنيان من قانون المقهى الذي يمنع أي ألعاب إلا الشطرنج، يخوضانها

في خجل من أخذ ما ليس له، عندما يعلو حماسهما يعتذر الباشمهندس إلى المنهمكين في التفكير...

«لا مؤخذاة يا بهوات.. سامحونا أصله بيحب الرزع».

يلتفت إلينا صديقه الذي صادف بأعجوبة أنّنا لم نسمّه، يشير إلى أشرف بانطباع قصد به أن يكون تعاليًا لكنّه يرتدّ عليه فيبدو أهبل...

«مراهق.. نعمل إيه!».

ضجّتهما غير مؤذية على أيّ حال فطاقتهما على اللعب لا تزيد عن «عشرة» ينصرفان بعدها.

كان بودي دومًا أن أترك «كارت» لمن أزورهم، شيء مثل ما كان يفعله أرسين لوبين، لكن لكلّ بيت جملة مختلفة...

«لك، لذوقك الرفيع».

«يومًا ما سوف تشكرني على ما فعلت».

مصطفى إسماعيل
كتاب الأمان ـ النسخة الأصلية

(5)

تباطأتُ راغبًا في رؤية العملية تكتمل لكنَّ الخوف من الفشل حفّزني لرمي جسدي عبر الفتحة التي تضيق. لم أحسب إن كانت كافية أم لا، هل سأعلَق فيها لتطحنني أو تقسمني نصفين، أم تجرّب قسوتها وتقطع قدمي لأحيا جارًا ما تبقّى منّي على الطرقات.

رعاني الله برحمته وعبرت كاملًا، أسقط في الفراغ، مستقرًّا في بركة تملؤها نباتات خفّفت حدّة السقوط، انفجر الماء وتطايرت شظاياه. لم أهتمّ بحالي، حواسي منشغلة في متابعة الأوراق العملاقة تنغلق. تابعتها مرّات وأنا على رمال الصحراء، تلك المرّة الأولى والوحيدة التي يتسنى لي فيها أن أكون جزءًا من تكوينها. تشحّ المساحة المتاحة للضوء رويدًا حتّى أغرق في أسود لا نهائي. ممدّدًا على ظهري في قبر مائي. ليس معي مصباح.. الدخول رغبة وليدة اللحظة، التجانس الخارجي كان يملؤني، أنشغل به فتفوت الفرصة.. الشمس تغيب ومع آخر ضوءٍ لها يبدأ صوت الآلات في الارتفاع لتشرق الصفائح الذهبية. أفتّش هنا عن نقطة مختلفة بعيدًا عن مشروع جنوني وأعود للتعايش مع الروتين البشري.

قبل الندم جاءتني البشارة بأنّي على الدرب.. ضوء أبيض ناصع يقاوم الظلمة الحالكة، مئات الكائنات الطائرة الصغيرة تتجوّل بسرعة لم تمكّني من تحديد ماهيّتها على الفور لكنّها أبهجت قلبي، حتّى لو كانت مفترسة ومزّقت لحمي عن عظامي سأعتبر وخزاتها الجائزة

التي أستحقّ. أوراق اللوتس التي سقطت فوقها تسعى للتحرُّر، تقاوم ثقلي، بدا وكأنّها تهدهدني، شعور مريح غير أنّي قمت مفزوعًا من خاطرة أنّها تسعى إلى الانغلاق مثل نموذجها الأكبر.

يغمرني الماء، أتطهّر استحقاقًا لهذا الشرف. أسير على الممرّ الضيّق المصنوع لفرد واحد، المساحة بأكملها تمّ توفيرها لتتمتّع النباتات بمملكتها. أشكال وألوان لم يبلغني أنّها خُلقت.. زرقاء وحمراء وبيضاء وذهبية، أوراق مستطيلة وأخرى دائرية ومفلطحة، بعضها داخلها قلوب، منها الخجل المنطوي، ومن يتطلّع بوقاحة الالتهام.

لم أخمّن أنّ أمجد الدوقلي مالك «بيت اللوتس» على هذا الحدِّ من الجنون. مهرجان تمَّ تنسيقُه بورع بحيث لا يطغى نوعٌ على آخر، ومع اتساع المساحة يبدو أنّه من المستحيل استيعاب المنظر. تضفي اليرقات المضيئة سحرًا وغموضًا، تلتفّ حولي لاكتشاف الكائن المقتحم صفو وحدتها، تحوّلني إلى مقدّس، لا وجود للأرضي. سنقضي الليل وحدنا يا مضيئات.

المخدع نفسه صغير. لم يكن راغبًا سوى في اللوتس لكنّه لم يعثر على حجم يحتويه كرحم، أضطرّ للبناء مستلهمًا فكرة تمثال بوذا فوضع البيّت، وهو ليس إلّا حجرةً وحمّامًا، على قاعدة مبنيّة ومتأرجحة من أوراق اللوتس. المحصّلة أنّ هذه زهرة لوتس عملاقة ومخيفة، محكمة الغلق لا وسيلة لجعلها تنفتح إلّا شروق الشمس.

عزيزي السيّد أمجد الدوقلي

لن أُطيل عليك فلا شيء يربطنا لأكبّدك عناء مشاركتي أفكاري، فقط أردتُ الكتابة إليك لأنّ منزلك الأعجوبة هذا، كان الهدف المناسب الذي اخترته ليكون نقطة انطلاقي في حياة جديدة محورُها الحركة وليس السكون، أختبر كلّ ما عرفت وآمنت به. لستُ في حاجة بالطبع للتأكيد على أنّي رجلٌ محترم ولستُ لصًا يسرق، لم أصل

إلى هذه النقطة بعد. والمؤكّد أنّك تفهم أنّ قربَ الرجل أو بُعده عن صفة الاحترام ليس له علاقة بالمهنة التي يمارسها. بالتأكيد ستخمّن ما أنا عليه من اللغة التي أكتب لك بها الخطاب، غير أنّي لستُ ملزمًا بالشرح والتوضيح، لسنا أصدقاء على أيّ حال، برغم أنّي أجلس الآن على مكتبك وأستخدم أوراقك وقلمك.

اسمح لي بإبداء إعجابي بعبقريّتك في تصميم هذا المنزل بحديقته. هذه العبقرية ألحت تدعوني لرؤيتها من قريب.

لن تجد في المنزل أيَّ شيء مفقود، الخزنة لم تُمسّ، لم أبحث في أيّ مخابئ محتملة عن مالٍ أو مجوهرات، لم آتِ هنا لأجل ذلك، لا أعرف إن كان ذلك سيخفّف من تأثير أن بيتك تمّ اقتحامه أم لا، لكن في كلّ الأحوال يهمّني أن أقول لك التالي. منزلك ليس أكثر من محطّة بالنسبة لي، باب للانتقال من عالم إلى آخر. كلّ ما سمحت لنفسي بأخذه صورة لك مع تلك الشابة التي أعرف أنّها ليست زوجتك، اعتبرها عربونًا لصداقة قد تحدث يومًا، وكي يطمئن قلبك تأكّد أنّ الصورة ستحظى بأهمّ مساحة على حائط بيتي المتواضع وكأنّها صورة لأخي.

تقبّل شكري وتقديري على تفهُّمك الذي أجد أنّه ضروري.

المُخلِص

مصطفى إسماعيل

رفع أنور الورقي عينه عن الورق. ظلّ محدّقًا بي وأنا لا أحبُّ تلك الطريقة، لا أعتقد في ما يسمّونه لغة العيون، اعتبرت الحديث عنها دومًا بلاغةً منحرفة، مع ذلك فقد صمدت أمامه فإن كان اختبارًا، فلن أهرب، حاولت تكثيف مشاعري لتنتقل إلى عيني...

«أنت غبي».

«وأنت مدَّعٍ».

قطع الإشارة ليؤكّد، وكما لو كان ناشرًا حقيقيًّا لا مجرّد مطبعجي، أن بداية كهذه لم تعجبه...

«غير موفّقة، الخيالُ لا ينسجم مع القصّة الواقعية».

غضبي ممّا اعتبرته إهانة مجروح بشكّ أنّه ربّما يكون مُحقًّا، انسقت مفنونًا وراء احتمالية وجود هذا السحر. مع هذا لا بدّ من الدفاع عنه. القاعدة الأولى من تعاليم مصطفى...

> أنت على حقّ دومًا. أنت مقدَّس. عليك الإيمان بهذا قبل التحرُّك، الخطوة المبدئية لتبصر معجزتك، بداخلنا مع ما يتّصف بأنّه إنساني زائل ما هو أكثر رفعة، وأن تضع يدك على هذا يعني انتقالك درجة أعلى فوق من حولك.

بتأثير الفكرة خرج صوتي مُتحمّسًا يُخرس صوت المنطق الشكّاك...

«لم أصدِّق في وجود بيت اللوتس، والعدل ضاعفَ شكّي، لا يعتقد في الغرائبية، عزاها إلى أنَّ مصطفى يفقد صلتَه بالواقع، يخلط بين الأحلام والحقائق. يقول شامتًا إنّ عقله لم يتحمّل شذوذ أفكاره، يطلب منّي التدقيق فيما يقول وإيجاد الفاصل الذي فقده. لهذا لم يهتمّ بالبحث عن أمجد الدوقلي، لكنّي رهنت صدق حكاية مصطفى وقيمتها كلّها على الدوقلي ومخدعه في قلب الصحراء.. المفتاح لديه، لهذا بدأت بحثي الخاصّ عنه».

و«بعدين....؟».

مطعم صيني في مصر الجديدة، ليس فيه إلّا نحن. يتفاخر أنور الورقي بأنّ له في كلّ شارع بمصر الجديدة محلًّا يقصده. كان لوالده فرصة الارتقاء بنشاطه وحياة أولاده، عُرضت عليه مطبعة في السبعينيات بسعر زهيد، لكنّه أبى ترك شبرا...

«شبرا البحر وأنا سمكة.. مستحيل أخرج منها».

لا يملّ من الحسرة على ضياع الفرصة...

«كان ممكن أكون حاجة تانية.. الله يسامحه بقى. سمكة! شوف التشبيه والنبي.. جيل عبد الناصر جننه».

«من الناحية الجغرافية صعب تشبيه شبرا بالبحر، ربَّما تلاحظ أنَّ شوارعها عبارة عن امتدادات طولية، يعني الأقرب إلى الدقّة تشبيهها بالنهر..

يبتلع ما تبقّى من كأس النبيذ الأحمر، ويتجاوز ما قلت كأنّه لم يسمعه، يطلب من الفتى المنحني أمامه زجاجةً أخرى، الأرز غارق في لونه الأبيض الناصع...

«بيعملوه على البخار.. صحيّ جدًّا».

تبدو كلمة «صحيّ» مبتذلة للغاية بالنظر لطريقته في الالتهام، وجوده يتعارض مع أصغر تفصيلة في المطعم.. العاملون المتلبّسون الروح المهذّبة، التنانين الحمراء المنقوشة بعناية، الألوان الصفراء والحمراء القوية بلا إزعاج، الموسيقى الخفيفة التي يناسبها زوَّارٌ هامسون. ينتابني فجأة القرفُ ممّا يمثّله، من طموحاته وأحلامه في الصعود الطبقي، لم أتعلّم إلى الآن قراءةَ الرسالة قبل فضِّ محتواها كما نصحني الأستاذ فخري يومًا مبرِّرًا استبعادَه أحدَ روّاد المقهى من جلسته...

«لا تنتظر خيرًا من رجل لا تفارق الابتسامة شفتيه».

دافعٌ غريبٌ لارتكاب القسوة ضدَّ مَن يبدو متحضّرًا في التعامل. لكن وبجانب الورقي تمنيت التحلّي بدوافع كتلك لأحبّ وأكره. أنتظر جرأة الخمر لكنّ النبيذ والعادة السرية سواء.. وهم بالنشوة وبعدها خيبة.

حتّى خروجي إلى الصحراء بصحبة أمجد الدوقلي وسائقه كان الشكُّ يرافقني، هرم سقّارة كان آخرَ ما ميّزت، بعده صحراءُ لا علاماتِ فيها تميّز بقعة عمّا يليها، لكنّ السائق الأسمر الذي ينافس سيّده في العجز يقود العربة

القوية المجهّزة للرحلة، بثقة «الزرقاء». لم يستسلم لمحاولاتي إخراجه عن صمته، وضع شريط كاسيت طلبه منه الدوقلي، سيمفونية لهايدن ثقيلة الوطأة، لا طربَ فيها، قال إنّها واحدة من أجمل ما عزفت أوركسترا «سانتا سيشليا» وإنّني محظوظٌ؛ لأنّ ابنه أرسلها له بالأمس فقط من إنكلترا حيث يقيم. نطقها بالكاف فبدت أرضًا هو أوّل من وطئها. أيقظت الموسيقى الكئيبة مع الامتداد الأصفر الشاسع خوفًا مبهمًا في نفسي، ربّما تورّطت فيما لا قدرة لي على مواجهته، ماذا لو كان شريكًا لمصطفى، وبيت اللوتس مخزن للغنائم، وقبر للفضوليِّين؟

مغمض العينين يهزّ رأسه هزّات خفيفة مع الإيقاع. لا يبدو رجلًا له علاقة بالجريمة، لكنّ وظيفتي علّمتني أنّ أبعد الناس عنها هم الأقرب لها...

«من تستبعده هو بالتحديد مَن تسعى وراءه».

إن قرّر قتلي، فلن يهتدي أحد لمصيري. ومن سيهتمّ، أو يلاحظ؟ ربّما كانت هدى لتسعى لو منحتها بعضَ الحبّ، لكنّ مستوى ذكائها المحدود لن ينفعني، يتوقّف بحثُها عند شلّة المقهى ليقنعوها أنّ لكل منّا رحلةً يتوجّب القيام بها.

أتلهّى عن الخوف بشجن وحدة أعمق ممّا يعيشها فخري الذي أسخر من اختياراته إنّما في تلك اللحظة أصل إلى أنّه على الأقلّ اختارها بإرادته وليس مسيرًا مثلي.

«إنّما..

معظم ما قاله مصطفى صحيح، من بعيد تبدو زهرة لوتس ذهبية ضخمة، تنعكس الشمس على الصفائح، تتوهّج كقطعة من النار. مخدع شهواني، أو رمز لعبادة سرّية. بعد أن فتح لنا السائق الباب الحديدي الخارجي وترك السلسلة الضخمة تسقط مثيرةً ضجيجًا هائلًا في ذلك السكون، عاد إلى السيارة، أمره الدوقلي بالبقاء فيها قائلًا إنّنا لن نتأخّر، أمر بتحجيم فضولي.

كان علينا الانحناءُ لندلفَ من ذلك الباب الصغير الذي لا يمكن تمييزه في البداية. تركني الدوقلي أدخل أوّلًا لآخذ بيده، لا يمكن تخيّل وجود مكان كهذا، والأغرب أنّه في قلب صحراء ميّتة، أخذني المنظر فسرحتُ ولم أنتبه للعكّاز الذي مدّه لي.. أضطرّ للنداء، عجوز مسكين. تجوّلنا دقائق بينما يشرح لي الآلية التي تقوم عليها عملية الري، مواسير تمتدّ في باطن الأرض وصولًا إلى نبع مياه جوفية لتمدَّ النباتات بما تحتاجه في أوقات محدّدة سلفًا. نظام صُمّم ليبقى سنوات دون حاجة لتدخّل أيدٍ بشرية...

«المشكلة الوحيدة أنّها ستتحوّل لغابة».

وبصيغة أقرب إلى الاعتذار، وبينما يقطع أوراقًا من نبات خرج عن حوضه وامتدّ إلى الأرض...

«المشوار بقى مرهق بالنسبة لي».

هل ينغلق البيت على نفسه مع غروب الشمس ويعود للتفتّح في الصباح، هل هناك يرقات مضيئة؟ ضحك طويلًا عندما سألته لكنّه لم يجب لهذا اعتبرت أنّ في الليل تحدث معجزة لم يرها سوى مصطفى.

يصبّ أنور الورقي ما تبقّى من زجاجة النبيذ في كأسينا، يتنقل بالزجاجة بين الكأسين محاولًا مساواة المقدار المتبقّي بيننا، ينشغل زيادة عن الحدّ بنقطة أخيرة تعاند النزول إلى كأسه. لا يرغب في أن يكون لكلامه صيغة الأمر...

نعم، هناك ما يحدث في الواقع ويصعب تصديقه. قبل أيّام رأيت جنيًّا يخرج من جسد فتاة، لا أقصد أنّها تكلّمت بلغة غريبة كما الشائع، أقصد حرفيًّا ما أقول. بعد مفاوضات أجراها معه الشيخ لإقناعه بتحريرها، انتفض جسدها بقوّة، ثم خرج منها ذلك الشكل الغريب، مثلنا تمامًا لكنّه شفّاف بشكل ما. (يضحك) نسخة من صديقك فخري. شبه عجيب، حتّى أنّي فكّرت أنّ الرجل الذي يجلس بيننا في المقهى من الجنّ، مستحيل أن يكون

هذا إنسانًا. أنت لن تصدّقني وهذا حقّك، لكن عليك في المقابل فهم أنّ الناس لم تعد تؤمن بالخيالي ولا تجد فيه قيمة. ألا تقولون أنتم أهل الأدب أنّ الواقع أصبح أكثر غرابة من الخيال؟ اكتف إذن بهذا الواقع. كلّ ما أطلبه منك تعديل تلك المقدّمة كي تتوافق مع ما يتوقّعه الناس من كتاب كهذا، ولك بعد هذا أن تكتب ما تشاء.

اختيار التوقيت الملائم أهمّ خطوة في العملية كلّها، قد تكون الخطّة جيّدة والضحية مناسبة ويأتي التوقيت ليفسدَ كلّ شيء.

وبرغم أنّ مسألة التوقيت تلك ليست ثابتة أبدًا، لكنّ هناك قاعدةً يمكن البناء عليها في هذه المسألة، على الأقل في معظم الأحيان:

خيرُ الساعات: ما بين العاشرة والثانية عشرة نهارًا (ذروة العمل في المصالح الحكومية والخاصّة).

خيرُ الفصول: الشتاء.

خيرُ الأيّام: الجمعة خلال فصل الصيف.

مصطفى إسماعيل
كتاب الأمان ـ النسخة الأصلية

(6)

«تَالْيَا».

بثقة، تتعالى بها على التناقضات بين الاسم والمظهر، قدَّمَت لنا نفسَها.

منذُ دقَّت جرس ديمتري أوقن أنّنا سنلتقي ثانية، ليست مجرَّد صدفة عابرة، ولا نظرة والسلام، لكنَّها أخذت الاتجاه الخاطئ، كان عليها تَتَبُّع خطواتي حتَّى لا تستغرقَ أسابيع في قطع مسافة لا تزيدُ عن الدقائق العشر. لكـنَّ تأخُّرَها في الانضمام إلينا لا يقلِّل من إنجازها، من حقِّها تسجيلُ اسمِها كأوّل امرأةٍ تتمكّن من اقتحام هذا العالم الذكوري، لها التقدّم إلى الجمعيات النسوية ليتفاخرنَ بنموذج يثبت قدرتَهن على الجنون والانعزال. غيرَ أنَّ ما يشكِّك في إنجاز تاليا أنَّه قد لا يكون مجهودًا فرديًا بالكامل. أنبّه لهذا مع بعض الحذر فلست ممّن ينساقون إلى تجريد الناس من أفعالهم بسبب إشاعة لم يتم التأكد من صحتها، وحتى بفرض أنّها عشيقة لأشرف السويفي.. هل يعني هذا أنّنا قبلناها مجاملة له؟ بالتأكيد لا، ماذا سيكون توصيفنا في هذه الحالة؟

«اتفضلي معانا».

اصطاد الأستاذ فخري إحدى اللحظات التي تتابعنا فيها، لم تلحق الهرب بوجهها للشارع.. ملاذها عندما ينتبه لها أحدنا، لكنّها شكرته بهزّة رأسٍ خفيفة دون استيعاب لحجم التنازل الذي قدّمه بتلك الدعوة، كبرياؤه

وغروره بلا منتهى، وليس من محبِّي النساء ليخاطر بهما مع فتاة أقرب إلى الصبية منها إلى عالمهن. لكنّه مع هذا انتصر لها بعد ذلك في الدفاع عن حقِّها في مواجهة الجرسون.

«تشربه أو لا يا سيّد.. حرّة في تصرُّفاتها».

عادةً لا بدّ من مشاجرة تحدِّد مصير الزبون الجديد. هنا في «نادي الأذكياء» أنتَ لستَ في حاجة لبذل مجهود في الطلب، سيأتيك بعد وصولك بدقائق وكأنّك لورد عجوز في نادٍ ملكيٍّ حفظ الساقي كل عاداته. بضعة أيّام كافية لوضع تقييم شامل يضمّ طباعك ورغباتك. بالطبع أنتَ لست لوردًا عجوزًا وهذا ليس ناديًا ملكيًّا، لن تنخدع بالاستعارات فقد ولّى زمنها، حتّى لو استخدمها أحدهم لوصف الواقع فنتيجتها لن تكون سوى تزييفه، على هذا، وطالما جئت، فالمتوقّع منك حصافة إدراك أنَّ أموالك لا تعطيك الحقّ في فرض إيقاعك.

«حدّد عاوز تشرب إيه مرّة واحدة وريحنا».

قالها الجرسون بعَدَاءٍ واضح لمتأنّق وصل قبل أسبوع بعد فشله في موضعته داخل النظام العامِّ، ما إن يفرغ من مشروبٍ، حتّى يعلو صوتُه ليطلب غيرَه، مبدّلًا بين المشروبات بما لا يمكن عمّ سيّد من توقّع ما سيطلب في المرّة القادمة. الزبون الذي شلّه الذهول فلم يتمكّن من الردِّ، لجأ إلى صاحب المقهى المتفرّغ لجرائده، لكن ما الذي كان ينتظره عندما قاطع تأدية الباشمهندس لمهمته التاريخية...

«أصل سعادتك صوتك عالي زيادة عن اللزوم».

قالها أشرف السويفي ببرود متلهفًا العودة لمتابعة ما يقرأ، وقبل أن يتمكّن الزبون المسكين من الردِّ، حسم السويفي الأمر...

«واضح انه مش مكانك».

لم يكن الباشمهندس يتعمّد إهانة الرجل كما تصوّر هذا الأخير، فقط كان يبلغه بقرار المقهى الذي يملك إرادةً مستقلّة في الاختيار والاستبعاد، لكنّ المعنيَّ بهندامه، والفاشل في أن يكون زبونًا، مجرّد شخص عادي. هذا ما قرّره فخري منتهزًا الفرصةَ ليوجّه ضربةً إلى الورقي...

«الأناقة مجرّد حيلة يستخدمها الأغبياء ليداروا عجزهم عن الاستيعاب».

الورقي ربّما غبي، أو يمتلك ثقة عظيمة تجعله يستخف بالأقوال المأثورة التي يطلقها فخري بإيمان أنّه مطّلع على القانون الأصلي المهجور للكون. بحركة مسرحية نفض بأطراف أصابعه على «الجاكت» الفخم ماركة «فيرساتشي»...

«لكلّ فعل ردّ فعل سعادتك.. الحقائق الرياضية بتحكمنا».

كان محقًّا، فقد اعتبر الزبون المطرود من رحمة الجنون أنَّ ما حدث إذلالًا، نعم.. انصرف عاجزًا عن الردّ، إنّما خططه للانتقام اتّقدت على مهل.. وقائع عديدة بعد ذلك ربطت بينه وبين الحجر الذي شرخ الزجاج وسمح بالغزو.

مثله كثيرون حاولوا الالتحاق بتلك المنظومة، أحيانًا من باب التفاخر الانتماء إلى «قهوة المجانين»، حسب الاسم المتداول عنها في شبرا، المختلّين المحافظين على احترامهم طالما لم يفقدوا بعد خيطَهم الواهي مع العاديّين. كل يأتي باحثًا عن جنونه، إيقاعه الخاصّ، دون اعتبار للعقبات، معظمهم عجزوا عن مجاراة تلك السيمفونية المعقّدة، يقضون ما يشاؤون من وقت، لا نرفضهم، برغم أنّ الأمور في فترة وجودهم لا تسير على طبيعتها. الرهانات تبدأ بمجرّد وصول أحدهم.. على المدّة التي سيقضيها، التصرّفات التي سيقوم بها، والرهان الأساسي على كيفية مواجهته سخافات سيّد المتنوّعة.. اختبار تمهيدي ينتظره الزبائن القدامى على اعتبار أنّه المحدّد الأوّل لشخصية الوافد، لكنّنا استثنينا «تاليا»، أعفيناها من الاختبار

وانتصرنا لها في مواجهة سيّد الذي من المؤكّد أحسّ بالخيانة لكنّه لم يكن يملك إلّا الاستسلام فهو متواطئ إلى الدرجة التي تجعله عالمًا بأن...

«القوانين تُسنّ لكي تخرق».

هل كانت الشفقة؟ ربّما، فعلى وجهها ملامح حيرة ومعاناة تؤكّد عليها بصمت التزمته، لوحة خرساء ترفض أن يتأمّلها زوّارها. لكنّنا لم نكن لنتحمّل وجودَها هكذا، لا بدّ من وضعها في إطار ما وجاء كوب الشاي ليضمّها إلى جلستنا.

إن كانت حقًّا عشيقة الباشمهندس فستواجهه منافسة شرسة، عليه التخلّي قليلًا عن جرائده ومراقبة تصرّفات الورقي، قد تكون زاعقة ومنفرة لكنّ بعض النسوة يحببنَ الديكة المنفوشين، وهو لم يدّخر جهدًا في نفش كلّ ما لديه. يُبدي حماسة زائدة في الدفاع عن حقّها في الاحتفاظ بكوبها الوقت الذي تريد. لا يخفي ذكورته ورغباته، وهي انتبهت إلى نيّته خوض السباق عليها.

طوال العام الذي تواجدت فيه لم تتغيّر عادتها تلك، تنتقل من مكان لآخر بعد توطّد علاقتها مع الجميع وكوب الشاي الذي لا ينقص يصحبها كتعويذة. لم نسألها تبريرًا أو اسمًا حقيقيًّا، من أين أتت، وما الباعث لتمسّكها بتلك الفساتين التي تملؤها الورود. كانت تقدّم بكلّ هذا مبرّرات وجودِها، هنا الكلام قليل ومساحة التخمينات واسعة، وإن لم تكن مختلفة فما الداعي لقبولها؟ خاصّة وأنّها امرأة. أو للدِّقّة شبه امرأة. لكنّ المعلومات تتسرّب، ينقلها الهواء لتشكيل هيئة لكلّ فرد، ليس بالضرورة أنّها الواقع.

تعمل في محلّ حلواني في شارع شبرا. لديها عَلاقةٌ غامضة مع العجوز اليوناني صاحب مكتبة «سافو»، جيرانه فوجئوا به يغادر مكتبته منهيًا عزلةً اختيارية دامت أعوامًا، يسير بخطًى متثاقلةٍ بصحبة فتاة صغيرة أشبه بصبي، لم يروها قبلًا، ولم يشبع فضولهم، يردّ بلا اهتمام على الأسئلة بأنّها قريبة

له من كفر الشيخ وانتقلت إلى القاهرة مؤخّرًا، يتجاهل فضولهم ليخبرها بتاريخ الأرض التي يقفان عليها، وحواسّها معلّقة بشرحه، لا تلتفت لمن يحادثها أو للمعلومات التي يحاول جيرانه الحصول بها على حقّ الانضمام إلى رحلتهما السياحية.

«شبرا يا تاليا في الأصل اسمُها «جزيرة الفيل»، قطعة أرض صغيرة وسط النيل، ومحمّد علي باشا ردمَها وعملها شارع».

شرح عملي بعد اطّلاعها على المعلومات الأساسية عبر صوره وكتبه النادرة. ولأنَّ شبرا جزيرةٌ نبتت من الفراغ، فهي كما يقول خالطًا الخرافة بالواقع...

«أرض محمولة على أيادي الجنِّيات، ونحن نبالغ في التحميل عليهنّ، وقريبًا سيتركنَها لتعود مجرّد جزيرة بلسان شبه زلوم الفيل».

من يدري ربّما ما يقوله ديمتري صحيح، من يمكنه القطع برأي، شبرا حيّ العجائب، ولا أدلّ على هذا من أنّ جولاتِه برفقة تاليا، التي تبدأ عصرًا، أصبحت ببساطة جزءًا لا ينفصل من يوميّات الحيِّ.

تنتهي الرحلة فيعود إلى مكتبته ليجهِّزَ خطةَ موقع الزيارة التالي، فيما تأتي إلى المقهى لتقضي ساعة أو يزيد حتّى تصل زميلاتها اللاتي تشاركهن سكنًا قريبًا. لا تطيق أن تكون بمفردها. هكذا تقول برغم أنّها معظم الأوقات بمفردها حتّى وإن جلست معنا، بعيدة ونائية مهما تحدّثت وشاركت، ومع ذلك فهي الأعمق تأثيرًا وحضورًا، تأتيها الأشياء دون أن تطلبها، لم تبذل مجهودًا ما في أن تحلّ مكاني بجوار الأستاذ فخري، حدث الأمر بسلاسة شكّكتني في علاقتي بمَن اعتبرته أستاذي لفترة من الزمن، بل وبدأت أتساءل جادًّا عن قيمة مبادئه التي تترنح الآن تحت ضربات الرغبة والشهوة.. هل يحبّ الغلمان ولهذا يريدها، أم يراها التلميذ الأحقّ بأن يخلفه؟ على غير عادته يطيل التوضيح دون علامات التأفّف والتبرّم المعتادة...

«الدفاع الفلسفي أفضل وسيلة أنصحك باستخدامها.. نوع من الدفاع صالح لاستخدامه من المحترفين والمبتدئين، يعني معقّد وبسيط في نفس الوقت، بالنسبة للمبتدئ يقدر من خلاله الرد على التهديدات من غير تفكير فيما يُحضِّره الخصم على المدى البعيد، وكمان لن تكوني ملزمة بالإعداد لخطة أبعد من خطوتين. في مباراة رائعة لعبها كابا بلانكا وهو لاعب كوبي مشهور، كان موقفه صعب جدًّا وكان المفترض يستسلم، إنّما لجأ للدفاع الفلسفي واستخدمه بمهارة وقدر يحصل على تعادل له طعم الانتصار. أشرح لك عمل إيه..

هل تملك هذا القدر من الإغواء أم لأنّها الوحيدة من جنسها في مقهى لم تدخله امرأة منذ إنشائه. أجدُ نفسي في موقع المنافسة، أقارن بين استقباله لي ولها، كيف كان علي تحمّل طريقته الباردة. لولا ديمتري ومكتبته لما وصلتُ إلى المعلومات التي يسردها عليها الآن دون أن تبذل أي مجهود، على العكس يحاول التبسيط حتّى لا تملّ منه.

جلستُ بجواره فلم يُعرني انتباهًا، لكنّه أيضًا لم يعترض، منهمكًا في مباراة شطرنج مدّتُها خمس دقائق، بعد كلّ نقلة تتحرّك اليد تلقائيًّا لإيقاف ساعة صاحبها لتبدأ ساعة الخصم في التكتكة تلقائيًّا. لا مجال للتفكير، لعبة تحايل على الزمن، وهو ماهر في التعامل معه. هو الأبرع.. هكذا قدرت، لست محترفًا، لكنَّ الرقعة تفصح عن أسرارها لمن يتأمّلها من الخارج.

بعد أن تصافحا استدار إليَّ بعدائية...

«خير؟».

شتاءٌ.. لكنّه ليس باردًا جدًّا للحدِّ الذي يوجب ارتداء مثل هذا المعطف الثقيل. وهكذا ملابسه جميعها.. غريبة، معظمها من الصوف والكتان، ابتاعها من زيارة وحيدة إلى الاتحاد السوفيتي، وحرص عليها حرصَه على حياته، ينظّفها بنفسه ويحفظها في أكياسٍ خاصّة بها، ولا يعلّقها على

مشاجب؛ لأنّ هذا يجعلها مثل المشنوق ثقلُ جسدِه يشدُّه للموت، وهي وإن كان أثر الزمن عليها أرحم لكنَّها مقيّدةٌ بالقانون كأصحابها، محكومة بالتهاوي، الأفضل فردُها. أمَّا الأهمُّ أنَّه حافظ على وزنه ثابتًا ليليق بها عمره ثم تصحبه كفنًا حسب وصيّته.

«لعلمك.. الروس منتجاتهم هدفها كان الخلود، بس الشرط توصل للطريقة الصحّ في التعامل معها.. يعني لو انت شخص استهلاكي يبقى عمرك ما هتعرف».

هو الوحيد الحائز على لقب الأستاذ، وما إن تصير جزءًا من شلّته في المقهى حتى تصبح تلميذًا لديه، ولا أيًّا من الخبرات والتجارب بقادرة على نقلك درجة فوق هذا الموقع، كل ما رآه غيره...

«معروف».

والتطوّر الإنساني لا يعني سوى إعادة إنتاج ما خبره عبر أشكال مغايرة، ولا بدّ أنّ تمنعك العلاقة بين الأستاذ والتلميذ من الاستنكار إذا سمعته ينسب لنفسه ما كنت رويته، منقّحًا ممّا لم تلتفت إلى أنّه حواشٍ تُفسد المعنى أو تبطئ الإيقاع.

تتحدّث «تاليا» فيُصغي. استعارت بوقاحة صوت ديمتري. سنوات علاقتنا جعلتني أحفظ عن ظهر قلب جُملَه، أميّزها فور سماعها، حتّى وإن حاكاها مَن لديه قدرتُها المذهلة على التقمّص. مثله تبدأ حديثَها بمعلومة غامضة ومبهمة وكأنّها تشاركه الآن الإشراف على خزانة أسرار العالم...

«معقول يكون طوسون باشا انتحر فعلًا في قصره؟».

ينتبه فخري مع هلّة سيرة العائلة الملكية، تغادر التقطيبة الشهيرة من بين حاجبيه، ويتشاركان محاولة الإجابة عن سؤالها الذي سرقته كذلك من ديمتري.. كيف حدث الانهيار؟ أستمعُ لتفاصيلَ مرّت على أذني عشرات

المرّات في مكتبة «سافو».. كيف كانت شبرا متنزهًا لعلية القوم، ثم سكنًا مريحًا وسط غابات من الخضرة، ثم ملاذًا للموظفين المحترمين، قبل طغيان التنافر عليها. الفرق فقط أني لا أسمع الخاتمة التقليدية لديمتري في نهاية هذا الحوار...

«عجيب ما حدث لكم!».

ينفي بـ «لكم» أيَّ عَلاقة له بالانهيار، ليس إلّا مراقبًا جاء من اليونان ليرصد بالوثائق التخريب المتعمَّد الذي هدمنا به حضارةً كاملة.

تراقب «تاليا» الشارع وناسه عبر زجاج المقهى، تسعى للحصول عن إجابة لسؤال ديمتري، أم لعلّها تبحث في أمر أكثر بساطة.. أيّهما تختار من بين رجلين تدور حياتها حولهما الآن، الورقي.. من لا يكفُّ عن التودُّد والمشاغلة، أم السويفي.. من يواصل تجاهلها فيما الكلّ عارف بالعلاقة التي تربطهما. كنّا نتعامل مع هذا على أنّه واقع لا يقبل الجدل، لم يكن هناك حوارٌ ما بينهما لكن اتصالٌ خفيٌّ حاصل ولا شكّ، يمكن تخمينه من تغاضيه عن وجودها، وتجنّبها له.

بناءً على إحصائية أعدّتها واحدة من المجموعات الفرعية التابعة لنا، وصلنا إلى أنّ يوم الجمعة في فصل الشتاء لا يُستحبُّ العمل فيه.

الإحصائية أكّدت أنّ 95 في المئة من البيوت يتواجد بها أصحابُها في هذا التوقيت، أمّا في الصيف وفي اليوم نفسِه تختلف الأمور تمامًا.. 80 في المئة من البيوت تكون فارغة.

مصطفى إسماعيل
كتاب الأمان ـ النسخة الأصلية

(7)

«لما اختفي حصّليني».

الجملة الثانية التي تسمعها «تاليا» من الباشمهندس أشرف في عُمر علاقتهما القصير لتؤكّد لها ما وصلها منذ التقيا، أنَّ إعجابها به لا يعني أنَّ هناك ما يجمعهما، على العكس.. الإعجاب تحديدًا هو ما سيفسد العلاقة. تلقّت تربية أقرب إلى المتصوّفة، تعوّدت منذ صغرها ألّا تنال ما تريد إلّا بعد أن تزهدَه، ولم يكن الفقر السبب، فعائلتها من المعدودات الميسورات الحال في قريتها، لكنّها وأخواتها وأباها كذلك غير مصرَّح لهم التمتّع بالممنوح لهم؛ لأنّه ليس لهم، ما على الأرض ليس لأحد، من يقبل به يحمل اللعنة، الأرض وما عليها خطيئة ومن عقِل، فعليه الهرب منها، هذا وفقا لأُمٍّ ظلّت إلى ما قبل زواجها تتنقل مع أبيها من قرية لأخرى وراء مولد الشيخ الدسوقي الذي يتبع أبوها طريقته، منبهرةً بالبيارق الخضراء، تنشد وراء المدّاحين...

« أنا القطبُ شيخُ الوقت في كلِّ مذهـب

أنا السيّد البرهان شيخ الحقيقة».

تجلس في حلقات الذكْر مع الرجال، صغيرة منحها الوليُّ من بركاته فلا تتعب ولا تبكي، مشدوهةً بالحضرة الذكية. لم يمانع رجل في وجودها حتّى عندما غادرت عالم الطفولة وبدأ جسدها يفضح اختلافها، لم تكن

تبالي بأنوثتها، تهجرها وتستحي منها، تمسح بروز نهديها بلفّهما بقسوة بقطعة قماش، يرون ذلك فيعاملونها كأخ في الطريقة والمحبّة، يقدرون أنّ قدميها تشقّقتا سعيًا وراء شيخِهم، يتهامسون بأنّ وضعها هكذا لا يصحّ لكن إن لم تأتِ علامة من كبيرهم تأمرها بالمغادرة، فلا يجرؤون. إنّما حتّى المتصوّفة يتزوّجون ويُنجبون، وهي قنعت من المقامات برتبة العامّة حيثُ الظلُّ والماء الغدق، لكنّها لم تفرّط فيما خبرت وتعلّمت، واصلت الإيمان بما تلقّته على شيخها وأوّلُه أنَّ من يلهث وراء الدنيا لا يرتوي، وعليه تأخذ نفسها وبيتها بالشدَّة والتقشُّف.

اعتادت «تاليا»، التي نسيت اسمها الحقيقي الآن وتسير بالساعات تقارن بين ما دار في خيالها وبين الواقع، أن تشتهي الأشياء ولا تسمع من أمِّها إلّا جوابًا واحدًا تقوم عليه حياة كلّ المتصوّفة...

«أكلّما اشتهيت اشتريت؟».

تصرّ على طلبها، ثم عندما تناله يغيب عنه البريق الذي فتنها، تقلّبه تفتّش عمّا دفعها لاقتنائه.

يتوهّم أشرف السويفي أنّه السيّد الآمر المطاع. جملته الأولى كان لها الوقع ذاتُه في نفسها. تقف قريبة من محلّ عملها تفكّر إن كانت تريد الاستمرار في وظيفتها أم لا، إلى متى ستظلّ بائعة للحلويات، ألهذا هجرت ما ألفت؟ وربّما ردًّا على سؤالها ظهر أمامها فجأة بشعره الأشقر وذقنه النابتة باللون نفسه، زاهٍ مثل بسكويتات الأيس كريم التي تعدّها في المحلّ، جاهدت حتّى لا تضحك في سعادة عندما قال لها بجرأة وتلقائية...

«ازّيك يا حلوة مستنية حدّ»؟

برغم حرصه على السرية إلّا أنّ نزواته مفضوحة، كانت صدمته كبرى عندما حدثته «تاليا» بلا مبالاة عن مغامراته، عن النساء اللاتي عاشرهنّ، من ظلت معه فترة ومن غادرت سريعًا، أحسّ بالخجل من أنَّ أمَّه وأباه وأقاربه

وسكّان الشقّتين في الطابق الأخير، ومن يدري مَن أيضًا مِن سكّان الشارع مُطّلعون على أسراره، عار أجبره على التفكير إن كان غبيًّا وهو لا يدري، إن لم يكن كذلك مع تلك الخطط والحيل التي يتفنّن في ابتكارها، فما الغباء!

الاحتياطات لا بدّ من الالتزام بها بصرامة، القاعدة الأساسية ترك الفريسة على مسافة مناسبة من البيت بعد أن يصفه لها جيّدًا...

«عمارة قديمة على إفريز مدخلها رأس منحوت لنفرتيتي، وبجوارها محلُّ «أحذية الأناقة» وأمامها مكتبة «سافو».

الباقي يتكفّل به الزحام الذي يوفره موقع البيت في شارع رئيسي. يحافظ على وضع اجتماعي لأسرة غنية يحترمها الجوار، لكنّ الجانب الخفي لتلك الخطط هو اللافت.. يترك لمن يختارها حرّية اختيار الفرصة؛ لتقرّر هل ترغب فيما يعرضه أم لا، يضعه هذا في موقف أقوى عند التفاوض، وغالبًا يحدّد الثمن منذ يراها، كلماتها الأولى تقرّر الفترة التي ستقضيها، هل تستحقّ أم لا، الشرط الذي يحدّد ذلك ألا يشعر بالقلق والتوتر عندما يتركها وحدها في المنزل. لا يطيق معايشة هذه الحال، جرّبها مرّة مع إحداهنّ، بقي متوتّرًا طوال فترة وجوده بالمقهى، من دون أيّ أسباب ملموسة، بدت بريئة تمامًا، لكنَّ هاجسًا ألح عليه بأن كارثة آتية، استجاب متأخرًا ليجدها غادرت وبصحبتها أثمن ما يملك.. جهاز الكاسيت «أبو بابين» الأسطورة الأحدث في عالم الموسيقى والذي لم يكن قد مضى على شرائه له أسابيع. بعدها لم يجرؤ على التشكيك في فراسته، لا يستجيب للإغراء مهما عظم، برغم أنَّ بعضهن وبمقاييس الأنوثة والقدرة على الإمتاع يصلحن للبقاء شهورًا، لكن وكما اعتاد القول عندما يتحدّث عن خبراته مع النساء...

«بدون ثقة كأنّك نايم مع تعلب.. عمرك ما تعرف ممكن يغدر امتى».

كان الصيد في غالب أحواله سهلًا، ما عليه إلّا الاقتراب من الفريسة متخايلًا بلون بشرة أوربّي تعلّم منذ طفولته كيفيّة الاعتزاز بها. تعالٍ غرسته أمُّه

عبر مئات القصص عن أصولها، يبسط به سلطانَه على فريسته لتقبل ما يقدّمه لها بمزيد من الامتنان. لم تقاوم واحدة كثيرًا دفتر المحاضرات والمسطرة الهندسية والمساعدة التي يعرضها في البحث عن عمل، تستقرّ معه في شقّته المخصّصة له في عمارة أبيه. معظمهنَّ لا يقضين سوى ساعات، غالبًا لهن خبراتٌ سابقة. قليلاتٌ من قضين أيّامًا في الشقّة ملتزمات بتحذيراته الجادّة بألّا يخرجن وألّا يصدرن ضجّة.

لكنَّ الأمر اختلف مع «تاليا» مع أنَّها بدت له لا تستحقّ عناء المحاولة، حتّى إنّه تجاوزها بعد نظرة عابرة لم تلحظها، لكنّ ذلك لم يكن سبب العودة إليها، ليس من الذين تهتزّ ثقتهم بقدراتهم بسهولة، لكنّه فقط ودَّ تفحُّصها من قريب، الطول الفارع والجسد الصارم، نموذج بدا له مختلفًا.

ردّت بتلقائية وبلا حسابات...

«مستنية أقرّر إن كنت استمرّ في شغلي ولا إيه».

«موضوع أبسط من التفكير فيه».

استفزتها استهانته كما سيحدث بينهما في أيّ حوار، لكنّ الاستفزاز والاستهانة فخّ وحيلة لا علم عندها بتقنياتهما...

«ازاي يعني!».

لم يكن هذا ما تريد الردّ به، في إمكانها الوصول إلى مستوى ما قال إن لم يكن أعنف، لكنَّ مشكلتها أنَّه لا يمكنها ترجمة ما بذهنها إلى جمل صالحة للتعامل بها، يمضي الوقت ومن في مواجهتها ينتظر ردًّا بخلاف النظرة الساهمة.

تسير ما يقرب من الدقائق العشرة قبل أن تطلع من الحارة الضيّقة التي تسكنها، هادئة وساكنة بخلاف ما هي مقبلة عليه، بشكل ما تطمئنها وكأنّها ما زالت في قريتها، البيوت المتلاصقة، الأرض المتربة التي تتحوّل إلى

وحل في الشتاء، لا يفسد التخيّل سوى وقاحة غزل بعض الشباب الذين لم يألفوا وجودَها ورفضوا التعامل معها كجارةٍ لهم، تبدو بعض المعاكسات إهانات تصوغ علاقتها بالمكان وأهله...

«بوصة خاصمتها اللحمة».

تختلط المضايقات بالهدير الذي يعلو من شارع شبرا، يعلو خوفها لتقرّر مثل كلّ يوم لملمة القليل الذي تملكه والعودة، غير أنَّ الخطوة التالية تبعدها عن ذلك، الفضول أقوى من الخوف، الرغبة في الرؤية، بيت أسرتها مرادف للصمت والخواء، بينما الخوف، برغم كراهيتها له، يعني المغامرة وتجربة أحاسيس لم تكن لتخطر لها على بال.

يقابلها على ناصية الشارع مبنى تُشير لافتتُه الضخمة المترَبة إلى أنَّه «إدارة شمال القاهرة التعليمية» تقف بجواره كمَن وصل ضفّة البحر هيّاب النزول إليه. عشرات من الناس يدخلون ويخرجون وكلّهم منكّس الرأس ويبدو مهمومًا للغاية، يتمهّلون أمام امرأة تفترش الأرض تبيع بضاعةً لا يجمعها رابط: مناديلَ ورقيةً، مفكّاتٍ، أكوابًا زجاجية، أطباقًا بلاستيكية، حلوى، أمشاط شعر. تستند المرأة على جدار المبنى لا تبدي حراكًا وكأنّها نحت فيه. «تاليا» تقسم بمقام سيّد أمِّها الشيخ الدسوقي بأنّه مهما حدث، فلن تصل إلى مصير تلك المرأة، لكنَّ رعبًا يطغى عليها وهي تتساءل عن الكيفية التي ستتجنب بها الإفلات من ذلك المصير. في واحدة من تلك اللحظات ظهر أمامها أشرف السويفي ببشرته الأوربّية كأنّه رسالة من السماء.

تمامًا كما حلمت، التقيا مصادفة. يحمل دفترًا ومسطرة هندسية، يترك لحيته وشاربه، لينبّه من لم تنتبه إلى لون بشرته. بعد ذلك ستسمع «تاليا» القصّة كاملةً من أمِّه إلهام السعيد، أصولها التركية، ونصيبها «الزفت» الذي أوقعها في فلاح من عامّة الناس، صغيرة وطائشة وموضة زمنها الانفتاح بين الطبقات، لكنَّ الموضة تبخّرت وبقيت الحقائق، لون البشرة «القمحي»

الذي ورثته ابنتها، ليقطع كلَّ صلة باقية لها بالعائلة. إنّما، وقبل الموت كمدًا وحسرة رُزِقَت بالابن الدليل على رفعة مكانتها، يحمل قصّتها حتّى لا تضيع مثلما ضاعت حياتها وسط تقاليد فلّاحين ليس فيها حفلات رقص وكوكتيلات.

تتحدّث «المدام»، كما تناديها «تاليا»، عن ابنها بولع يتعدّى حدود الأمومة تعرف منه الفتاة أنّ الأمَّ المتّزنة والتي تسيّر أمور منزلها بلا أيّ تدخّلات، تحيا حين تخلو إلى نفسها عالمًا آخر، كأنّها بإرادتها تملك التنقّل بين العقل والجنون، ووحدهن الخادمات لهن الحقُّ في معايشة هلاوس سيدتهن. ابنها.. حبيبها ابن الأكابر، و«تاليا».. الخادمة المسكينة التي واقعها الشاب المعروف بنزواته. تطمئنها بأنَّها ستجد لها زوجًا طيبًا. تجد الخادمة المفترضة نفسها مأخوذة بذلك التدفّق المسرحي فتتغاضى عن الإهانة، تجهد ذهنها لتأدية الدور جيّدًا، لكنَّها تعجز عندما تتطرّق الأمّ إلى ما تجهله وما يتعثّر خيالها في استحضاره...

أين تلتقيان؟ يتسلّل إلى المطبخ حيث تبيتين؟ لكنَّ ذلك لا يليق به.. أيدعوكِ إلى غرفته؟ هل يصطحبك إلى عشّ الغرام؟ ماذا يعطيكِ في المقابل، كيف يبدو جسده عاريًا، أداؤه.. عنيف أم رقيق، عاداته بعد أن يفرغ، يبتعد فورًا ليدخن، أم يظلّ في أحضانك، هل يذكرني؟

هلاوس الأمّ، خلطها بين ابنها وحبيب قديم، نبّه «تاليا» للمكانة التي تشغلها في هذا العالم. خادمة. ليست كذلك لكنّ عليها تغييرَ تصرُّفاتها لتلحق باسمها، تتخلّص من الخوف الذي تبثّه فيها المدينة، فستانها الساذج، شعرها الغزير المتروك على طبيعته، كلّ ما يدخلها عنوة في ذلك الإطار. لكنَّها قرَّرت التمسُّك بفساتينها المليئة بالورود رفضًا للتطوّر الذي لا يطال سوى السطحي، وفي المقابل فتحت حواسَّها على المدينة، وتدرَّبت على إخفاء خوفها تمهيدًا للانتقال إلى الثقة بالذات.

منذ الكلمة الأولى التي نطق بها أشرف قرّرت الموافقة، وهي تأمل ألّا يتوقّف الأمر على جسدها، ستمنحه ما يريد لكن ليس الآن، ليس قبل أن يملّ من طلبه، وليس قبل أن تكرّر على مسامعه مرّات ومرّات...

«أكلّما اشتهيت ضاجعت؟».

وعندما ينالها سيقلبها بين يديه باحثًا عن السبب الذي دعاه إلى مطاردتها. رغبت أن توفر عليه محاولات إقناعها لكنَّ ذلك لم يكن ممكنًا، بدا مستمتعًا، ولن تكتمل متعته إلّا إن تمنّعت ليثمّن ما اصطاده. هل الرجال على هذا القدر من السذاجة؟ لن تكون حالة أشرف السويفي الأولى ولا الأخيرة التي تقنعها بذلك، بعده الورقي، وقبلهما أبوها الساذج أمام ما تملكه أمّها من حكمة.

عندما باشر تكرار الوصف عليها لتستوعبه أوقفته بإشارة من يدها...

«عرفت.. سهلة».

حفظت الخريطة فورًا، هناك أماكن كانت فيها من غير زيارتها. ما ورائيات، فتوح وبركة من شيخ لا تعتقد فيه لكنّه اختارها. بالفطرة تستغل موهبتها لتحدّد خطوتها المقبلة، تسير وراء ما تجد له صدى في نفسها. رحيلها أتى بناء على رسالة ومن يومها والخيوط تقود إلى بعضها، معفيّة من الاختيار، يصل رسول بجملة بها أمارة ما تنطلق وراءها لينفتح ممرّ.

هوسها بالرحيل في طفولتها كان عامود جلسات المسامرة. لا أحد يذكر كيف بدأ الأمر، من الذي علّمها مفردات السفر، ليس من حكايات الأمّ على أيِّ حال فهي لا تتكلّم عن ذلك تجنبًّا لشبهة التفاخر، لا تهفو لتقدير أو إعجاب حتَّى من أطفالها الذين تقضي خطّة التربية المتعارَف عليها الانبهار والرهبة من آبائهم ليتلقّوا تعاليمهم بلا صعوبات. «تاليا» التي كان لها في ذلك الوقت اسم تقليدي، كلّما كبرت، شابهت أمَّها أكثر، تحبّ الجلوس وحيدة، أنوثتها تتأخّر. يشغلها ما وراء قريتهم وتردّد أنَّها ستذهب إلى هناك،

وهم لم يدركوا إلّا متأخّرًا أنّهم أسهموا في ترسيخ الفكرة باقتراح الأماكن المختلفة. لم يدركوا إلّا متأخّرًا عواقب الاستمتاع بخيال طفلة. توقّفوا عن ذلك نهائيًّا، تحوّلت إلى لعبة محرّمة، كأنّ ذلك سينقّيها ممّا يخطر لها.

في الثانية عشرة من عمرها تركت البيت وسارت على الطريق الأسفلت الرابط بين القرى، مرّت ساعات قبل ملاحظة غيابها، وساعات أخرى في الدوران حول سور تلّ الفراعين، حاملين المصابيح، زاعقين باسمها، ولديهم شبهُ يقينٍ أنّ دماءها تروي في تلك اللحظات الأرض الملعونة. في النهاية، وتحت إلحاح أُمِّها، انطلقوا إلى الطريق العامّ، وجدوها قطعت مسافة لم يصدّقوا أنّها سارتها على قدميها النحيلتين، لم تقدّم أيّ إجابات، لم يكن لديها سوى هاتف تسير وراءه كالمنومة.

أمسك بيدها وهي ترفع ساقها فوق السور الحديدي القصير المحيط بالمبنى، وقاحته في النظر إلى قدمها ضايقتها، أزعجها تصوّر المجهود الذي عليها بذله لتغيّر تصوّره عنها.. الساذجة، سهلة المنال. من أين لها اليقين بأنّ ما بينهما سيمتدّ إلى هذا الحدّ؟ استندت على عامود محطّة الأتوبيس تتابعه وهو يسير بخطًى واسعة، البنطلون الذي يرتديه ضيّق على مؤخرته، أشاحت عنها ثم ارتدت مستثارة بجاذبية ستتحوّل منذ تلك اللحظة إلى هواية تردّ بها على المضايقات الجنسية. تذكّرت بخجل ملابسها الداخلية، لم يكن لديها لا الوقت ولا المساحة ولا فراغ البال لتهتمَّ بها، والحرّية التي حلمت بها اتّضح أنّها سراب، لم يتغيّر سوى الوجوه التي لا تترك لها فرصة لتهدأ، لا يمكنها التوقّف أمام الفاترينة الخليعة لتتفحّص ذلك الموديل من النايلون الشفّاف وعليه ثلاث وردات تمّ تحديد مكانها بدقّة، فيما عدا ذلك لن يستر ترغب في معاينته على جسدها، غير أنّها لم تحصل عليه، أين سترتديه؟ وسط البنات اللاتي تقيم معهن في السكن؟ هم في الأساس لم يتقبّلوها للآن، مثلهنَّ مثل الجيران يتعاملن معها كعدوّ، اعتبرن صمتها الطويل موجّهًا ضدّهنَّ. على هذا تكتفي بنظرة عابرة عليه كلّما سنحت الظروف،

صباحًا ومساءً تستزيد فيها من تفاصيله محاذرة الاقتراب من «الفاترينة» بما يثير شكوك المارّة.. ما الذي تسعى إليه فتاة من شرائها شيئًا خليعًا كهذا؟ ثوانٍ قليلة كافية لينطبع في ذهنها بحيث يأتيها عندما تغلق عينيها، بخلاف هذا لا تزال ترتدي ما عودتها أمّها، ألبسة أقرب إلى ما يرتديه الفتيان، كثيرًا ما اختلط عليها الأمر لترتدي ما يخصّ إخوتها الذكور، لم يكن من فرق سوى المثلث المطويّ في الأمام، مفتوح لديهم ومغلق لديها، غير هذا فهو القماش الثقيل نفسه، واللون الأبيض الهجين مع الأصفر بعد الاستخدام. بعد عامين من لقائهما الأوّل، وقبل زواجها بأيّام، ستقرّر منحه بعض ما يريد، وتعود لارتداء ملابسها التي رآها فيها المرّة الأولى، بما فيها «الكيلوت» الهجين الذي لم تفرط فيه. وقتها ستنطلق شهوة فتاها عارمة على ما كانت تستحي منه، على أردافها المحبوكة في لباس فتى، ولن تفهم ما يغمغم لها به إلّا من الورقي الذي ستتعلّم عبره أنّ الجنس ليس الممارسة التي تصوّرتها بسيطة، ستدرك أيّ غابة مجهولة كانت تجهلها، وأنّها تربح عندما تتصرّف وفق ما تمَّ منحه لها: غلام مشبع بالأنوثة.

وصل إلى نقطة لم تستطع تبيّنه فيها، اللحظة التي لا بدَّ أن تتحرَّك فيها...

«لما اختفي.. حصليني».

لكنَّها ظلّت في مكانها بلا حراك، مثل السيّدة الساهمة بجوارها، نحتين في الجدار، لكنّ ما حسم موقفها الرغبة في رؤيته ثانية، ترغب في الإحساس بثقته التي يتعامل بها، بسمته التمثيلية الساخرة التي ترافقه...

«ازيّك يا حلوة.. مستنية حدّ؟».

وقفت أمام البناية المنشودة تتأمّل رأس نفرتيتي، لا يمكنها التأكُّد إن كانت تلك من تبتلع الأطفال في قريتها، لكن بالنسبة لها كلّ ما يخصّ الفراعنة شرّ محض، على هذا لا تثق فيما ينتظرها هنا. فتى محلّ الأحذية الملاصق للعقار، يستند على «الفاترينة» ووجد فيها ما يشغله عن المارّة

المألوفين. جمودُها يمنحه المجال للتحديق، يرفع رأسه إلى التمثال، منذ سنوات يعمل هنا ولم ينتبه له. يُنَقِّل عينيه بينهما. بعد دقائق التفتت إليه، جفل من شخوصها، كاد يتراجع ويختبئ في المحلّ...

«الباشمهندس أشرف ساكن هنا؟».

استردّ ثقته بسؤالها، واحدة من النسوان اللاتي يأتي بهن وليست ساحرة مثلًا. لكنّها أصغر وأكثر براءة منهن. تصلح حبيبة. يغتاظ من الباشمهندس، لن يترك واحدة في البلد إلّا وأتى بها. من ستتبقى له!

«الباشمهندش ولا أمّه؟».

صوته لا يخفي ضيقه، بلغها المقصود فاستحت.

«أمّه طبعًا».

«الدور الرابع.. الشقّتين لها».

ومحاولًا إطالة أمد الحوار...

«وهو في الدور الخامس.. شقّة 10».

انسحبت من أمامه مسرعة، تخفي توترها في البهو الواسع البارد، صعدت السلالم ببطء بالغ، تعد الدرجات، عند الدرجة 56 توقفت. الدور الرابع. 28 درجة أخرى كفيلة بنقلها إلى مستوى مغاير، إلى أن يكون لها حبيب، رجل تلجأ إليه عندما تشتدّ المصاعب.

منتشية بتصوّره تلسعه نار انتظارها تهبط السلالم.

يتضمّن التشكيل العنقودي مزايا المجموعات الكبيرة من حيث قدرتها على الانتشار والإنجاز وجمع المعلومات وتصريف الغنائم بسرعة وعلى مساحة واسعة من الأرض يصعب تتبعها.

يتلافى هذا الشكل سلبيّات التجمّعات الكبيرة التي لا يمكن السيطرة عليها.

يتبع تنظيمنا الآن أكثر من عشرة مجموعات لا تعرف بعضها، واتصالها معي أنا فقط من خلال رئيسها ولكلّ مجموعة هدف وعمل مختلف عن الأخرى.

مصطفى إسماعيل
كتاب الأمان ـ النسخة الأصلية

(8)

بروحِ عاشقٍ للفنِّ يكتشف مصطفى تفاصيل مختلفة في صورة سوسن الكاشف مع عشيقها.. عيناهما منتشيتان بالخمر والجنس الذي أرادا التأريخ له. يجلس بتراخٍ وفي يده كأس شبه فارغ تفصح زجاجة النبيذ بجوارهما عن محتواه، كأسها الممتلئ بيدها وقاعدته غير مستقرّة تمامًا على فخذه العاري، كوعها على وسادة خضراء يزيّنها قلب كبير منقوش بالأحمر الفاقع بين فخذيه تداري عورته. صدر مشدود يبرز من خلال إيشارب ربطته حول عنقها وانسدل للأسفل، كادر الصورة يتوقّف عند انثناء فخذيها على بطنها، وعلى منبت الزغب الأسود الخفيف، إبهام يده يضع نهاية للكادر في الزاوية اليمنى، يلفت الانتباه إليه فورًا بخاتم يجاري موضة بوهيمية في ارتدائها بأماكن غير معتادة، ساعتها ستنتبه إلى الحلقة المعدنية الصغيرة في صرة بطن المرأة، يشكّلان، خاتمه والحلقة المعدنية، تناسقًا حسيًّا يدعوك لتخمين ما تتسلّى به بقيّة الأصابع المختفية خلف جسدها بعيدًا عن عين الكاميرا المتلصّصة.

كلّ صورة في ألبوم سوسن السويفي تحمل خلفها تاريخًا ومفردة. طفلة تتعلّم المعاني بالصور، وسيلة لاستعادة أحاسيس تكاد تنساها. هذه حملت عنوان...

«اللذة».

ليس مجرّد الجنس. مع عشيقها انعتقت من علاقتها التقليدية بزوجها، من أسر عادات باتت حبل مشنقة يضيق مع الهُوّة التي تنفتح بمقدار مُحدّد بعد الفجر. تنتظر بلهفة نهاية الطقوس الصباحية، متابعة الأولاد في استعدادهم للمدرسة، توديعهم من الشرفة، الإجراء الذي يصرون أنّه جزء لا ينفصل من حياتهم، تلويحة اليد الآلية. استيقاظ زوجها بعد ذهابهم بساعة، تناول الإفطار معه بحوار قصير محفوظ، يطمئنه أنّ الأمور تسير في مجراها الطبيعي، وفي خفوت روح تمرُّدها القديم.

تعود إلى ألبوم الصور السري تطهُّرًا من طقوس بليدة تقتل روحها التي تحبّ التمرّد.. الخروج عن أسر تقاليد عائلية مهيبة تكبل من يخنع لها، فلا يبقى إلّا تصديق أنّ هذا هو الشكل الأمثل للحياة، الرضا به إلى الموت. لم يكن الأمر خيانة، وتدنيسًا للشرف كما وصفه عندما عادا ووجدا البيت مسروقًا وصورتها العارية تزين الحائط. كان لجوءًا لقاعدة...

«الضرورات تبيح المحظورات».

الحلُّ لاحتمال الإيقاع الرتيب. فتى الصورة لم يبذل مجهودًا في إغوائها، العكس صحيح، هي من سعت وخططت، صارحته بوقاحة أنّه كان عصيًّا على الإيقاع به، وبسخرية أعجبتها فخرجت كلماتها ضاحكة...

«بأمانة.. أمّك ربتك».

زوجها يحاكمها تاليًا آية تقرّر عقوبة الزانية، بدا لها حجم ما اقترفته مع تسميته له بـ«الزنا»، ستكون فضيحة مدوية مع هذا الوصف، تمنّت لو ينتقي تعبيرًا ألطف عندما يخبر أهليهما، حتّى لو كان...

«نامت مع واحد تاني».

«النوم مع» يحتمل تأويلات لا فجاجة فيها، أمّا «الزنا» فمرادفاته حادّة

وقطعية الدلالة، تنبّهت مع هذا التداعي إلى أنّه لا دليل جادّ على «زناها»، لم يرَ هو أو سواه ما يستند إليه لتلويث سمعتها، هذا سيكون دفاعها إن تكلّم...

«شفت الريشة في المكحلة؟».

يليق وصف «الريشة» بفتاها، ويليق بها «المكحلة»، فارق السن بينهما يرشّح لذلك، خبرتها وعنفوانه. صارحها بذلك ولم تتضايق كما يفترض، تهوى القيادة وفتاها تاه بأسلوبها، الحنان المختف خلف قناع من الصلابة، مثل أمّه...

«يا واد يخرب عقلك.. نمت مع أمّك».

رضا يكسو وجهها وزوجها، المصعوق في رجولته، وشرفه، وكبريائه، يصفعها على وجهها محاولًا التعويض على نفسه، لكن الصفعة والضربات التي تلتها ليست كافية، يفكّر في قتلها، يوشك بالفعل على طعن جسدها الآثم لكن السكين، الذي هرول وأتى به من المطبخ، يتوقّف في منتصف الطريق إلى جسدها، هل يهدم حياته من أجلها؟ أحبّها سابقًا، غيرَ أنّ ما أحبّها لأجله هو ما حرّضه لكراهيتها، ضاعفت تلك الكراهية بعدم إخفاء نفورها منه بعد علوّ الحسّ الديني داخله، لم يتقبّل موقفها، إن تغاضى عن أنّ هذا سبيل الحقّ، فعلى الأقلّ...

«حرّيتي الشخصية».

ويكفي أنّه لم يغصبها على ارتـداء الحجاب مع أنّها تكاد تكون السافرة الوحيدة بين معارفهما، وكان حائطها الصلب الذي تكسّرت فوقه الانتقادات، قبل بروح أبويّة منفتحة تصرّفاتها الغريبة ومنها الخاتم الذي وضعته في سرة بطنها عندما سافرا إلى دولة أوربّية. لكن ومع إيمانه بقيم الحرّية إلّا أنّه ملزم بصفته الرجل أن ينبّهها، جرّب محايلتها...

«عاوزين نبقى مع بعض في الجنّة بعد كده».

لا بدَّ مجنون من يرفض هذا. قصّ عليها مقطوعَ الأنفاس عن رؤى بشّرته بها، وعن السعادة الغامرة هناك الممتدة شلّالًا لا ينقطع، لكنّه يتلفّت حوله فلا يجدها بجواره.

لم تكن تريد جنته، وجوده فيها بجانبها يعني انتفاء صفتها عنها. ثم إنّ من حوّل الأرض جحيمًا ليس له الوعد بالنعيم. هي في الأصل تتعجّب من تزايد عدد الحالمين بالجنّة، أولئك الذين يهملون حياتهم من أجل ما لا يمكن المراهنة عليه، من يضمن أيّ شيء بعد الموت، الاحتمالات متعددة وكلّها تستحقّ نصيبًا، ما يعني أن تعيش وفق قناعاتها. الخيانة حرام، إنّما ماذا عن...

«القصاص حياة».

وماذا عن الإهانة! مثلما احتقرها بخيزرانته...

«العبد يُقرَع بالعصا، والحرُّ تكفيه الإهانة».

ستردّ بالمثل، لهذا وبرغم رعشة الخوف إلّا أنَّ إحساسًا بالقوّة والتحدّي أمدَّها بالثقة أمام صورتها العارية، تتأمَّلها معه وكأنَّهما في متحف، بل وراودتها الرغبة أن تمدَّ يدها وتُمسك بيده ليتشاركا اللحظة، لكنَّه كان ساكنًا تمامًا ما دعاها للتفكير في أنَّه سيسقط مغشيًّا عليه، هذا إن لم تصدمه ذبحة قلبية، أو شلل. مصيرٌ يليقُ بشخصيّته وتحوّلاته التي توقن أنَّها مدعاة، نظرية يستند عليها ليتخلّص من ضعفه أمامها.

يرعبها السكين، والموت الذي لا بدَّ سيستغرق زمنًا للوصول، لا يتقن تقطيع اللحم، والسكين لم يُشحذ منذ ابتياعه. هل سيأتيها ثعبان يعذبها في قبرها كما يبّشر الشيوخ المُذنبين؟ اقشعرَّ جسدُها، دار في ذهنها أن تطلب منه تنفيذ الحدِّ الشرعي، مماطلة لكسب الوقت، إلى أن يحفر حفرة ويأتي بالأحجار التي سيرجمها بها قد تجد مفرًّا. لكنَّ عشرتها مع ذلك الرجل المنحني فوق جسدها أمدَّها بما جعلها تتماسك، لن يضحّي بسمعته

التجارية، لن يجازف بدخول السجن، برغم أنَّه في تحوّله يتحدّث مفتونًا عن الحياة الخشنة للمسلمين الأوائل، لكنَّه مع ذلك اعتاد الحياة الوثيرة، وهو ألين من أن يقتل. هرب من السلطة التي عرضها عليه أبوه.. التابع لا يقود. يعرف نفسه، هذه نقطته الإيجابية، ارتبطت به لهذا، بهرها إمكانية وجود رجل غيرِ مزيّف. باركت اختياره في التمرُّد على أبيه وعائلته ورفض انتماءاتهم التي منحتهم الثروة والسلطة، لم تدرك أنَّ اختياره لم يكن أصيلًا وأنَّه يتمسَّح في تمرُّدِها، ومثل الزعماء لم تستطع رفض تابعٍ مخلص، ومثلهم لم تنتبه إلى أنَّ الإيمان يزيد وينقص، بل ويتلاشى، لم تحسب ما سيحدث عندما يفيق، لم تتخيّل سماع كلمات على شاكلة...

«ما عنديش استعداد أخسر دنيتي وآخرتي عشان تعيشوا في مستوى اجتماعي عالي، مش مهم يعني فيلا في الساحل الشمالي، اسكندرية أجمل».

بدا لها أنَّها داخل فيلم أنتجته الشركات مئات المرَّات حتَّى لم يعد صالحًا كموضوع للمعالجة. حاولت إثناءه عن بيع أرض يمتلكها بهذا الثمن البخس، لكنَّه صمَّم وأهّبت نفسَها للفقر لكنَّ ذلك لدهشتها لم يحدث، شارك بعض أصدقائه الجُدُد في تجارة وصفها بأنَّها حلال، والأكثر إبهارًا أنَّ أرباحها عالية...

«تجارة عطور وأقمشة».

ولم يضف المزيد. لكنَّها لم تسعد بذلك المال فمعه زَادَ تعلُّقُه بالشكل الديني الصارم مجاريًا انتماءات شركائه. تحجّبت ابنتاه مدفوعتين بهلاوسه عن عذاب السافرات، ومسايرات صديقاتها وبنات العائلة. منع تدخّلها بترك حرّية الاختيار لهنَّ، كان حازمًا في إيضاح أنَّ سلطتها لا تشمل أحدًا غيرها، وأنَّه بوصفه وليَّ الأمر مَن سيتمُّ حسابه، وحين تعاظم إصرارُها أثبت لها تصميمَه بعشرة ضربات من خيزرانة استلَّها من دولابه. خطّة تأديب مُعدَّة

سلفًا ما ضاعف غيظها، تنتفض لكلّ ضربة وتنغمر في الإهانة، مع فراغه من تأديبها كما نصحه شريكه، كان ما بينهما ضاع، لم تعد زعيمته المتمرِّدة، ولم يعد تابعَها المخلص.

مع قناعته بأنَّها على خطأ لكنَّه أكيد من أنَّ عنادَها سيمنعها من الخضوع.. الأمل الوحيد لعودتهما أن تنقلبَ الأدوار، وما الضرر! حان دوره للقيادة، ألم يسمح لها بمقام الزعامة في اللعبة لفترة كافية؟

ليس ما يحزنها الآن أكثر من أنَّه لن يتمَّ تخليد لحظتيهما الختامية.. ممدّة على الأرض، ترفع يديها وكأنَّما ستصدُّ الطعنة بهما، البلوزة انزاحت من فوق بطنها، فبان الخاتم الذي يستفزه بشكل جنوني والذي دعاه إلى الابتعاد عن معاشرتها ، بعدما رفضت التخلِّي عنه، إلّا لتصريف مخزونه. من المؤكَّد أنَّ العدسة ستنجذب إلى الالتماعة الصادرة من السكين وخاتم الصرة، سيظهران في الصورة وكأنَّ خيطًا من نور يصل بينهما، قانون الجاذبية الشهواني الذي يدور في فلكه كلُّ شيء...

«القضيب والدائرة».

هكذا كانت ستعنون الصورة التي لم يتمّ التقاطها.

كانت فكرتها أن يضبطا الكاميرا ويلتقطا صورًا، نهرت الشابَّ الخائف من تسجيل المناسبة. لا تستوعب الأحداث التي تمرُّ بها إلَّا من خلال الكاميرا. صورة جديدة في الألبوم تساوي حيوات عدّة تعيشها حتّى تتشبّع عيناها من التأمّل. مفكّرتها التي تضمّ كلمات ما حول الصور تبدأ بـ...

«الإنسان لم يدرك ذاته إلَّا عندما اخترع الكاميرا».

جملة يتيمة في يوميّات لم يُكتب لها أن تتمّ، تدور فكرتها حول الصور. تخرج صندوقها، تبعثر الصور على الأرضية وتفتح المفكّرة وتمسك القلم لكنّها لا تكتب شيئًا، كلّ صورة تختارها تفتح في عقلها

بابًا لخيالات عن أحلام لم تتحقّق، لا تفيق إلّا عندما يحين موعد عودة أولادها من مدارسهم.

أبطالُ صورِها تحوّلوا بطريقة تخيفها، كأنّهم آخرون، حتّى أخيها، صديقها في زمن السبعينيات، سجن نفسه في عمل ممل وحياة رتيبة، هو من كان يحدثها بانبهار عن جيفارا، وهوشي مِنّه، ومظاهرات الطلبة في باريس، والمساواة الحلم حيثُ لا غني ولا فقير، زمن التمرُّد والانفتاح. ابنتها القريبة إليها والوحيدة التي رأت الألبوم السرِّي تجلس معها أحيانًا تضحك على الأزياء وتسريحات الشعر لكنّها لن تتكهّن أبدًا بلذاذة مذاق الدنيا وقتها، طفلة مسكينة في زمن يسيره المتعصّبون، ليس لها أن تحيا كأمِّها، لن يكون لها أصدقاء من الشباب تقف تحت شرفة بيوتهم وتطلق الصفارة التي اشتهرت بها، في العصاري وقت أن تجلس النساء مع أزواجهنَّ في الشرفات لاحتساء الشاي. تكاد تبكي كلّما رأت صورتها التي التقطها لها أخوها، تضع إصبعيها في فمها لإطلاق صفارتها تستدعي بها صديقها وجارها الذي اعتادت التجوّل معه. تسير في البلد تقودها رغبة الاكتشاف وهي ترتدي ما تشاء بلا حسابات لأين تذهب ومن يعترض، تسعى وراء الملصقات المعلّقة على الحوائط، والإعلانات التي يضعها البسطاء.. «غرف للإيجار». «كوافير حريمي على الموضة». «مطلوب بائعين وبائعات». «للطموحين والراغبين في عمل يناسب قدراتهم». ترخُّمات على ناصر ولعنات على السّادات. كلماتُ حبٍّ، وأخرى جنسية. تسرح في كلّ جملة، تدقّق في شكل الخطّ، الموادّ المستخدمة في الكتابة، تجيب على التطفّل بأنّها صحفية، الوظيفة التي طالما أرادتها. يتطوّعون ليقصّوا عليها الأسرار المختبئة وراء الجمل. فيما بعد قرأت عن الاستعراء باعتباره انعكاسًا لرغبة الذات في الانكشاف. كان تفسيرًا ملائمًا. لم تفقد الرغبة في هوايتها لكنّها لزمت الحذر بعدما ساقها أحدهم في حيٍّ شعبي إلى زقاق مظلم ليريها كلماتٍ محفورةً من زمن بعيد بلغة فشل أهل الحيِّ في تفسيرها، وبينما تُدقّق في الحوائط بحثًا عن الكنز الذي مناها به يتلفت محاذرًا

قبل أن ينقضّ عليها من الخلف شاهرًا مطواته على عنقها يمنعها من الصراخ، ارتضت مشترطة ألّا تفقد عذريتها. هل كان الخوف أم أنَّ هلاوس الجمل والرسومات الجنسية الساذجة أصابتها!

زوجها يدور بالعربة في الشوارع حسب طلبها وعيناها معلّقتان بما يمران عليه.. ملصقات وشعارات دينية «الحجاب قبل الحساب يا أختي المؤمنة». «الله فوق الجميع». «الإسلام هو الحلّ». تشيح سريعًا عن جمل كتلك، شيء ما فيها يجعلها تنقبض، ليس من سبب محدّد إلّا إن كان كلام زوجها صحيحًا وأنَّ شيطانًا ما يسكنها. يواظب على سماع القرآن بصوتٍ عالٍ، وعندما طلبت منه ألّا يفرض ميوله على غيره، أجابها بلهجة غريبة، متحدّية لم تعهدها...

«أنا أقوى من اللّي سرق روحك».

لكن وإن ظلّت قصّة الشيطان الذي سكنها أمرًا مطروحًا على نفسها للبحث فيه، إلّا أنَّها كانت أكيدة أن تحوّل زوجها ومع تلك الكتابات يمثّلان بداية لعهد مختلف عمّا تربّت عليه، يتشابه مع ما مضى في أنَّ وراءه رغبات مكبوتة لكنَّه من نوع لا يستهويها، كبت يرغب في سجنها معه.

مشكلة اللصوص ليست في يقظة رجال الأمن، الأزمة الحقيقية في رغبة كلّ فرد الملحّة أن يصبح بطلًا، يجد قصّة يحكيها ويتفاخر بها بقيّة حياته، حتّى لو كان أهمّ ما فيها أنّه زعق بأعلى صوته: «حرامي»، وانضمّ إلى جمهور يظنّ نفسَه في سباق عدو.

من الأساسيات التي لا بدَّ من الانتباه لها طوال الوقت كيفية تحييد الناس إن لم يمكن إقناعهم بالانضمام.

مصطفى إسماعيل
كتاب الأمان ـ النسخة الأصلية

(9)

«إنّما يا أستاذ خالد، اسمح لي.. ألا تعتقد أنّ هذا الفصل قد لا يكون له علاقة بالقصّة الأصلية. بمعنى، ما الذي تُضيفه حكاية سوسن الكاشف هنا؟ هذا لا يعني أنّي أفرض عليك رأيًا ما، على العكس أظنَّ أنَّ شخصية المرأة ستنالُ إعجاب بعضهم، المثقَّفين ربَّما، لكنَّ الغالبية سيرفضونها. دعني أكون صريحًا معك، أنا لستُ متديِّنًا بالمعنى التقليدي، بدليل ما نفعله الآن».

رفع كأسه فاهتزَّ الضوء على سطحه مؤمِّنًا على كلامه، صمت للحظات، غالبًا يستغفر في سرِّه. انفردت ذراعه تبعد الكأس إلى طرف المنضدة فخرج عن مجال رؤيته، تابعت الذراع تعود لتلقط قطعة خبز تغمسها في أحد أطباق «المزّات» وتصعد بها إلى فمه الذي ابتلعها دَفعة واحدة. هو حوت واللقمة المسكينة يونس، ستتعرّض إلى اختبار صعب في الداخل. تابع، وكنت قد تغافلت عمَّا يقول أملًا في تغيير المناقشة...

«لستُ مضطرًّا للتأكيد على حماسي لإصدار هذا الكتاب، لكنَّ علينا أن نكون واقعيّين، الدين الآن موضة عالمية، ومن حقِّه فرصةٌ مثل الموضات السابقة، التحرُّر والانفتاح والتمرُّد، لا أفهم ما يمنعكم من رؤية هذه الحقيقة البسيطة والتعامل معها، وربَّما استغلالها في تكوين شعبية بين الناس. لا تقل لي من فضلك إنّه يقيّد حرّيتك في التفكير والقول، هذا عجز ليس إلّا، يمكنك قول ما تريد بلا صدام، إلّا بالطبع إن كنت تسعى لهذا، ساعتها

تختلف القضية. يعني أنا لم أنتهِ من القراءة بعدُ لكنَّ إحساسي أنَّ الموضوع لن يتوقّف عند هذا الحدِّ».

«ربّنا يستر».

«ذكّرتني بمصر قبل ثلاثين عامًا، كنتُ شابًّا صغيرًا، البلد كانت مختلفة جدًّا مثلما تقول صديقتك تلك. بالمناسبة هل هي شخصية حقيقية، هل لديك تلك الصورة، كيف حصلت عليها، أليس من المفترض أنَّها دليلٌ ضمن أوراق القضية، هل سرقتها من ملفّه، هل وضعها مصطفى هكذا متعمّدًا ليراها زوجها؟ لم أصدّق، كيف يمكن له أن يقدّم على هذا التصرّف؟ نعم حرامي، لكن من حكاياتك عنه اعتقدت أنّه أكثر إنسانية».

«الخضر».

«الخضر؟ ماذا عنه؟ لا أرجوك لا تُدخلنا في هذا الباب. هذا نبيٌّ يا أستاذ، وأنت الذي من المفترض تملك الكلمة وأعطاك الله سرَّ الحرف تقول هذا، تُشبِّه لصًّا بنبي! في الحقيقة هذه مفاجأة قاسية جدًّا، برغم أنّي رأيت بعض شطحاتك لكنّي لم أتوقّع أن تصل إلى هذه الدرجة. بالمناسبة ألا تؤمن بوجود الله؟ اعذرني.. عادة لا أسأل أحدًا عن دينه أو معتقداته، هذا أمرٌ يخصّ كلّ فرد، اعتراضي لا ينطلق من أساس ديني، لكن ما تقوله ضدّ المنطق والعقل، ثم أنّي أسألك ليس من قبيل الفضول، أو لأنّنا أصدقاء، لكنّ هذا أيضًا يهمّني من ناحية عملية بحتة. تخيّل أن يصدر كتابًا عن «دار الورقي للنشر» يتبنى هذا الموقف».

منذ وضع اليافطة فوق المطبعة يتعامل مع داره على أنَّها حقيقة واقعة، يكرّر اسمها كثيرًا وكأنّه بهذا يمنحها الشرعية والشهرة اللازمة.

مضى في ثرثرته التي أشعل النبيذ رغبتَها.. قد نربح من وراء الضجّة التي ستحدث حوله، لكنَّني لا أريد هذا الربح، لا تنسَ أنَّ السوق العربي لم يعد يتقبل هذه الآراء. بالمناسبة هل تعلم أنّي عملت لفترة في الأردن وكيلًا لدور

نشر كبرى، وتجربتي معهم أمدّتني بالخبرة اللازمة لتبيّن ما يتقبّله السوق وما يرفضه. أرجوك أجبني عن السؤال. لا، لا أريد منك إجابة، هذا شأنك، إنّما عليك أن تعدني بالآتي، أن تكون خاتمة الكتاب مؤكّدة على بعض الحقائق أهمُّهما أنَّ الله موجود، أظنُّ أنّنا لن نختلف على هذا، ثم على ما جاءت به الأديان السماوية بخصوص موضوع الكتاب وهو أنَّ السرقة حرام، وأنَّ الآثم سيجد عقابه في الدنيا أوّلًا، ثم العذاب الأكبر في الآخرة، هذا نظام إنساني قبل أن يكون دينيًّا.. لن تجد من يساندك في عبثك، إن كنت حائرًا، فاتبع الحيارى لترتاح...

«الحشيش هو الحلُّ».

لم تكن الخلافات بيني وبين أنور الورقي حول الكتاب لتنتهي، كل فصل يمثل مشكلة، أفكار مصطفى تثير قلقه، والأزمة الأكبر، كما عبر عنها مرارًا وبجمل مختلفة، في موقفي من تلك الأفكار، انحيازي لها ودفاعي عنها. كان متحمسًا بالفعل كما قال لإصدار الكتاب لكنه يظن أني لا أمارس الدور المطلوب مني كمؤلف، هناك تاريخ طويل من الكتابة وأنا أقف ضد ما أرساه من معايير، الاختلاف ضروري ومهم، وهو يتفهم رغبتي فيه، لكن ذلك لا يكون على حساب ما استقر عليه الناس...

«اسأل أي حد، عبقري أو عادي، سيقول لك ما أقوله، أنت تقف وحيدًا فيما تفعله».

الورقي ليس إلا أحد ألوان السلطة، يرى ما تراه، ويريد ما تريده، فإذا كانت هي حاولت احتواء تمرد مصطفى إسماعيل على الأرض فهو يتم عملها بمنعه من الاكتمال على الورق.

حاولت مسايرته في التعديلات التي يطلبها بقدر يرضيه ولا يضر الكتاب، لكن شهوته للتعديل والحذف والإضافة تتضخم مع كل موافقة مني، ما يعني تجريد الكتاب وشخصية مصطفى من كل اختلاف. ولم يكن

أمامي في النهاية سوى العودة عن فكرة النشر أو القبول بالحل الوسط الذي اقترحه في البداية.. مقدمة باسم الناشر يكتب فيها رؤيته عن القضية مع تحليله الخاص لما أدى إلى هذا الانهيار في قيم المجتمع وأعرافه.

مقدمة مخجلة لكني وافقت عليها بشرط ألا يمس ما كتبت، في ظنه أن مقدمته كافية لموازنة الآراء في الكتاب، لم أهتم بما يعتقده، كانت الحل لأرتاح من المناقشات الطويلة لكل تفصيلة، ومن ثرثرته، وربما أيضًا لشعور خفي بأن مقدمته وكلماته التقليدية قد تحميني من تبعات ما كتبت. ثم.. من يقرأ مقدمة الناشر على أي حال!

بعد موافقتي على مقدمته بأيام نزلت إلى الأسواق الطبعة الأولى من «كتاب الأمان» مصحوبة بحملة إعلانية صغيرة تعتمد عناوين تجارية صاخبة.

النهارُ برغم زحامه ومشاكله العديدة لكنَّه يبقى أكثر أمنًا من الليل.

عبدة القانون يعتقدون أنَّ النهار ملك لهم فيما اللَّيل للكافرين بالمنظومة، كسر هذا التوقّع يجعل السرقة أسهل نسبيًّا خاصّة إذا استطعت ضبط أعصابك لتبدوَ هادئًا واثقًا ممَّا تفعل.. وقتها لن تختلف السرقة في مظهرها عن أيّ عمل نهاري آخر

مصطفى إسماعيل

كتاب الأمان ـ النسخة الأصلية

(10)

مثلما اعتاد لسعَ النحل وطنينَه المتواصل في أذنه رضي نبيل العدل أيضًا بأنّ حياته تبدأ في الرابعة عصر كلّ يوم. في هذا التوقيت يغادره الألم والمزاج المتعكّر. الرابعة بالتحديد لا دقيقة أقلّ ولا أخرى أكثر. من الصعب تخمين إن كانت وخزات النحل حوّلت جيناته ليحوز قدرة المملكة النظامية أم أنّه تمكن بشكل ما من توجيه جسده ليتواطأ معه على ما يعتقد فيه.

في حدود تلك الساعة يستشرف مصر الجديدة بعد الحي الصحراوي الذي يتحاشى تفاصيله. كان على وشك رفض الوظيفة الممتازة، التي وفرها له أبوه عبر علاقاته؛ لأنّها ستجبره على التواجد في مكان يعتقد أنّه الأقبح بين ما رآه، لولا أنّه لم يجد سببًا منطقيًّا يقدّمه للاعتذار، فالرجل وإن كان من علّمه الإخلاص لمصر الجديدة لكنَّه سيعتبر هذه الدرجة من التولّه جنونًا كاملًا. فكّر في صيغ مختلفة للاعتذار بناء على شخصية سيادة اللواء العملية...

«المشكلة سيّدي في مدينة نصر أنَّ رائحة الرمل فيها كريهة، لا تُطاق، بخلاف عندنا».

وهل للرمل رائحةٌ في الأصل؟ هكذا سيسأله، جادًّا وليس ساخرًا فهو لا يؤمن إلّا بالواقع، وليس وحده، العائلة كلّها لا تؤمن بالمجاز، الحقيقي تحدّده الحواسّ الخمس، ونبيل لا يختلف عنهم، لكنّه يشم رائحة الرمل

طالما تواجد هناك، تملؤه لدرجة الاختناق، إلى حدٍّ أنّها أصابته باكتئاب مزمن وفوقه مرض يعالجه بترك جسده فريسةً لِلَسعات النحل.

الرابعة عصر يوم شتوي، تنكسر الشمس على المباني العتيقة ليعيد نبيل تفقد الوجه الأسطوري لمدينته. داخل سيارته مأخوذًا بطاقة المباني على تجديد درجات ألوانها بحسب الضوء. التناسق هو السمة الأساسية، لا بهرجة ولا تقشّف، اعتدال وتـوازن بين مساحات البناء والشوارع والمساحات الخضراء، لا نتوءَ يقتحم العين، ولا لون فجّ أو صادم. الملاحظة لثلاثين عامًا أمدّته بمعلومات كافية لتنصيبه مرجعًا معماريًّا إن رغب لكنّه مثل عاشقٍ صادق يُؤثِر الاحتفاظ بما خصّته به حبيبته لا يشاركه فيه سوى البارون.

بخلاف الناس لا يأخذ أقصر الطرق المؤدّية إلى بيته، في إمكانه الوصول إليه من محلّ عمله خلال ثلث ساعة لا أكثر، لكنّه يضيف إليها نصفًا أخرى لأجل رحلة التطهّر التي يستهلّها بالمرور أمام قصر البارون، عندما يتبدّى برجه من بعيد يبدأ شعوره بالضيق والاحتقار الذي تسبّبه له مدينة نصر في الخفوت، لا يبالي بتبرّم من خلفه عندما يبطئ من سرعة السيارة حتّى تكاد تتوقّف، من الوارد أنّه اكتسب شهرة...

«مجنون القصر».

تقريبًا لا يسمع «الكلاكسات» التي تحثّه على السير، لَهْيانُ بالكامل بتماثيل بوذا على القبّة الكمبودية، والفيلة الرابضة في الشرفات، والكائنات الخرافية التي قضى مراهقته في تحديد أصلها وتسميتها، رأى كلّ ذلك وعاينه آلاف المرّات ومن مختلف الزوايا لكنَّ ولعَه لم يهدأ، مدركًا أنّ التفاني في المحبّة شرطُ عودة هيلانة للتبدِّي أمامه ثانية، تناديه عوضًا عن زوجها الذاهل بدوران البرج والمناظر المتغيّرة حوله عن إنقاذها من الوقوع.

«نبيييل».

لم يسمع اسمَه، شغله الاستعدادُ للألم الذي يعايشه ثلاثَ مرّات في الأسبوع. يجلس ممدِّدًا ذراعَه العارية على المنضدة المعدِنية بلا قدرة على تحديد إن كانت برودتها انتقلت إلى جسده أم أنّه الخوف الذي يزحف في جسده. يحاول التماسك من رعشة قادمة بينما يتسمّع صوتَ الطنين داخل الجرّة يتصاعد ردًّا على محاولات المعالج التقاط نحلة بمِلقاطه. عَشَرُ نحلات وعشر لسعات، بين الواحدة والأخرى عشر دقائق يلتقط فيها أنفاسه. مئة دقيقة طويلة لكنّ الأصعب منها الزمن الذي تستغرقه الحشرة المحبوسة في كوب بلاستيكي لتدرك أن لا طريق إلّا للأسفل حيث لحمُه لتنغرِز فيه.

«نبيييل».

نداء استغاثة لكنّه لا يتخلّى عن الرنّة الأرستقراطية المؤكِّدة على المسافة بينهما. نعم هو حفيد العدل الكبير، الوحيد من بين المصريين الذي نال مكانة في هيليوبلس توازي الأجانب، أحد المؤسّسين الأوائل، الرجل الذي شارك في تحويل الصحراء جنّةً. كل هذا جيّد ويدعو إلى التفاخر به لكن فقط أمام المصريين أمثاله، من لم يقرأوا التاريخ، من يُصدّقون الصور بلا تمحيص في ملابساتها. أمَّا هيلانة فبالتأكيد لن يمكنه خداعها، زوجة المتخصّص في السحر والخداع، أمامها تعود الأمور إلى أصلها بلا رتوش.. حفيد مصري عادي لا يحمل من الألقاب إلا أقلّها رفعةً، ناله لقاء خِدْماتِه ولم يصعد فوقه درجة، برغم طموحه، حتّى التصق به مثل سبّة.. العدل أفندي.

يغادر محيط القصر سريعًا على غير عادته، منسحقًا أمام ضحكتها الساخرة من ضعفه. الأميرة وابن العامل البسيط. قصّة لا تكفُّ عن التكرار حتّى عندما تهجر الأميرات القصور التي يحوّلها الفقراء، إمعانًا في الانتقام، إلى خرابات تهيم فيها الأرواح المنفلتة. لكنَّ المدهش أنَّ القصص حتّى وهي خيالية فإنّها تنتج الأحاسيس نفسها كما لو أنّها واقعية. مرّت علاقة نبيل بهيلانة بالمنعطفات والمنحنيات المعتادة في الحالات الواقعية المشابهة.

ترافقه منذ وعى، لا يوجد طفل في مصر الجديدة كلّها تَخفَى عليه هيلانة المُخيفة أو ماريان آكلة الأرواح، لا يخافون مثل أبناء المناطق الأخرى من الأشباح التقليدية.. الغول وأبو رجل مسلوخة وأمّ الشعور، يرونها كائنات مضحكة، لكن ذعرًا يداخلهم لما يتصوّرون ماريان تنطلق في إثرهم، أرواحهم الغضّة وحدها كفيلة بأن تردّ لها شيئًا من الهدوء، قبل أن تعود لجرِّ ساقها المُصابة في أروقة القصر، تخرج من الغرفة الوردية المحرّمة والدماء تنزف منها بحثًا عن فريسة مناسبة، وسعيد الحظِّ الذي يمكنه الهرب منها سيجد مصيرًا لا يقلُّ سوءًا ينتظره، هيلانة تسقط عليه من شرفة غرفتها مثل طائر نَهِم، تصعد به ثُمّ تتركه يهوي متحطِّمًا على الأرض الرخامية. هما بندول ساعة تتحرّك وفقه حياة أطفال الحيّ الراقي.. هيلانة تسقط صباحًا ومعها تأخذ المتقاعس والكسول عن تلبية نداء المدرسة، وماريان تنشط ليلًا باحثةً عن المستيقظ لتسلّيَ وحدتها بمطاردة روحه.

قصص الحبِّ تنشأ فجأةً ولا يمكن تحديدُ أسبابها وتفسيرها، وشرط الاستمتاع بها تجنب محاولة عقلنتِها، وعلى العموم فإنَّ عُمر نبيل وقت غرامه بهيلانة لم يكن ليؤهِّله للتفكير بمنطق...

«طفل في العاشرة.. تصدّق؟!».

هذا ما يؤكّده لأصدقائه عندما يروي قصَّته الأثيرة عن فحولته، والتي يدلّل عليها ببلوغه قبل السنِّ المعتاد. ما زال يقيس إحساسه بالسعادة على شعوره وقتها.. رعشة خفيفة بين فخذيه، بداية الإدراك بأنَّ لرفيقه الساكن رأيًا فيما يمرّ به، ومنذ تلك اللحظة اعتاد مشاورته في القرارات المُهمّة، يُسمّيها ديموقراطية وليست شهوة. وكيف يتجاهله وبتوجيهه تحدّدت معالم حياته، هو من نبهه إلى أنَّ هيلانة ليست مخيفةً بالقدر الذي تصوّره بنت خالته.

بنت الخالة كانت تتفاخر بترك عالم الطفولة بمحاولة إخافة واحد ممّن لا يزالون على عهدته...

«زي كلّ يوم الصبح كان البارون في البلكونة المسحورة، البلكونة تحتها عفاريت متسلسلة، سيّدهم هو البارون، ولا يمكن يخرجوا عن طوعه، إنما الشرط إنه كل يوم وقبل الشمس ما تطلع يقعد في البلكونة ويزعّق عليهم بكلمة معينة فيبدأوا يحرّكوا البلكونة، تلف ساعة يتفرج فيها على الدنيا كلها. لكن في يوم مشؤوم نسي الكلمة، حاول بكل الطرق يفتكر وهو خايف من طلوع الشمس، بس خلاص كان نسي، العفاريت أصلًا كانوا زهقوا منه، فلمَّا اتفكت سلاسلهم انتقموا منه، أول حاجة عملوها إنّهم رموا هيلانة من البلكونة، حاولت تنادي عليه لكن هو كان مشغول في مصيبته، وقعت على بلاط القصر تتألّم لغاية ما ماتت. بعدها راحت العفاريت تجري ورا أخته ماريان.. ومن ساعتها والقصّة بتحصل كلّ يوم، إنّما هيلانة وماريان بينتقموا منّنا».

غير أنَّ هدف المراهقة الحالية والطفلة سابقًا، لم يتحقّق، لسببٍ ما لم يرتعب نبيل من القصّة، على العكس رأى في الصعود لأعلى نقطة في القصر والهبوط منها في حضن امرأة، جميلة بالتأكيد مثلما يرى الأطفال الأشياء، حدثًا لا يقلّ روعة عن زيارة ملاهي الميرلاند. لا يمكن تفسير عدم خوفه من تلك القصّة، لما لم يرتعب من احتمالية تهشّم عظامه على الأرضية، لماذا اعتقد أنّها لن تتركه في الهواء، وأنّه سيصعد معها ليكرّرا الرحلة من جديد؟ لا سبيل للفهم للأسف وإلّا كنّا خبرنا عالم الأطفال وما يتداعى في أذهانهم. غير أنّ الثابت وفقًا لتأكيدات نبيل لأصدقائه أن سيرة هيلانة كان لها لذّة غريبة في نفسه انتبه معها، وهو ابن العاشرة، إلى صدر ابنة خالته الصغير وحلمتيها اللتين تبرزان من خلال البلوزة، تلقائيًّا امتدّ أصبعه ليلمس إحداهما، والفتاة المسكينة أخذتها المفاجأة فلم تفق إلّا وهو يضغطها إلى صدرها، وعلى صرختها تتجمّع الأمهات اللاتي كنَّ في المطبخ حيث يجهزن، كما العادة كلّ يوم جمعة، الطعام للعائلة الكبيرة.

مرّت الحادثة بتواطؤ من النساء، إلَّا أنَّ الشباب اليافعين والمتفاخرين

بذكورتهم لم يرضوا بالسكوت. ابن خالته الذي تمّ معايرته بما جرى لأخته رتّب لانتقامٍ خاصّ، استدرجه إلى إحدى الحدائق...

«بيقولوا انّك كبرت يا نبيل».

وقبل أن يستشفَّ الطفل المزهوُّ بنضجه ما يرتِّب له ابنُ خالته كان قد نزع عنه بنطلونه لتنطلق الضحكات الساخرة.

«أفرّجك بقى على شكل الكبير».

ولم يكتفِ بأن يريَه حجمَ رفيقه الذي أفزعه، لكنّه أجبره على الإمساك به. يأمره أن يقبض عليه بقوّة.

«إيدك طرية وحلوة يا حبيبي».

لم ينطق بكلمة، لم يستوعب ما يدور، لكنّ ضيقه كان من امتلاك ابن خالته هذا العضو الضخم مقارنة بما لديه. الأحجام تثير الحسد حتّى قبل تبيّن فائدتها. التوتّر انتقل إليه من بقيّة الشبّان، وطلب أحدهم من ابن خالته التوقّف عند هذا الحدّ حتّى لا تحدث فضيحة.

«لَمَّا يتعلِّم الأوّل».

امتدّت يده إلى مؤخِّرته التي يعبث بها الهواء البارد، تقبض عليها بقسوة...

«والله الواد خسارة».

ومع الضحكات العالية كان إصبع ابن خالته ينحشر في فرجه...

«صباع بصباع يا روح امّك».

تجربته الأولى مع البذاءة. رافقته الجملةُ بينما يفرُّ باكيًا من الحديقة، والألم في مؤخرته لم ينمحِ بعدها، يعاوده مع أيِّ ضائقة ومعه الجملة برنَّتها المتشفّية. رغب في زيارة طبيب نفسي، يتمدّد أمامه ويقصّ عليه ما جرى،

لكنّ الشفاء يعني ضياع هيلانة، وكيف ينساها وهي من انتقمت ووفرت له الحماية.

أمام القصر استردّ أنفاسه، تمسّك بسوره كطلّاب الحاجات، لم يكن واعيًا، لن ننسى أنّه طفل في العاشرة، ثم أنّه لم ير من أسرته من يدعو أو يستغيث، لكنّها الغريزة التي هدّت الإنسان منذ وُجدَ على الأرض للنداء على الأعلى، ومثل المعجزات الكبيرة في تاريخنا البشري.. نزلت هيلانة من فوق شرفتها، حطّت على الأرض وسارت إليه، بوجه حنون وغلالة شفّافة يتراقص عبرها جسدُها مثل «الجيلي» الذي يحبّه، مسَّدت على شعره، سمحت له أن يمدَّ ويلمس صدرها ويضغط واحدة من الحلمات الواضحة مقارنة بما عند ابنة خالته، وفي حضنها انبعث رفيقه الصغير من مرقده بمتعة لم يتمكّن من التعبير عنها إلّا عندما نضج قاموس مفرداته...

«زهرة تتفتّح».

لم يكن قد بلغه أنَّ وصف «تفتح الزهرة» يخصّ النساء، حكرٌ عليهنَّ مثل آلام الحمل والولادة وعاطفة الأمومة. الرجال لا يتفتّحون كزهرة إنّما يرتفعون كالجبال، وينتصبون بناياتٍ عاليةً، ويطعنون سيوفًا.

ألم يكن مفترضا حسب هذه المعطَيات أن يصير نبيل شاذًّا في مستقبله، الإهانة التي حصلت له وإحساسه الأنثوي الذي تملّكه في حضرة الأميرة، كانا ليربطا شكل المتعة لديه باتّجاه بعينه. غيرَ أنّ ذلك لم يحدث، واردٌ أن يتغلّب الناس على ظروف نشأتهم، لكنّهم، وهم يتجاوزون كالأبطال الحواجز المتناثرة عمدًا في سكتهم، يكتسبون الاختلاف. نبيل تغلب على المصاعب، بقوّة إرادته انتصر على الظروف المجتمعية التي قصدت إصابته بالشذوذ، خرج من الصراع ذكرًا مكتملًا إنّما بحسٍّ أنثوي.

في اليوم التالي لوقوف نبيل على أسوار القصر، وقعت حادثة لابن خالته أجبرته أن يلزم الفراش طوال أشهر نتيجة لكسر مضاعف في ساقه. سيارة

ظهرت أمامه من الفراغ صدمته واختفت. هذا ما ظنّته العائلة، غير أنّ حقيقة ما حدث عند ثلاثة، سمِّيت بأسمائهم قصةُ أطفال منعتها الرقابة تحجّجًا بمحتوًى جنسي لا يناسب من تتوجّه إليهم...

«أميرة القصر والطفل البريء وابن الخالة الشرير».

لم تكن هيلانة في حاجة لأن يسألها نبيل انتقامًا، من شرفتها، حيث تتسلّى بمتابعة البشر، رأت ما يجري في الحديقة، ودّت التدخُّل لكنّها آثرت التمهُّل لرؤية الحدث كاملًا، لو أنّها لم تكن على ذلك الحدِّ من الفضول، لما تعقّدت الأمور، إنّما أيضًا لم تكن لتحدث هذه الدراما. وهي لترتاح من عبء القضية كلِّها لجأت إلى حلِّها على طريقة الحواديت، فرحة باكتشاف أنَّ هناك إمكاناتٍ مختلفةً لكونها شبحًا بخلاف التخويف.. يمكنها امتلاكُ أرواح على سبيل التعويض عن حياتها التي حُرمت منها. نبيل كان العبدَ الأوّلَ الذي اقتنته، ومع أنّه كان مزاجيًّا بما لا يليق بوضعه لكنّها منحته حريةً جزئيةً لسببين. تقديرًا لأنّه تطوّع تقريبًا لخدمتها، ولأنّه ملهِمُ تحوُّلِها، طيبة شبحية تثبت أنّ ما قامت به لا يمكن وصفه بالشرّ فلم تستفد شيئًا من رعاياها الكُثُر، على العكس تقلّصت الأوقات اللطيفة التي كانت تقضيها على الشرفة تتأسّى فيها على نفسها وتُعيد تمثيل سقوطها وصراخها على زوجها البارون ليهبَّ لنجدتها، ووجدت أخت زوجها فيما يحدث حجّة مثالية لتأنيبها على إفساد نظام القصر، فالأتباع حادوا عن رسالتها التي أرادتها روحانية، كالعبرانيّين، لمّا صعدت إلى شرفتها تختلي، عبدوا ما تصوَّروه خوارها ولم يكن سوى غضب أختها من الموسيقى المزعجة وغير المستساغة التي يرقص على إيقاعها العبيد.

إنّما، وعلى الرغم من إزعاج وتفاهة أتباعها، لم تكرههم، صدق نبيل في محبّتها كان يجبرها على الغفران، منذ طارت بابن خالته ورمته أمام العربة، أصبحت حبيبتَه الأقرب إلى قلبه، ترى هذا الحبّ من عبدها فيسرّها، لم تستطع امرأة أن تقترب من المكانة التي يصونها لها، فتنتها.. المقياس

الذي يُصنَّف به النساءُ، هذه لديها صوتُها، وتلك مشيتُها، أو لها جسدٌ يشبه جسدَها. لكنّه في كلِّهن لم يلتقِ من تنطق اسمه كما سمعه منها.. حوّلته لنبيلها الخاصّ.

هذا الحبُّ الطفولي الطاهر، إذا استثنينا تجديفه ورغباته المستعرة أحيانًا في مضاجعة إلهته، لم يعكّره سوى رهبته من ماريان ومع أنّه لم يرها عندما دخل القصر برفقة أصدقائه، لكنَّ صوت خطواتها على البلاط خلفيةٌ مميزة لمعظم أوقاته، تسعى في أثره لإبعاده عن هيلانة. غيورةٌ كسحاقية تكره الرجال وعلى الأخصّ مَن يجاسر بالاقتراب من رفيقتها. ولأنّ الأشياء عادة لا تنفصل، فقد نما حبُّه لهيلانة ومعه رهبتها من توأمِها، وكما استمرَّ الحبُّ استمرّت الرهبة، يقشعرّ بدنه مع أطفاله وزوجته تحكي لهم قصصَها المخيفة، ومع هذا فلم ينفذ ما عاهد نفسه به من أنَّهم لن يعانوا مثله بالكوابيس التي تثيرها أقاصيص تتفنن النسوة الأرستقراطيّات في ابتكارها ظنًّا منهن أنَّها وحدَها الكفيلةُ بإصلاح ما أفسدَه تدليلُ الرجال. للأمانة حاول مرّة لكنّ علامات الاستنكار على وجه زوجته كانت كفيلةً بتناسي عهدِه. تراث مصر الجديدة أحد الأُسس التي تقوم عليها علاقتهما.

من النادر أن تجد رجلًا وامرأة يتّفقان على الزواج لهدفٍ أسمى، ريهام ونبيل هكذا، ويستحقّان للإنصاف أن تسلّط الأضواء عليهما، لكنَّ الإنسانية لم تبلغ بعد عقلًا تتخلَّى به عن رومانتيكيّات لا تُجنَى منها سوى سعادة خرقاء. كانا يُشبعان قصص هذه النوعية سخرية، يتّفقان على أنَّ أصحابها وبهذا الأداء عليهما التناكحُ علنًا ليتمَّا الإطار الحيواني الذي يناسبهما.

ما يجمع ريهام ونبيل أرقى من الحبِّ، ما قيمة الحبِّ بجانب العلم والتاريخ؟ يؤمنان أنَّها كلمة مبتذَلة بما يناسب الطبقات الدُّنا التي تجهل التعبير عمَّا يجمعها والطرفَ الآخر فتسمّيه استسهالًا: حبًّا. الأدقّ إذًا القول.. ارتبط بها، نعم هذا وصف يناسبهما، يناسب حيَّهما، يتلاءم والطريقةَ الكلاسيكيةَ التي تربَّيا بها واتّخذاها منهجًا لهما في حياتهما. ارتبط

نبيل العدل بريهام لأنّها الوحيدة من بين بنات العائلة التي تنافس رجالها في حفظ تاريخ أبنية الحي والشخصيات التي مرّت عليه. علاقتهما تطوّرت بشكل نوعي في الجولات التي قاما بها ضمن عمل خطّطا من خلاله لإعادة توثيق سيرة الحيّ من حكايا أقدم سكّانه، أول قُبلة تبادلاها عندما توصّلا إلى الصلة بين ظاهرة انتشار القطط وبين الأسطورة التي قامت عليها المدينة. لم تكن قُبلةً عاطفية بل قبلةً بين باحثين في مختبر توصّلا إلى كشف علمي. السيّدة العجوز التي كانت تحكي لهما عن التاريخ أوّل مَن نبهتهما بمكر

«انتم شبه بعض كأنّكم متجوّزين»

مشروعُهما غير المكتمل كان الطريق الذي انبنت عليه علاقة حسّية كسّرت ميثاق أخوة ينشأ عادة بين البنات والصبية الذين يتربون في بيوت مفتوحة على بعضها. ملفُّ الأوراق يتضخم وحماسهما يُعميهما عن نقصان تقنيّات البحث العلمي، يداريانه بالاتفاق على أنّ العمل الروائي أقلُّ درجة.. هل هناك من يلجأ إلى رواية كمرجع؟ لولا هذا اليقين لكانا اكتفيا بقصص العجائز التي أضاعا في سبيلها إجازة صيفين من الكلية، ولم يكن ذلك يتطلّب مجهودًا ما، فالقصص حيّة بما يكفي للتغاضي عن الأسلوب، والتقنية، وخلافه.

لكنّ الفشل وجهُه الآخرُ نجاحٌ إن قلّبنا العملة. أصبحا أخيرًا نموذجًا داخل العائلة، كانا ضعيفين في انفرادهما، وسط هوايات يبتدعها بقيّة أولاد العمّ والخال، أحدهم يتعلّم الجيتار مقتديًا بعمر خورشيد الذي يضع له صورة ضخمة في غرفته، آخرُ يسافر إلى أوربَّا من قبل ناديه للمشاركة في بطولة عالمية للسباحة يحقّق فيها المركز الأخير لكنّه في النهاية أعلى اسم حيّه وشارعه في المدينة بأكملها، ولفت النظر إلى عائلة العدل مؤكِّدًا على أرستقراطيّتها.. بفضله حصلت أختُه وإحدى صديقاتها على زيجتين ممتازتين.

نبيل وريهام كانا مضرب الأمثال في الخمول، لا يُثير حماستهما سوى ما لا يُثير الحماسة أصلًا.. القراءة ومتابعة بطولات الشطرنج، وصعودهما إلى بطولة على مستوى الجمهورية لم يُحسّن وضعهما برغم أنَّهما لعبا أحدهما ضدّ الآخر في المباراة النهائية وحصلا على المركز الأوّل والثاني، مَن الذي سيجلس ساعة أو أكثر متسمرًّا أمام اثنين منهمكين في التفكير. مناسبة لم تشغل البال إلّا بعد عودتهما فقط للتأكُّد من صدق التخمينات بأنَّها ستتفوّق عليه.

خمولهما هذا بالتحديد هو ما ساعدهما على النفاذ إلى قلب مصر الجديدة الخفيِّ، لم يصدّهما أيٌّ ممّن طرقوا بابه، فتًى وفتاةٌ لتوٍّهما يغادران عالم الطفولة متشوّفين للتجربة والانبهار، يكسو الحياءُ ملامحهما كمن يطلب إحسانًا.

فيما كان من يقاربونهما سنًّا يتابعون منتجات الانفتاح انشغلا بتاريخ المدينة المعرض للاندثار. تزوجا للحفاظ على معتقداتهما، ونقلها إلى جيل آخر، وإذا كانت المشاغل الزوجية والمسؤوليات ركنت الأوراق جانبًا لكنها ما تزال العماد الأساسي لذكراهما المقدسة. بين الحين والآخر يخرج الملف المحفوظ بعناية، يفتكران هذا وذاك ومغامرة يومها. مشفقًا يتظاهر بالتناسي فلم يبق لها من الطموح القديم إلا ذاكرة تنافسه بها.

ولأن الأهداف الكبرى تذوّب خلافات البشر كما عهدنا في حوادث تاريخية عدة، جاء زواجهما مثالًا، حافظ على نجاحهما الاجتماعي. بعد أن فترت همتهما لمشروعهما وكادا يعودان إلى دائرة النسيان مثلما بدءا، رجعا كمثال.

هما الجملة الأشهر في عائلة العدل والتي باتت تتكرر كثيرًا مع تزايد مشاكل حديثي العهد بالزواج. مع أي خلاف تجتمع العائلة في أحد المنازل لحلها، وسط الصراخ ومحاولات الحل لا بد أن تلفت جلستهما الانتباه..

متلاصقين، تشبك يدها في يده، يتهامسان بين الحين والآخر. ساعتها يجد فيهما أحد المجتمعين ما ينبغي أن يكون عليه الزواج...

«اتعلّموا من ريهام ونبيل»

يبتسمان بتواضع لا يخفي سعادتهما، ونبيل يداري غصة يثيرها سؤال لم يجد له إجابة: لماذا دومًا يسبق اسمها اسمه؟

الأسئلة التي كانت قبلًا تحضه لبذلِ مزيد من التحدِّي أصبحت أثقل من احتمالها. يسير تائهًا لا يملك ردعَ إحساس ثقيل الوطأة يتزايد في الآونة الأخيرة بأنَّ مدينتَه أصبحت ضيّقة ولم تعد تكفيه، لم يعد السير في شوارعها يُريحه وهذا يُخيفه إلى درجة الرعب فهي ليست مُجرَّد الحي الذي يسكنه ومن ثَم مقبرته، مدينة الشمس العنصر الخامس المكوّن له. أبوه دقيق في الحكمة المنقولة عنه...

«مصر الجديدة ليست وطنًا نسكنه، بل وطنًا يسكننا».

التصق المعنى السطحي للاسم في ذهنه منذ صغره، هناك مصران واحدة قديمة وأخرى جديدة، التعالي الذي ينطق به الاسم يراه مبرّرًا وطبيعيًّا، ليست محلًّا للمقارنة مع غيرها، وإن كان فبقدرته التصدّي لأيِّ جدلٍ للبرهنة، مدعومًا بخبرته الواسعة.. يحفظ دروبها عن ظهر قلب، يتبيَّن ملامحَ سكّانها، لهم طريقة خاصّة في الأداء، في الكلام، في تفسير العالم، ليسوا متأنِّقين مثل سكّان الزمالك ولا متفرِّنجين كأهل المعادي، لا يدَّعون التواضع، أقرب إلى الأوربِّيين في مواجهة الأميركيين، يستندون إلى حضارة ثرية، تمدُّهم، أمام همجية الآخرين، بهدوء يحيط بتصرُّفاتهم وانفعالاتهم، فيبدو كما لو كانت وسادة من الهواء تحملهم. لهذا يميز الدخلاء عليها، قدرة طورها بحيث يمكنه التخمين لأيِّ منطقة ينتمي هذا الغريب أو ذاك، ليس فقط من خلال الزي أو طريقة الكلام وإنَّما الأهمُّ من حركة الجسد تلك التي تفرّق بشكل أساسي بين سكّان المناطق الراقية والآخرين، فحتّى

لو أتقن أحدُهم التنكّر من خلال الزيِّ، فإنَّ حركاتِه التي تتّصف عادة بالتوتّر أو المبالغة تفضح انتماءه. إنَّما من الضروري تسجيلُ أنَّ نبيل ليس عنصريًّا تجاه المناطق الفقيرة أو العشوائية، لا يفرِّق بين القادم من الزمالك أو إمبابة، كلُّهم «قاهريُّون»، وفي الآونة الأخيرة بدأت أعدادهم في تزايد مستمرّ، يلاحظ بأسى أنَّ الفروقَ التي كانت واضحة بينهم وبين السكّان الأصليِّين تميع الآن، خاصّةً مع ظهور أجيال لا تكترث بما يعنيه تراث البارون، لم يصمدوا أمام إصرار «الدخلاء» على التخريب.

قضية مصطفى وصلت إلى نبيل متزامنة مع إحساسه بأنَّ لوحة العدِّ التنازلي لحياته قد أُنيرت، كلّ شيء يسير بشكل خاطئ، ويتسرّب منه الوهم الذي كان يتساند إليه. وليست هذه أزمةً عابرة يتغلّب عليها بسهرة حشيش تُعيده إلى المجرى الأصلي، يتسامر مع أصدقاء الطفولة وعقله ينبش المسائل التي ركنها في زاوية مظلمة، ينجلي الغموض فيرجع خفيفًا وسعيدًا ومستعدًّا من جديد لمعايشة الواقع. الركن المظلم في عقله يكتسب الآن مساحاتٍ أكبرَ مُخِلًّا بالتوازن ما استدعى تقارب سهرات الحشيش لتصبح أسبوعية ولا تؤتي التأثير السابق فيلجأ إلى تدخين الحشيش نهارًا في سيّارته متجاوزًا قواعدَ التَزَم بها. بدا أنَّ ما يُواجهه أصبح أكبر من قدرة المخدّر على الشفاء.

مثلما مكتوب علينا الاستيقاظ في الصباح لنصطدم بواقع باهت عكس ما كنَّا نحلم به، كان وصول مصطفى إليه موعد استيقاظه. كان يتهيّب هذه اللحظة، لكن عدم وقوع ما يخافه كان يطمئنه أنَّ مدينتَه وأحلامَه عصِيّة على الانهيار، البارون حصّن حدودها الأربعة بسحرٍ لن ينفكَّ، غير أنّه يبدو وكأنَّ أحدهم نجح في فكِّ سحر أحد الأركان. يبتهل نبيل لروح جَدِّه الأكبر، الذي يتمشَّى في الجنّة مع البارون، أن يتركا الملذّات العُلوية لبرهة ويلتفتا لمدينتهما التي تتهاوى، يلهمانه ما الذي عليه القيام به. يعتبر نبيل نفسَه النسخةَ المعاصرة من جَدِّه، أنّه مَن سيواصل إنجازه.

العدل الكبير كان المصري الوحيد الذي التحق بشركة «مصر الجديدة» كإداريٍّ وليس كعامل. المصريُّ الوحيد بين خمسة وستين موظَّفًا من له حقوق الأجانب نفسها، في حين كان المصريُّون العاملون في الشركة من مهندسين وكَتَبة وعُمّال يركبون الدرجة الثانية من الترام الواصل من وسط البلد إلى المدينة كان هو بين الأجانب يتمتّع مثلهم بفخامة الدرجة الأولى، وعندما بدأت المباني تعلو كان نصيبُه بيتًا في المنطقة الرُّقيَا، وهو البيت نفسُه الذي وُلد وتربَّى فيه أطفال العائلة قبل أن يستقلُّوا في بيوت مجاورة.

لا أحدَ يعلم ما الذي جعله هكذا قريبًا من البارون، فلم يكن عالمًا بالهندسة المعمارية مثل الفرنسيّين والبلجيكيِّين، ولا ماهرًا في الحسابات مثل الألمان والإنكليز، ولكن تخمينات، غير مؤكَّدة، تشير إلى أنَّه كان يتقن فنونًا من سحر فرعوني، الأقوى بين ما أتقنه البارون خلال أسفاره العديدة. لكنّ نظرياتٍ مضادةً تنفي ذلك مستندةً إلى خلوِّ القصر من أيِّ طابع فرعوني، والبديل الذي يفسّر هذا التقارب أنَّ العدل عاون البارون في التغلّب على غضبة الخديو عبّاس الذي طمع في القصر العجيب ولم يرضَ بالبديل الذي لا يقارن به. بعدها أصبح العدل مستشارًا للبارون فيما يخصُّ الشؤون المصرية الدقيقة. لا دليل تاريخيًّا على شكل العلاقة وحدودها، غير أنَّه لا شكَّ في وجودها وقوّتها، وصورتهما معًا أمام القصر وهو في المراحل النهائية لإنشائه، تُخرس المشكِّكين، أثمنُ ما تحتفظ به عائلة العدل، نسختُها الأصلية مودَعة في خِزانة بنكٍ فيما تتوزّع مستنسخاتٌ منها على بيوت العائلة.

تزامن وصول مصطفى إلى قصر الاعترافات، مع اشتداد هجوم الغُزاة على حيه كأنه المدد الذي لجأوا للمهادنة في انتظاره.. عبر زجاج سيارته يراقبهما مستغربًا كأنَّ لصًّا اقتحم عليه منزله في وضح النهار، فتى وفتاة، من منطقة شعبية كما تؤكد ملابسهما الزاهية المناسبة ليوم عيد، تسريحة شعرها وقصة شعره موضة انتهت على الأقل قبل عامين. يعبران الإشارة الحمراء

متشابكي الأيدي مستمتعين بقطرات المطر في حالة مقرِفة من الرومانسية. ناتئين بما لا يمكن من التسامح معهما. يتلفّت حوله إن كان أيّ من جيرانه في العربات المجاورة يسعفه...

«يا سائقي السيّارات المتوقّفة في إشارة «ميدان الكوربة»: الاختراق بدأ في عصرنا بعدما ظلّت الأسوار منيعة مئة عام، نحن مَن سيحمل هذا العار».

لكنَّ جيرانه منشغلون في انتظار لحظة الانطلاق، لن يجد عونًا، معركته وحده. رغب النزول من سيارته وإلقاء القبض عليهما. غير أنَّه ليست من تهمةٍ اسمُها «الترنح تحت المطر»، فليكن، سيتعامل معهما بطريقته.. يضعهما على الكرسي الخلفي وفي الصحراء يصرعهما برصاصتين ثم يُخفي جثتيَهما في قصر سيّده ومعلّمه، لا بل يتركهما هناك أحياء يموتان من الجوع والعطش والخوف.. عبرةً للمتطفّلين. لكنَّه ظلَّ جامدًا، سمح لهما أن يُتمَّا لحظتَيهما مع علمه أنَّ ذلك يعني أنَّ شيئًا لن يعود كما كان، تلك الشوارع لم تعُد له، ستتوقّف المدينة عن منحه أسرارَها، لم يعد له إلَّا مكتبَه يحتمي به حتَّى يصل الغُزاة.. سيكون مستعدًّا، مسدسه على ساقه ويده متحفزة لإطلاق الرصاص على رأسه أو رؤوسهم لا فرق.

في البداية اقتصر تواجد الزوّار غير المرغوب فيهم، على الفترة الصباحية، مواعيد عمل الشركات، بشكلٍ ما يتعاطف معهم.. مجتهدون، لديهم تقاليدُ تدلُّهم على موقعهم، يبجّلون الحيَّ وأصحابه، يتقبّلون أنَّ وجودهم محدَّد بزمن، لا يسعَون لمعجزة تُبقيهم. مثل حبّة الدواء التي فُرِضَ عليه تناولها في الصباح، لحظة مغادرتهم يبدأ مفعول الحبّة، تزول الأعراض وتعود الأمور إلى طبيعتها، يتحمّل مرضه ويتحمّلهم كتكفير يومي عن خطاياه. ارتبط الأمران معًا حتَّى بات يعتقد أنَّهم السبب فيما يعانيه، الشاشة الضبابية التي تسقط أمام عينيه والدفقات الكهربائية الصغيرة التي تجري في جسده، اعتاد التخلّي عنه في الصباح وكأنَّه ليس له، يسيره المرض كيفما شاء في نوبة صرع غير مرئية، لا علاماتٍ لها سوى عبوس يحتلّ وجهه كلّه، لهذا يبدو

صباحًا عصبيًّا فوق الاحتمال. من يعرفونه اعتادوا تجنبه في تلك الأوقات.

يرتخي على الكرسي المريح ويضع قدميَه على المكتب ويريح رأسه، يُغمض عينيه ويترك لخياله أن يسرح به كما اتّفق. يقف في ساحة معركة بعد انتهاء أحداثها، بين الجثث والجرحى، الوحيد الذي كتبت له النجاة لأسباب قدرية، هل اختبأ بينما يدور القتال، وصل متأخِّرًا ولم يعد للأوامر التي يحملها قيمة؟ يتطلّع من النافذة إلى السائرين.. أموات، يملأه إحساسٌ بالنعمة الهائلة لكونه لم يسقط مثلهم، يرفع عينه إلى الأعلى ليتمتم بكلمة شكر لكنّها لا تخرج من حلقه، يكتفي بإيماءة. في تلك الجلسات يستعيد تفاصيل يومه، مشاهد ساكنة يتابعها بلا انفعال.. يتوسّلون وينهارون، الأشباح المُقيّد بها والأمل المستحيل أن تنال الراحة لتتركه. كثير من الآلام مصطنعة لكنّه مؤخَّرًا لم يعد قادرًا على تبريرها والتأقلم معها، يشعر بضيق الطريق نفسه واختناقه الذي يسيرون فيه.

يدرك نبيل العدل أنَّ كلَّ ما يمرُّ به من انهيار تزامن مع وصول قضية مصطفى إسماعيل إليه، يبعد ذلك عن ذهنه تكبرًا وحتّى لا يتحوّل صاحبها إلى شبح جاثم على عقله، لكنَّه لا يملك قدرة كبيرة في تحجيم هذا التأثير، في اللحظة التي وقعت فيها عيناه على ملفّه القابع على مكتبه راودته نوبةٌ في غير وقتها، ومن يومها أصبح مرتبطًا بالكوارث، مجيئه عني فساد منظومته. يصارع خوفه أن يمضي في القضية أكثر ليفاجئه أنَّ مصطفى اقتحم وسرق ونبش البيوت التي تخصّه، هو على الأقلّ كان السببَ الأساسي في انهيار بيت أخيه. يجاهد لتفادي أسئلة حرجة ومؤلمة تردّ إليه مرضه، الذي كان قد أوشك على محاصرته، على هيئة شرسة لم يعتدها: هل دخل بيته أيضًا، كشف أنّ زوجته تضع ميزانية البيت بين ملابسها الداخلية؟ ألهذا ترتسم على وجهه تلك النظرة الساخرة بينما يستجوبه؟

بالمظهر المناسب اخترقنا طبقاتٍ عدّة من المجتمع، لدينا أصدقاءُ في مجالات متنوّعة، منهم رجالُ أمنٍ، علاقة منفعة متبادَلة، نحنُ رجالُ أعمالٍ نملكُ المال وهم يملكون السلطة، يتباهَون بحكي ما يمرُّون به من وقائع. بتنا نسمع عن أعمالنا من وجهة النظر الأخرى، عرفنا أنّنا كدنا نقع في أيديهم أكثر من مرّة لولا الحظُّ.

الحكايات التي أسمعها تساعدني على سدِّ الثغرات.

مصطفى إسماعيل
كتاب الأمان ـ النسخة الأصلية

(11)

راغبًا في الفرجة يستدعي نبيل العدل شهودًا ومتّهمين محتمَلين جُدُدًا، أحيانًا يكون لهم أهمّية في سير التحقيق، وكثيرًا ما يقع عليهم الاختيار لمجرّد إرضاء فضوله. يتحرّق شوقًا لمعاينة كيف يعيش مَن ليسوا مثله، رحلته مع زوجته لاكتشاف مدينتهما حرّكت داخله هوس المقارنة، وإلى أن وصلت إليه قضية مصطفى لم يشكّك مَن رآهم في تأكيد رضاه عن حاله وعما يعتقد فيه، ليس الأمر متوقّفًا على الغرام بالحيّ الذي يسكنه، المسألة أبعد من ذلك بالتأكيد، نبيل ليس بالشخص الطبقي التافه، مثل غيره يلحظ الانهيار الذي يصيب البلد، لكنّ مصر الجديدة بالنسبة له مستثناة، لا يتحدّث بهذا إلّا لنفسه، ولعه بالمدينة لن يكون مفهومًا، زوجته التي قاسمته هذا الولع أنكرته عليه فيما بعد، فما البال بالآخرين، عندما حدّثها عن الغُزاة استمعت له حتّى انتهى ثم طالبته بالحذر من سيطرة المدينة على عقله، ولمّا احتجّ بمشروعهما وحواراتهما حول البارون وعبقريّته، وقسمهما أمام قصره بالوفاء أبدًا لمبادئه، ردَّت مندهشة...

«كنّا صغيرين وبنلعب يا نبيل».

لكنَّه لم يكن صغيرًا ولم يكن يلعب، أو الفرضية الثانية أنَّه سيستمرُّ صغيرًا يلعب. من يومها صنف زوجته في قائمة المندسِّين، عازمًا وهو يراقب تصرُّفاتها أنّه لن يتهاون إذا حانت الساعة في اعتبارها من ضمن

الخونة الذين سمحت تصرّفاتهم وعدم اكتراثهم بفتح الأسوار أمام الغوغاء. في ذلك اليوم اندلع بينهما أوّل شجارٍ منذ تزوجا، لكنّه سارع بالاعتذار إليها، ليس لأنَّه انفعل بلا مبرِّر، أو لأجل أن يظلَّ حبُّهما نقيًّا من الخلافات كما همس في أذنها مع القُبُلات. لا، ببساطة كان يكذب، يلجأ إلى الحيلة لينقذ سمعته التي أحسّ أنّها مهدّدة، ستجتمع العائلة، كما يحدث عادة، لتسوية الخلاف وتقريب وجهات النظر، سيستمعون، كما تجري الأمور في الحالات المماثلة، إلى وجهتي نظر المتخاصمين، لكلّ واحد منهما عشر دقائق، ثم يتحدّث من لديه رأي، وأخيرًا يعلّق أكبر الحكماء سنًّا. بالتأكيد ستحكي قصّة هوسه بالمدينة، ويستمعون مندهشين محاولين السيطرة على ضحكاتهم، لن يحتمل النظرات الهازئة، سيستسلم للجنون مدفوعًا فقط بتوصيفهم لحالته، تخيّل نفسه، بينما تسارع باكية إلى الهاتف تستنجد بأمِّها، مُقعيًا بجوار سور قصر البارون هاذيًا بكلمات لا يفهمها العابرون، أسماء لحيوانات أسطورية، مناديًا من حين إلى آخر على الأميرة هيلانة.

«مجنون البارون».

هذا سيكون اسمه في مدينته، قصّة تحكي عن رجل قاده هواه بزوجة البارون، الأميرة التي ماتت في ظروف غامضة، إلى التعلّق بأسوار قصرها وفقدانه مركز اجتماعي محترم. لم يكن ذلك المصير مخيفًا لنبيل إلى درجة إجادة التمثيل على زوجته ليقودها إلى السرير احتفالًا بتجربتهما الأولى في الخلاف والصلح، كان مرعوبًا أكثر من تشويه القضية المركزية في حياته. أخذه التفكير حتّى نسي مَن تحته، وسرح، ولولا التأوّهات الصادرة منها، لفقد قدرته على التواصل معها، لكنَّها لم تنتبه لانشغال باله، يحاول تأدية دوره كما يجب، مستمتعًا أنّه جاسوس في معسكر أعدائه نجح في غواية واحدة من جميلاته ليعود بالمعلومات المطلوبة. لا عاطفةَ لديه كما ينبغي لرجل يتوقّف مصيرُ وطنه على قوّة انتصابه، مجرّد آلة تروح وتجيء داخلها، لن تطفأ إلّا بعد وصولها لكامل متعتها لتصبح ملكًا له.

«لو اعرف ان الخناق له تأثير جبّار بهذا الشكل كنت اتخانقت معاك من زمان».

على وجهها نظرة ممتنّة، الأولى منذ زواجهما، محاولاته السابقة في السيطرة على سرعة القذف التي يعاني منها فشلت، ومصادفةً يكتشف أن الكراهية هي الحلّ.

منذ زمن يراقب العدل تصرُّفات زوجته لكنّه لم يضعها في إطارها الصحيح إلّا بعد تلك المواجهة، راقب على مدى أعوام كيف استثمرت العلاقات التي كوناها من خلال استقصاء صيفهما الجامعي. راكمت شعبية بين عجائز المدينة أوّلًا ومن ثَم أولادهم، حوّلت كثيرًا ممّن التقوهما إلى أصدقاء مقرّبين لها، تتهادى في نادي هيليوبلس تردّ تحية هذا أو ذاك، وتشكر الله كثيرًا على أنّه منحها هدية محبّة الناس لها، تكرّر أنّ...

«مَن يحبّه اللهُ، يحبّه الناس».

ولا تتوقّف ولو للحظة للسؤال عن الفرق بين المحبّة المكتفية بطرفيها ككائنات مجرّدة من النفعية، وبين تلك المؤسّسة على المصلحة. السؤال صعب عليها، قد لا يرد على ذهنها من الأساس، لا ينسجم مع طبيعة تتسم بقدر كبير من البراءة...

«حبيبي تعال اختار معايا هدية لمحمّد المعبودي صديقنا في النادي، شخص لطيف وجاملنا كتير».

يوافق مكرّرًا جملتها بينه وبين نفسه مستبدلًا كلمة «هدية» بـ «رشوة»، و«المجاملة» بـ«صفقة لمطبعتها». تصنيف الأفعال والأشياء تحدّده تسميتها، والأمور تكون سهلة أو صعبة بحسب رغبة صاحبها، وذلك هو الاختلاف الأساسي بينهما، هو حوّل مصر الجديدة إلى قضية تثقله على الدوام، بينما هي لم ترَ فيها إلّا «مغامرة» و«لعبة».

ربّما لم تكن كلمات زوجته ليصبح لها ذلك المردود السلبي كلّه، لكن خلافهما ترافق مع مروره بذروة لحظة شكّ في قناعاته. حتّى وصلت إليه قضية مصطفى كان مؤمنًا أنّ مدينته تسير على خير ما يرام بدينها الخاصّ، ومَن خارجها يحيا في توهته، وإذا كان مصطفى لم يستطع أن يزحزح قناعاته عن الخير والشرّ، فإنّ شركاءه الثانويّين الكُثُر هم من عبثوا بما يعتقد فيه.. بوّابون، حرّاس أمن، عاملون في محلّات، موظّفون في دوائر الهواتف والبريد والكهرباء، كلّهم يثقون فيه ويمنحونه عن طيب خاطر ما يريد من معلومات، ومن دون أن يطرأ على أذهانهم ولو للحظة السؤال عن وجه استفادته بتلك المعلومات، مع أنّه لا بدّ بالضرورة من الشكّ فيمن يطلبها، لماذا يرغب أحدهم مثلًا في معرفة معدّل استهلاك الكهرباء لشقّة لا تربطه صلة واضحة بمَن يسكنها، أو متى كانت آخر مرّة دفع فيها فاتورة التليفون! لكنّهم لا يأبهون، ربّما كان يُعطيهم مالًا، لكنّ ذلك ليس مرادَهم. نبيل يملك خبرة تمكّنه التفرقة بين أصحاب النزعات الإجرامية، وأصحاب المبدأ، وأولئك جميعًا يشبهون مصطفى، مَن استدعاهم ومَن لهم صلة بقضيّته يملكون شيئًا من روحه، وعناده، وإيمانه بأنّه على صواب.

على هذا كان عليه إعادةُ النظر فيما وصل إليه من خلال أبحاثه، لم يعد يصدّق كثيرًا إحساسَه بأنّ البارون إمبان عمل على تحصين المدينة من نزوع المصريين الفطري إلى التخريب. في البداية اعتقد أنّه نفّذ ذلك من خلال السحر الذي أتقنه عبر حياته في الهند، ثم أسّس علميًّا لنظريّته. لقاءاته التي استمرّت بسكان المدينة بعيدًا عن عيون زوجته، أوصلته إلى واحد من أقدم سكّانها، نقل له حكاياتٍ حفظها عن أجداده، فَهِمَ منها أنّ اختيار المصريين للإقامة فيها لم يكن عشوائيًّا، كانت هناك لجنةٌ مهمَّتها تحديد مدى مطابقة مواصفات المتقدِّمين لما وضعه البارون من شروط. ضمّت اللجنة مجموعة من الأجانب الذين يتحدّثون العربية، وعملية الاختيار لم تكن صعبة ولا معقّدة بحسب ما يُوحي به الحال الآن، كانت المسألة تجري

كالتالي، أحدهم يجلس مع «الزبون» ويُجري معه حوارًا يطلعه فيه على خطّة البناء والأسعار، وخلافه، فيما زملاؤه الذين يبدو أنّهم منهمكون في أعمال أخرى يراقبونه من طرف خَفيّ.. طريقة كلامه، ملابسه، ما يدلي به من معلومات عن وضعه المالي والأُسري والاجتماعي، وسهولة الأمر كان منبعها في الأساس أنّ من رغب في سكنى هليوبوليس في ذلك الحين كان بالضرورة صاحب ثقافة تجعله قادرًا على خوض تجربة حلم العنقاء التي تنهض من جديد.

لم يكن نبيل يخرج من مدينته إلّا نادرًا، يومين في الأسبوع على الأكثر، رحلات تمدّه بجَرعة إضافية من الفخر والإيمان بما يملك. الآن يعود إلى الأماكن نفسِها التي زارها من قبل والخوف يحرّكه، يبحث عمَّا فاته، الآخرين الذين ظنّهم فارغين، المدمّرين، المخرِّبين، ليتّضح أنّهم ليسوا كذلك تمامًا. يوم الجمعة، خصّصه لنفسه يكتشف فيه كيف هي الحياة في أماكن أخرى، يسير بسيّارته على غير هدًى منذ الصباح، يتناول إفطاره في مكان يفضل أن يكون شعبيًّا، السيّدة زينب، الحسين، شبرا. يفضل الأماكن التي لها تاريخ ذو مردودٍ في ذاكرته، لا يحبّ الأماكن التي نشأت خلسة. يُنهي إفطاره ثم يتجوّل باحثًا عن مسجدٍ يصلّي فيه الجمعة. تقلّب بين شيوخ كثيرين حتّى أصبح ماهرًا في تحديد طريقة وأسلوب كلّ خطيب منذ الكلمات الأولى، بل من طريقته في الصعود إلى المنبر، يمكنه التمييز بين المدّعين والصادقين بسرعة. طقس أسبوعي تطهّري يُقبل عليه بإيمان أن... «الجمعة إلى الجمعة كفّارة لما بينهما».

يذهب مبكّرًا ويقضي الوقت في قراءة القرآن، وعندما يبدأ الخطيب في مهمته يُصغي متلهّفًا للحظة الفهم، لكنّه أسبوعًا بعد الآخر بدأ يكتشف أنّ الكلماتِ تدور في فلك واحد. يجلس متململًا في انتظار نهاية العرض، وبعد وقت وجد أنَّ من حقِّه إبداء رأيه فيما يقوله الخطيب ولو بطريقة سلبية، مثل متفرِّج له حقُّ الخروج من دار العرض عندما يملّ. يمشي من

بداية المسجد في الصفوف الأولى حيث يجلس إلى الباب غير مبالٍ بالعيون المستنكرة، يخرج إلى سيارته ينطلق بها هاربًا.

قاد سيارته من مصر الجديدة، إلى كورنيش النيل، الشيء الوحيد غير الموجود في مدينته، لكنَّ ذلك ليس سيِّئًا، على العكس، لا يبدو النيل جميلًا إلّا من الأدوار العليا حيث يقطن بعض أصدقائه، وفيما عدا ذلك فهو مصدر جاذب للتلوّث من كلّ نوع. توقّف عند ميناء القاهرة القديم للحبوب والغلال بشعور أنّه كان هنا عندما كانت السفن ترسو في الميناء والشيّالين يتقاطرون نزولًا منها وعلى ظهورهم أجولةٌ الغلال، فقراء محنيُّو الظهر، يشرف على عملهم رجال شداد غلاظ متأهّبون لأيّ غلطة. خياله يلاعبه، ليس أكثر من أنّه زار المنطقة طفلًا في رحلة مدرسية والشرح السياحي الذي قدّمه لهم مدرسهم المرافق التصق بذهنه. توقّف أمام محطّة تحلية المياه القريبة يراقب أطفال مدرسته وهو بينهم يتعرّفون على صورة الوطن القوي الذي صنعه العسكر. لم يذهب طفله في رحلة مماثلة، استبدلوا هذا النهج برحلات إلى منتجعات يقدّمون فيها صورًا مصنوعة.

ترك سيارته، وترجّل. عبر إلى الناحية الأخرى، مبانٍ قديمة بطرز عربية، أبواب ومشربيّات وبلكونات خشبية، وبجوارها مبانٍ أخرى قبيحة بالطوب الأحمر، سوق للأعلاف والبهارات والبلح، ومعه سوق للسمك. تتداخل الروائح مثيرة عاصفة حسّية اعتادها قاطنو المكان، أمّا هو فتضرب كلّ حواسّه، يختلط بعضها ببعضٍ فلا يمكنه تمييز ما إذا كان يسيطر عليه قرف أم جوع ونهم لأكلة شعبية ومضاجعة مع واحدة من تلك النسوة اللواتي تتأرجح أجسادهنَّ داخل الجلابيب السوداء. انعطف يمينًا وفق إشارة غامضة من ذاكرته ليدخل إلى شارع طويل يمتلئ بورش سيارات، شبّان يبدون غير عابئين يتفحّصونه بنظرات وقحة، انتبه إلى أنّه ما كان له أن يأتي متأنّقًا هكذا، وجوده ينتهك الصورة العامّة، أمام أحد البيوت يجلس أحدهم ويمسك بيده سيجارة، عبر بجواره فوصلته رائحة الحشيش نفّاذة، أصوات خبطات قوية

على هيكل سيارة فارغ تمامًا، يشترون السيارات الخربة ليعيدوا تجميعها، الشجرة التي رآها صغيرًا على سور محطّة تحلية المياه تعملقت، تسكنها الآن مئاتُ العصافير، هل هي تلك التي رواها بيده يومها أم أن الذاكرة تلعب معه ما زالت. أصوات فتيات مرحة تعلو كلّما اقترب ومعها صوت خبطات مياه، هل تصبّ المحطّة مياهها شلالًا يلعب فيه أهل المنطقة، كلّما اقترب يعلو يقينه بأنّه سيرى ما يفسد عليه رضاه غير أنّه لم يكن يملك قدرة على التراجع، أصوات الفتيات نداء غامض يسيره بغير إرادته، تلك الضحكات العابثة، التي تختلط بصوت العصافير على شجرته والخبطات القوية على معادن السيارات تتآلف في مزيج ساحر، لأوّل مرّة لا يشعر بأنّه سعيد الحظّ بما مُنح له أو بالأسى على الأدنى منه. عندما وصل إلى الحنفية العمومية صدق إحساسه، اخترق المشهد روحه، الفتيات يتصارعنَ على المياه، تبلل ثيابهن فتلتصق بأجسادهن ولا يعبأن، تمهّل ليختزن أكبر قدر من الصور، يقدّمن عرضهن في حراسة الرجال الذين يدخّنون ويثرثرون. لم يبالِ بالنظرات، والفتيات اللاتي رأين عابرًا غريبًا متأنّقًا ملسوعًا بالفتنة تخلّصن من الإحساس بعبء الواجب مستدعياتِ طبيعتَهن القديمة.. ساحراتِ الإلياذة، عالماتٍ بأنّهنّ سيُداهمن خياله.. انتقامهنّ الخاصّ المُعدّ لمَن مثله.

لم تكن قضية مصطفى سوى المنبه الذي أيقظ جزءًا من نفسه ظنّه، بعد أعوام من قمعه، غير أصيل، ليعاوده إحساسٌ طفوليٌّ أمدّته به القصص البوليسية، لا تعريف قاسيًا للشر والخير، مجرّد أدوار يلعبها الأبطال لتسلية القرّاء، وكما كان يتنقل صغيرًا بين الدورين يرغب الآن في ذلك، ملّ من تمثيل دور الصائد، الأمر كلّه لعبة...

«الحياة أبسط من ذلك بكثير».

جملته الأثيرة التي فشل في تطبيقها. هناك بعدُ ما لم يره، لكن لم تعد لديه قوّة على المغامرة، على الترحال من حيٍّ إلى آخر، وهو الذي كان اختياره الأوّل أن يكون رحّالة يغادر البلد للتعلّم والاكتشاف، لكنّ هدفَه لم تدعمه

حججٌ قويةٌ تصمد أمام شخصية الأمّ وخططها له. هل تظنّ أنّك ستجدُ هناك امرأةً تهتمُّ بك مثلي. فكرة الابتعاد عنها وعن مصر الجديدة أسلمته لإرادة والده لينتسب إلى دورة تدريبية متخصّصة تؤهّله لينال وظيفة وصفها والده بأنّها الحلُّ الأوسط بين رغبتيهما، وستحقّق أحلامهما معًا.

بعد هذه السنوات التي استقرّت خلالها حياتُه على المبادئ العريقة للأسرة، يأتي مصطفى إسماعيل ليجبرَه على إعادة التفكير في كلّ تفصيلة، للمرّة الأولى يرى الشرَّ كما تخيّله وأراده، أنيقًا، منطقيًّا، لا يرتعد من وجهة النظر الأخرى التي تدّعي امتلاك الحقيقة. احترامه وتقدير اختلافه تسلّل إلى ذهنه.

الاحترام. عنوان حياته كلُّها، أبوه ربّاه على مبدأ...

«احترم نفسَك، يحترمْك النّاس».

لم يوضح قطّ مفهومَه لمبدأ احترام الذات، يكتفي بالتأكيد عليه فقط في أوقات ومناسبات مختلفة تنقل ما يعنيه، تعليقًا على زيّ أو تصرّف يراه غير مناسب، عند حديث أحدهم بشكلٍ غيرِ لائق، الانطباع الذي تكوّن أنَّ المبدأ المقصود منه التصرّفات الخارجية، نوع من الانضباط يخلق النتيجة المرجوّة.. الحصول على احترام الناس. العائلة كلّها تطبق هذه القاعدة بصرامة راهب معتكف، يتناسب مع ولائها التامّ إلى النظام، رجالُها كلُّهم تقريبًا يعملون في قطاعات مختلفة في وزارة الداخلية. يتحرّكون منطلقين من إيمان مطلق.. ساموراي في حماية الملك. لكنَّ معرفة العائلة عن قُرب تكشف الأبعاد الدنيوية التي تسير هذا الإيمان وتجعله دومًا مُتّقدًا في نفوس أفرادها. بمهارة لم يتمّ التخطيط لها قسّمت العائلة إلى فرعين، الأوّلِ يكتفي بالعمل الحكومي وراتبه المتواضع، أمّا الآخر فيعمل في التجارة حيثُ الأرباح الطائلة التي لا تنتهي والمضمونة سلفًا، الخال التاجر مُورِّد البضائع الغذائية الأكبر للوزارة، والعمّ الذي يملك مطبعة فاز بصفقة الملصقات،

وبرغم فشله في حربه الطاحنة للحصول على صفقة كتيّبات التعليمات التي تحتكرها مؤسّسة صحفية، إلّا أنَّ طباعة الملصقات ليست أيضًا بالأمر الهيّن، يكفي أنّها مكّنته من شراء المطبعة المجاورة له بعد إفلاس صاحبها، والانتقال من شقّة إلى فيلّا خاصّة. في عائلة أبيه تتشابك المصالح والأنساب بما لا يمكن فصله إلّا بثورة، زوجته.. ابنة عمّه. وأخوه شريك لعمّ زوجته في المطبعة، شريك خفيّ لأنّه يعمل في الوقت نفسِه محاسبًا في الوزارة، ربّما لا يوجد نصٌّ يمنع، لكن هكذا أفضل، من أجل تحقيق قاعدة الاحترام الذهبية.

ومثلما يحدث في المافيا إن أطعت تنل ما تريد. لا يعرف من أين تأتي الأموال في منزله، ولا أين تذهب، زوجته المسؤولة عن إدارة مطبعة أبيها، تتولّى الشأن المالي للبيت، طلبت هذا بلباقة في بداية زواجهما، ولم يعترض بجدّية، شيء ما غامض جعله يستجيب لرغبتها، وقد تأكّد بعد تلك الأعوام على زواجهما الناجح أنّها على حقّ. يقدّر المرأة التي تعمل، على أن يكون عملًا لا يجرح أنوثتها ولا يحوّلها إلى نسخة أنثوية مشوّهة من الرجل تحارب لأجل فرصة، عمل المرأة جزء من الإكسسوارات التي تتمّ زينتها، لا بأس من تفاخرها به في السهرات واللقاءات العائلية، لهذا فمن الطبيعي أن يستجيب عندما تطلب منه التوسّط لإنهاء أمرٍ ما يخصّ العمل في المطبعة...

«حبيبي فيه واحد سخيف معترض على الشغل اللي بَعَتناه، بيقول مخالف للمواصفات، أرجوك اتدخل احنا كده هنتبهدل، وانت شايف أنا متوزّعة بين الشغل والبيت».

يتصل بهذا وذاك وينتهي الموضوع على خير، ولا تكون مكافأته ليلة جنسية عامرة فقط، لكن مزيد من الأموال ضمن ميزانية البيت في دولابها وسط ملابسها التحتية تحديدًا. بلا سبب لكنّه اعتاد. النقود ارتبطت في ذهنه برائحة جسد زوجته، بالكريمات والعطور، وبرائحة عضوها، هل هي من

الخبث لتعلن سلطتها بهذه الطريقة؟ ذهنه خدعه وأقنعه أنّ ذلك ما كان يحدث أيضًا مع أبيه. إجابات أمّه كانت حاضرة مثل زوجته...

«بشيل من المرتب بتاعك وبتاعي، وبدخل صفقات مع بابا، وربّك مسهّلها لنا».

لم تكن حيلها تنفد من اختراع أسباب لوجود كلّ هذا المال في البيت، فلماذا يدقّق، لماذا لا يكون مثل أبيه سيادة اللواء، وما المانع في أن تكون زوجته كأمّه ابنة تاجر الخضراوات والفواكه المتواضع الذي ترقّى مع زوج ابنته، تزاملت مسيرتهما فربح كلاهما، تسارعت وتيرة الترقيّات هنا وتضاعف حجم المال هناك، والكلّ مستفيد وسعيد.

بعد وقت تصالح مع منطق أبيه الذي رآه من قبل قديمًا وكلاسيكيًّا...

«القوّة أو الضعف، قاتل أو مقتول، لا وجود لاختيار ثالث، الاختيار الثالث كارثة، لم ننزل إلى الأرض لنكون فنّانين، جئنا لنتصارع، والغلبة للأقوى، بلا حسابات.. الحسابات في الآخر».

كان يتعاطف مع سوسن زوجة المستقبل لأخيه الأصغر لكنّه يكتفي بمراقبة جدالاتها التي لا تنتهي مع أبيه، يستفز كلّ منهما الآخر قدر ما يستطيع، أيّام الخطبة كانت تأتي إليهم في مصر الجديدة وفي يدها كتاب، تتسلّى به في الطريق، تقول إنّ المسافة من شبرا إلى بيتهم تعني نصف كتاب من الحجم «المعتبر». أبيه.. سيّد العدل، ظلّ لفترة متمسّكًا بقواعد الإتيكيت في مواجهة آرائها الخادشة لمنظومة التعاليم الأبوية التي تدور وفقها الأسرة، لكنّهم جميعًا، وهم المتمسّكون بوقار المكانة الاجتماعية، بهرهم انطلاقها، هذا ما جذب إليها أخاه. لكنّ الأب لم يصمد أمام الهجوم الجارف الذي تشنّه على قواعده، خيّر ولده بين دفء الأسرة وبين تمرُّدها...

«نشوف لك واحدة من مصر الجديدة تعرف الأصول».

قراءة بسيطة للتاريخ البشري ولشخصية ولده كانت تكفي أباه ليتجنب فكّ أواصر الأسرة، مساحة الاختيار أمام أخيه محدودة، القصّة المكتوبة سلفًا، والتي تعيد استنساخ ذاتها، لا بدّ أن تحدث مرّة أخرى.. المتمرِّد المحكوم عليه بالخروج من الجنّة ليختبر نفسه ورغباته.

هل أخلط الأمور الآن؟ نعم، هذا ما أفعله، هذا ما فعلته دومًا.

ولماذا؟

هذا ما أنا عليه.

مصطفى إسماعيل
كتاب الأمان ـ النسخة الأصلية

(12)

بقوّة منحها لها الغضب ممّا اعتبرته تحريفًا لكلّ الحقائق التي عاشتها طوّحت حسناء النسخة التي اقتنتها من الطبعة الأولى لـ«كتاب الأمان» من شبّاك غرفتها المفتوح، للحظة ثبت في مكانه، يقلّب الهواء أوراقه، يفردُها أجنحة ويجرّب الطيران.. معجزة تثبت خطأ تصوُّرها عنه. لم تهتمّ إن سقط على رأس أحد، تحرّكت مدفوعة برغبة ملحّة منذ بدأت قراءته. يستفزها كلُّ سطر، قبل أن تفرغ من الصفحة يعميها الغضب فتتداخل الأحرف والكلمات، تقرأ قصّة خيالية عن أبيها تصوّره شخصًا آخرَ غير من تعرف، بطلًا رومانسيًّا من العصور القديمة، لا يأبه بالقانون، ضحّى بما يمكنه نيله إذا انصاع لكنّه آمن بفرديّته. تغلق الكتاب وتسرح في مشاهد ماضية معه، كاد الدمع يغلبها لكنّها لم تستسلم وأعادته إلى مُستقَرّه. مرّة بكت ولم تكرّرها، أفاقت من النهنهة على ضياع بعض غضبها الذي تودّ جذوته متّقدة، تنفخ فيها ليضاعف عزمها.

القراءة الأولى للكتاب تركتها مهجوسة بالشكّ إن أخطأت في أحكامها. تنتفض لصوت خطوات في الشارع الساكن، تمامًا مثلما كان يحدث عندما تفاجئها خطواته. أعوام الإنصات علّمتها تمييزها، ثقيلة وواثقة. يفصل بيتهم عن الشارع الرئيسي ما يقرب من مئة متر، في الساعة المتوقّع وصوله ترهف إلى ضجّة العربات، لا تهتمّ بمَن ينحرف منها إلى شارعهم فلن يكون من ركّابها. يترك التاكسي قبل الهدف. واحدة من عاداته التي لم تصل لسرِّها...

«هنا من فضلك».

حازمة وسريعة تجبر السائق على لصق قدمه بدوّاسة الفرامل. المسافة المتبقية.. خمس دقائق مشيًا. الحرّ، الذي أجبرها ذات مرّة على السير فيه قبل الوصول لمرادهما، دفعها لتسأله بحدّة عن تفسير، لم يجبها، وسّع خطواتِه وبجسدها القصير تجاهد للحاق به. بعدها جاءها بكتاب عن الخضر، لم تهتمّ بالمعنى الذي يريده، رغبتها في التحرّر صورته وعدًا بالفراق بعد أن تتمّ أسئلتها الثلاثة، اصطبرت على ما عجز عنه موسى، احتملت بيقين امتلاكها ما يعليها إلى مرتبة الرسل. تواءمت مع رغبته في تشكيلها على هواه، وفي خلوتها تنفض ما يزرعه في رأسها، خلطت بين رغباته ورغباتها وتأنّت على ما تحسّه يتكوّن إلى أن تحقق الفراق وغاب وراء القضبان.

لديها منذ ترجّله ووصوله الدقائق الخمس الذهبية، تكفيها لإخفاء ذاتها التي تتحرّر بعد مغادرته، والعودة إلى ما يتوقّعه منها، تداري المحظور عليها التعامل معه، والتظاهر بقيامها بالواجب اليومي المفروض. طالما استمرّ جريان نهر العربات فهي في أمان، فقط عندما تقف واحدة منها تنتبه، تتحفز حواسّها كحيوان، أكسبها الخوف موهبة الإنصات، تميِّز اصطفاق الباب، حتّى لو صادف عبور الترام بجواره، لكلّ صوتٍ مجال خاصّ يتحرّك فيه، والتدريب يجعل الأذن قادرة على فرز كلّ حركة في مسارها. لن تسمع خطواته مباشرة عليها الانتظار ما يقرّب من الدقيقتين قبل دبّة الخطوة الأولى، بعيدة كَوَهمٍ، ثوانٍ تليها للتأكّد، الدبّة الثانية أكثر وضوحًا، ليست في حاجة بعدها إلى التردُّد، حواسّها لا تجرؤ على خداعها، دقيقة لترتدي ملابسها المرصوصة بحسب ترتيب لا يهدر الوقت، الداخلية ثم واحدة من البيجامات البيتية المعتادة، تدسّ المجلّة، التي اقتنتها خلسة، خلف صفٍّ من الكتب مركون على الأرض. قبل تخطّيه عتبة البيت تكون قد استقرّت وفي يدها الكتاب الذي اختاراه معًا. ومع كلّ خطوة له للأعلى تعمل على ضبط انفعالاتها لئلا يتبيّن أيٌّ ممّا يعتمل داخلها.

برغم الكراهية ما زالت تحيا على هَدي تعاليمه: القراءة الأولى تعارف لا يتعمّق إلّا بلقاءات أخرى، على هذا أعادت التدقيق في التفاصيل، بدءًا من الإهداء الذي رأت فيه ادّعاءً للتبصُّر...

«هل تحبُّ الاطّلاع على نهايتك ثم تقرّر حياتك وفقها؟».

لكنّها في اللحظة التي سبقت فوران مشاعرها لم تستطع المضي وراء عقلانية أبيها في القراءة أبعد، حجم التزييف أكبر من الاحتمال. لم يكن التخلّص من الكتاب بتلك الطريقة سوى وجه لرفضها خلط الحقائق بهذا الشكل الفاضح، تصديقه يعني ببساطة أنّ أفكارها خاطئة وذلك ليس صحيحًا، ولتعش كما تهوى فلا بدّ من تصحيح الخداع الذي قام به هذا الـ «خالد».

عاد وهي على أعتاب السابعة عشر، صحت من نومها ورائحة ذكورية تقتحمها.. واقفًا في منتصف الصالة، مشدودًا كرمح، الإضاءة الخافتة لم تمكّنها من رؤية ملامح وجهه جيّدًا، لكنّه متعب، إحساس تسلّل إليها من ملابسه التي تبدو عليها آثار رحلة طويلة، والحقيبة الملقاة أسفل قدميه، أليست نفسها التي صاحبته يوم غادر، أليس المشهد نفسه. طفلة فطِنة تستوعب ما يدور حولها.. أمّها ترنو إليه بتوسّل أملًا أن تردّه رومانتيكيّتها عن قراره. هل تتوسّل إليه الآن ليعود من حيث جاء.

سبعة أعوامٍ كاملة لم يتعكّر فيها صفو الهدوء الأنثوي. بيت محرّم على الرجال...

«لسنا في حاجة لأحد».

جملة أبعد من مجرّد كبرياء أنثى مفجوعة، بدا نذر رهبنة والبيت ديرهما، تعتكفان إلى أن يأتي يبارك صبرهما ويفكّ صومهما. انتبهت إلى أنّ الزرَّ العلوي لبيجامتها مفتوح، شبكته محاولة أن تبدو طبيعية. أبوها.. توصيف العلاقة لن يتغيّر مهما تباعدت السنوات. هل هو حقًّا! ألا يجوز

أن تكون مخطئة؟ يتّحد الظلام مع الزمن لخداعها، أحد أقاربها مثلًا قريب الشبه به، وإلّا، فلماذا لا يفكّ الشوق جمودها؟ أليس من المفترض، في موقف كهذا، أن تتملّكهم سعادة فطرية تنتج كوكتيلًا من العناق والقبل والدموع؟

إن كان في قصّة أبيها ما يستحقّ إعادة حكيه، فهي الأحقّ به، تعرفه أفضل من أيّ أحد، أحسن ممّا عرفته أمّها، المسكينة التي لم تفهم قطّ لماذا رحل، لماذا انقطعت أخباره منذ اليوم التالي لهجرته حتّى فاجأها أمام الباب بالحقيبة التي غادر بها. هل هي إشارة تعمّدها ليوحي أنّ الأمس هو اليوم، ومثلما تجاوزت الحقيبة التجربة، وعادت كما ذهبت، فهم مثلها قادرون على العودة أسرة سعيدة.. لكن مَن يقبل؟ خفق قلب أمّها خوفًا على جسد وروح اعتادا سكينة الوحدة، تماسكت يوم رجع، لكنّها لم تتمّ العامّ إلى جواره.

«والدتك توفت».

جالسًا بكامل ملابسه في البلكونة وأمامه كوب الماء الدافئ الذي يفتتح به صباحه. منذ الليل تحلم بلوحة...

«في جلسته تلك، وهي أمامه تهرب من تفرسه بالتحديق في الماء الذي ينقص كلّ دقيقتين مقدارًا صغيرًا أو بتأمّل العابرين القلائل، والعربات.. مرسيدس، تاكسي، بيجو قديمة يُخيّل لها أنّ بداخلها طفلة تلوح لها من وراء الزجاج، الزجاج القائم بينها وبين أبيها والذي يتحطّم في صباح تشمّ فيه رائحة الشتاء القادم بعد صيف حارق».

لكنّ الحلم لا يتحقّق منه سوى الجلسة، ورائحة الشتاء، أمّا الزجاج البارد بينهما فيتضاعف سُمكه، يكتسب مناعةً ضدَّ الرَّصاص، يصوّب عليه قنّاصة طيّبون من أعلى سطوح البيوت المجاورة فيرتدّ إليهم، تذكرة لمن تراوده الشهامة وحيل بينه وبينها.

«ماتت وهي نايمة».

ينقل إليها الخبر كمذيع نشرةٍ يقف على الحياد من كلّ الأطراف، تاركًا لها فهم ما تشاء من التقرير. أصابها الذهول من طريقته وليس من الخبر، انسحبت من أمامه بلا تعليق والخوف يربكها. منذ الآن لم يعد هناك مَن ينشغل به عنها. مضت إلى غرفة أمِّها بأمنية مستحيلة، ألا يمنعها لقب «الراحلة» من عونها.

ممدّدة على سريرها لا يبدو على وجهها ملامح موت. تتأمَّلها بإشفاق، تجلس بجانبها على طرف السرير، ترتّب شعرها، هل يليق أن تذهب بملابس النوم، إلى أيِّ مستوًى وصلت الآن؟ لم يصدمها موتها، توقّعته، فعلٌ منطقي تتمّ به رهنها حياتها له بلا حسابات. في العامين الأوّل والثاني لغيابه أخلصت لحبِّها، والذكريات التي خلّفها كَفَتها. تحكي عن.. بطلها، الرومانسي، المخلص، الموهوب. تفاصيل يعاد سردُها بالأسلوب والنبرة أنفسهما، لكنّ بعض الوقائع والتواريخ تتغير فيما يشي بذاكرةٍ تستسلم بمعدّلات متسارعة، أو أنَّ الأحداث ليست حقيقية بالكامل والوهم يمرح في تفاصيلها. في العام الثالث بدأ مؤشّر حماستها في النزول تدريجيًّا، تتوقّف في منتصف حكاية وكأنّها تُعيد التفكير، ويبدو أنّها اتّخذت قرارًا مع حلول العام الرابع.. قرّرت إلغاء الاحتفال السنوي الذي تقيمانه في ذكرى غيابه، لم تعد هناك طقوسٌ خاصّة، لم يعد «الرابع من سبتمبر» إجازة رسمية من العمل والمدرسة، صورته المعلّقة في بروازها الذهبي لن تنزل من مكانها بعد الآن لتُضاء أمامَها شمعات تُشير إلى عدد أعوام الغياب، ولا مزيد من الأدعية والابتهالات تطلب ردّه.

«لو عاوز يرجع.. كان رجع».

كلمات حاسمة أغلقت باب المناقشة وكلّ سيرة له. قرار غاضب من زوجة استيقظت كرامتها بعد إدراك أنّه لا مبرّر لتأجيل حفل التأسي، تهجر

دور المحبّة، المنتظرة بإخلاص، وتستبدله بأداءٍ رومانتيكي ممطوط عنوانه «الزوجة المهجورة» بلا اهتمام أنّ طقوس استحضاره كانت الرابط الوحيد مع «متفرّجها» المثابر.. ابنتها، التي نسيت أنَّ لها في مأساتها نصيب.

تتأهّب حسناء لجدولها الليلي الذي أعدّته منذ دخوله السجن. تنتقي من المكتبة ضحايا اليوم: «مئة عام من العزلة»، «السائرون نيامًا»، «السكّرية»، «الأبله»، «طوق الحمامة»، «ما وراء الخير والشرّ»، ديوان لأحمد عبد المعطي حجازي، وآخر لمحمود درويش، وأخيرًا «الحبّ في زمن الكوليرا»، قاومت شعورها الشخصي بكراهية تلك الرواية.. أحمق ليصدق أنّ هناك مَن يهب عمره مترقّبًا امرأة، والأدهى تلك النهاية الساذجة: رجل وامرأة في السبعين يبحر بهما قارب في البحر. لم تستوعب التقديس الذي يحيط بذلك العمل. تقبّلت مولودًا بذيل، ووجدت مبرّرات لتسمية العالم ماكوندو، لكنّ هذه لا وألف لا إنّما وعيُها يجعلها تدرك أنّ الهدف الإنساني وراء مشروعها لن يتحقّق ما لم تنفتح على كلّ الأذواق.

بمهارة اكتسبتها من عملية تقطيع تدخل الآن يومها الأربعين تنزع الأوراق عن الأغلفة السوداء للكتب المختارة، ثم ترميها عارية إلى منتصف الحجرة، لتقبع بجوار «كارتونة» كبيرة، العاشرة التي يأتيها بها البوّاب لتضع فيها الأوراق الممزّقة. أعادت الأغلفة إلى أماكنها. تبتسم بتشفٍّ أمام الحروف الذهبية المكتوب بها العنوانُ، واسم المؤلّف، ثم اسم أبيها الذي حرص على إضافته كأنّه شارك في التأليف. تأخذ الأغلفة الآن حيّزًا أقلّ. أعضاء ذكرية فقدَت انتصابَها بعد معركة حامية. لا انتصاب بعد الآن، دماؤها تنسال من المكتبة إلى الأرض، سيعتبرونها قاتلة وتلحق بأبيها ليتمّ عليها دروسها.

خطتُها المبدئية كانت التخلّص من الكتب، إيجاد مساحة بعد أن عاشت مدفونة وسطها، تعمل على حلّ المشكلة التي عانيا منها، يعيشان ضيفين على الكتب. منذ وفاة والدتها اختفى تحذير تغوّل الورق على حساب

وجودهم. غير أنّها تردّدت كثيرًا قبل حرقها أو تمزيقها، برغم أنّها أرغمت على التعايش مع أبطال هذه الكتب، لكنّها تتعاطف معهم الآن، سجنوا مثلها، زملاء زنزانة خفتت حدة بغضها لهم مع غياب آمر السجن. على هذا جاءتها الفكرة الممتازة، حلًا وسطًا بين الإحراق والإبقاء.

تُكوّم أمامها كلَّ ليلةٍ عشرةُ كتب، وعلى إيقاع الأغاني والموسيقى المحرّمة، تحرّر الورق. تنتقي صفحاتٍ بعينها من كلّ كتاب، خبرت من قراءاتها ما عليها اختياره، في ذاكرتها تقريبًا الفقرات التي عليها لضمها لتتمّ كتابًا من ألف صفحة، تمزّق ما لا تريد قطعًا وترميها في «الكارتونة»، تخلط الأوراق المنتقاة، مرّة واثنتين وثلاث، ثم تُعيد الترتيب مع الأوراق المختارة من الليالي السابقة، تضعها في غلاف أسود...

«الحقيقة النهائية».

وتحت العنوان وبحروف أبيها الذهبية...

«حسناء مصطفى إسماعيل».

ليس صحيحًا أنَّ الحياة فريسة وصائد، هناك احتمالاتٌ عديدةٌ في المسافة بينهما.

مصطفى إسماعيل
كتاب الأمان ـ النسخة الأصلية

(13)

«نلتقي في الخامسة عند محلّ البودي شوب».

وقفت عند ما يناسبني، أمام محلٍّ يحتفي بالفحولة.. ولّاعات وساعات ضخمة، وأحذية جلدية غليظة، خواتم فضية تتوّجها فصوصٌ محفورٌ عليها ثعابينُ وتماسيح. علاقتي بحسناء نمّت داخلي حسًّا ذكوريًّا لم أعتده صارخًا هكذا، أتأمّل المعروضات متردِّدًا في اقتناء أيّ منها، وأرقب الممرَّ محاولًا تخيّل هيئتها هذه المرّة.. محجبة أم سافرة، شقراء أم سمراء، خجولة أم متحدِّية؟ لم نلتقِ منذ شهر ونصف الشهر وهي فترة كافية لتتبدّل.

لم أفكّر أنّها قد تستخدم المصعد وليس السلم الكهربائي كما اعتدنا إلّا في اللحظات الأخيرة وعندما أصبحت بجواري تنظر ما يستهويني. لم تكن في حاجة للتعليق، الحركة النسوية حقّرت الذكورة فأصبحت الأنوثة قيمة أعلى من دون بذل المجهود المطلوب للارتقاء.

تتمهّل داخل محلّها المفضّل. منها تعلّمت أنّ المرأة ليست جزءًا واحدًا، كلّ قطعة لها استقلاليّتها ومنتجُها الخاصّ، اليدين والذراعين والبطن والنهدين والساقين وما بينهما والردفين، وما ينفع لهذا لا يستقيم مع الآخر، هناك منتجات للتنحيف والتسمير والتفتيح والتقشير. تتبدّل وتختلف من حين إلى آخر، تتصرّف كمطارد حَذِرٍ لا يبقى على هيئة واحدة طويلًا التغيّر الذي تجريه لا يحدث فقط على مستوى الشكل بل يصحبه الاختلاف الذي

يعوزه في التصرّفات، كشقراءَ عليها أن تبدوَ تافهةً بعضَ الشيء ومعتمدةً أكثر على أنوثتها، أمَّا النظّارة الطبّية فيناسبها الحشمة والجِدّية. من الوارد أنّها تتبع جهةً غامضة مثل التي كنت أعمل بها، زرعتها في عالمي بعد نشر الكتاب، لكنّي لم أخمّن على وجه الدقّة المُهمّة المُكلّفة بها.. قتلي؟ ولماذا وبماذا؟ وهل هذا في حاجة لتلك الألعاب؟ أم أنّ الأقرب أنّهم يرغبون في تشويه صورة مصطفى وأنّ ذلك سيكون أعظمَ تأثيرًا لو قام به من أوجد الأسطورة. ريبتي فيها أفضل لي من القناعة بأنّها تقدّم على تلك التحوّلات لاضطراب نفسي، هذا مخيف أكثر من كونها قاتلة، كنت منبهرًا في البداية بأسلوبها، لكنّه الآن سبب يدعو للكراهية، أفتقد الاستقرار، أنا رجل من شبرا، المنطقة التي تحتفي بالثبات والتقاليد، ومهما ادّعيت من رفض لهذا إلّا أنّي أعلم يقينًا أنّه جزءٌ مني، ثم إنّ مجرّد التفكير في الوقت والمال الذي تنفقه في تلك التحوّلات يُرعبني، ما الذي يمكن تخيّله عن إنسان يقضي معظم ساعات يومه أمام المرآة ليُجريَ عمليّاتِ تجميلٍ مصغّرة على نفسه، كيف لم تجنّ إلى الآن؟

نجلس في أحد الفنادق الفخمة. لا ترتاح إلّا في الفخامة، مرّة واحدة قبلت الذهاب إلى مقهًى أحبُّه، لكنَّها لم تتحمّل مشاهدَ الحُبِّ الرخيصة التي تجري حولنا، ولا النادل صاحب النظرات الوقحة. قلت لها إنّ المكان سيرحّب بها إن تنازلت عن برجوازيّتها الزائفة، لكنّها كوّنت انطباعًا لن يتغيّر دفعها للاستهانة باعتزازي الانتماء إليه ولم يقنعها أنه مقصد لكثير من الأدباء والفنّانين، قالت بترفُّع إنَّ هؤلاءِ ليسوا مَن تحب السير على خطاهم.

حالما تجلس، تخلع حذاءها وتُسند قدمَيها على الكرسي المُواجه وتضع المجلّة على ساقها موزِّعة وقتَ الجلسة بيننا، لا تكاد تشرب شيئًا من كوب العصير، لا يمكنني التصرُّف بالإيقاع الهادئ نفسه، ينتهي مشروبي قبل أن أدرك طعمَه. ذاتَ مرّةٍ أطلعتني بخبثٍ على أحدِ الموضوعات التي تقرؤها في مجلّاتها يفيد بأنّ طريقة الرجل في احتساء مشروباته تؤشّر على

أدائه الجنسي، الكيفية أو المدّة. معلومة بنيت فوقها آمال، وجاهدت في التباطؤ عند الاحتساء لإثبات الجدارة.

عندما كدتُ أنسى الأمر أخيرًا وجدت نفسي مضطرًّا لإعادة حكي القصّة، مستبعِدًا تفاصيلَ جوهريةً ضمّتها الطبعة الأولى من «كتاب الأمان أعود إلى الأوراق التي دونتها، تلك التي اصفرّت وضاعت بعض حروفها، فيما الآخر يبدو، من فرط السرعة التي تحاول أن تسبق النسيان، غير مفهوم، غير أنَّ الخيال يسعفني في تخمين المنقوص. أستعدُّ لإصدار طبعة ثانية من الكتاب، هذه المرّة مضافًا إليه رؤية ابنته وفق المعايشة، عرضت مساعدتي في توضيح الغامض، وكشف المزيد من الأسرار شريطة ألّا أتقيّد بما كتبت سابقًا مهما بلغ حجم التناقض، انجرفت إلى ما تريد مستمتعًا بحصافتها وقدرتها المدهشة على الاستنتاج والربط بين الأحداث والشخصيّات واستيعاب حركتها لتخمين تصرُّفات وحوافز مغايرة لما كنت خلقته لها، تضيف تعديلات على شخصية مصطفى لتمنحها بُعدًا إنسانيًّا يخلّصها من الطابع الأسطوري الذي أضفيته عليها. أبحث في الأوراق الأصلية عن جمل وإشارات تخدم تصوّرها ليبدوَ وكأنّي مُجرّد مدوّن أجير تُملَى عليه قصّة لا واقع لها، تستجيب أحداثها لطموحاتها وأحلامها ورؤاها حول ما ينبغي أن يكون وليس ما كان.

لا تقلّ خطورة عن أبيها. تعادل الخبرة التي يمتلكها، في مقابل حداثة عمرها، بسحر أنثوي قادرة على توظيفه بلا تكلّف، تشعر أنّك قادر على وضعها في جيبك لاستخدامها وقتما تشاء، لكنّها مع الحجم الضئيل والبراءة المنطبعة على ملامحها تملك صلابة توقفك عن التمادي في استغلال ضعفها، لتدرك، إن كنت حَسنَ الحظّ وقبل فوات الأوان، أنّ ذلك الضعف ما هو إلّا قدرة هائلة على التخفّي، مثلما كان أبوها يقول مقتبسًا عن «فنّ الحرب» أحد أناجيله...

«عندما تكون قويًّا تظاهر بالضعف، وعندما تكون ضعيفًا تظاهر بالقوّة».

نجلس وسط مجموعة من العرب يعلنون عن هدفهم بوضوح.

«موسم التزاوج العربي».

علّقت بلا اكتراثٍ على الهياج الذي شاب صوتَها والفرح الشهواني في عينيها، تتحدّث باسم المتواجدين. لا يمكن تفادي تخيّل أنّ أيّ واحدة من تلك الصبايا ستتعرّى بعد قليل لأحد هؤلاء الرجال. الفتيات يعلن عن مهنتهن بفخر الغواني، يفتعلنَ الحركاتِ والضحكات ويطلن النظرات، استعراض بلا ابتذال، ربّما لأنّه ما زال الصباح، الوقت المُقرّر للطيبين. لماذا لا يجرؤ الأشرار على خرق هذا العُرف؟ هل ستحرقهم الشمس مثل مصّاصي الدماء...

«تعرفي إنَّ معظم سرقات والدك تمت في النهار وليس مثل بقيّة خلق الله من المجرمين».

مطّت شفتَيها، منشغلةً بكلِّ حواسّها في متابعة لعبة الصيد الدائرة...

«البنت هذه ستذهب مع الشابِّ أبو تي شيرت أسود».

دقائق وخرج الشاب وتبعته الفتاة، وعلى وجه حسناء ارتسمت كلّ علامات الانتصار الممكنة. وقبل أيّ تعليق مني جاءني سؤالها...

«تفتكر «الشرموطة» ممكن تستمتع بمهنتها ولا الموضوع بيبقى شغل وخلاص؟».

صدمتني كلمة «شرموطة». تتعمد الفجاجة لتبدو جريئة، تحتمي من القسوة بالتدرُّب على العنف. مُدَّعيًا البراءة حكيت لها عن تجربتي مع الجنس مقابل مال، كان الموضوع باردًا بشكلٍ لا يطاق.. تعرَّت في لحظة، طلبت أن نفعلها على الفور، رافضة أن أقبلها، وبعد إلحاح وافقت على قُبلة سخيفة بلا طعم. لديها حبيب تحتفظ له بقلبها، والقُبلة واحدة من مظاهر الحبّ كما تعتقد، عاملتني وكأنّي أجبرتها. سمعت باهتمام ثم عقبت...

«غبية».

لم يكن ذلك التعليق ما انتظرت، وتمادت مؤكّدة عليه... هذا كان في زمن الرومانتيكية قبل أن تفصل المرأة بين الجسد والحبّ، مثلما انتهت إلى الأبد قصّة الشاعر الباحث عن الفضيلة في الجسد المُدنّس. البورنو في أوربّا يكاد يصبح مهنة مثل أي مهنة أخرى، بالطبع ستظلّ الدعارة صناعة مرفوضة أخلاقيًّا أو على الأقلّ نتظاهر بذلك، بينما الجميع يشاهد أفلامها، ولا مانع إن جاءت فرصة للمضاجعة، ثم يعود إلى بيته وحياته «الشريفة». داعرتك تلك طراز قديم، أو ربّما كانت تؤدّي دورًا أمامك لأنّها خمّنت، وأظنّ تخمينها صحيح، أنّك رومانسي، وصراحة لا أفهم كيف تجنبت فخ... «الداعرة الشريفة».

قالت مستمتعة بأمارات الضيق التي ارتسمت على وجهي. صغيرة لدرجة لا تعي معها أنّ ما يقال يترك أثرًا أبعد من قصده.

كنت أتأهّب لترك الكتابة والبحث عن مجال آخر، لكنّ طمعي فيها فرض العودة إلى نقطة الصفر في علاقتي بمصطفى وعملي. هبطت على رأسي من الفراغ، طلبني الورقي لأمر عاجل...

«يا ريت نتقابل في مكتبي على وجه السرعة».

الجملة التي يؤكّد على كلّ حرف منها عندما يكون لديه ضيفٌ يهمّه.

قاطعت حديثًا ظننت معه أنّهما يعرفان بعضهما، غير أنها قبل انصرافها تبادلت رقم هاتفها معه. قال لي وهو يومئ ناحيتها...

«شكلنا هنطلّع طبعة تانية بمعلومات جديدة».

فيما بعد انتابني الذهول من رأيها في الورقي، في تطلّعاته الطبقية، لم أصدق أنَّ هناك من يملك جرأة تحليل شخصيات التقاها لمرّة واحدة. ومع

أنّي لم أكن مقتنعًا بالكثير من آرائها حول الناس، ولم أسترح لأحكامها التي تحدّد بها كيفية التعامل معهم، لكنّ تلك الطريقة تكسبها الكثير، تصبح فورًا مركزًا له ثقله في أيّ تجمّع، تتبلور المواقف حولها، ولم تكن تأبه كثيرًا إن كرهها أو ناصبها العداء أحد، اعتزازها الزائد بنفسها يمدّها بثقة أنّ ما تفعله صحيح وغير قابل للنقاش لمجرّد أنّه يصدر عنها.

لها جرأته، قدرته على تكوين الصداقات وتوطيدها مستفيدًا منها ودون تحمل أعباء. هل يمكن أن تكون الجينات بهذا الخبث، تواصل تأكيدها على التشابه برغم تمرّد صاحبها على المصدر الأساسي! لم أستطع، برغم محاولاتها، إبعاد ظلّ أبيها عن علاقتنا، التشابه الذي يجمعهما أكبر من محوه بالكلمات. قلت لها إنّي أرى أباها في عينيها، فردت بأنّه لا يعنيها في شيء، وأنّ الجينات التي تسربت منه إليها لا تقيّدها، بل تحثّها على مواصلة التحرّر منه. لم تكن تخفي غضبها منه، أنّه تركها صغيرة في رعاية امرأة ضعيفة، وعندما عاد تجاهل أنّ عليه تعويضَها بالحنان، لم يكن أبًا بل أستاذًا صارمًا، على تلميذته الإيمان والتسليم بلا مراجعة، ونسيان ما تظنّه وتريده. أورثها غضبها منه نفورًا من الرجال الذين على شاكلته، ربّما لهذا بقيت علاقتنا مغلفة بطابع التحدّي والتوتر. ومع إيمانها أنّه تمّ خداعي إلّا أنّها ظلّت تردّد بأنّه ما كان لي أن أقع في الفخّ، وأخدع الآخرين مثلما خدعني.

«انت بالتأكيد عارف إن روبن هود شخصية وهمية..

فطنت لما ترمي إليه، اعتدت بعد مناقشات عدّة طريقتها في هدم ما كتبت، طريقة ممنهجة أكدت لي شكّي في انتمائها إلى جهةٍ ما تلقّنها كيفية التعامل معي...

«لا نسبة وجوده تساوي الشكّ، وهذا يصبّ في مصلحة من يدّعي أنّه شخصية حقيقية على قاعدة أنّ الشكّ يفسّر لصالح المتّهم.. وهذا لو اعتبرنا بأنّه متّهم بأنّه شخصية خيالية».

«غلطان.. معظم المراجع عنه أعمال أدبية، وأظنّك توافقني على أنّ الحذر واجب في الاستناد على الأدب في دراسة التاريخ».

«طيب، وإن كنت غير موافق على طرحك لأنَّ هناك كلامًا عنه في روايات مؤرّخين، إنّما أنا لا رغبة عندي في تحويل الجلسة إلى منتدى نقاش تاريخي.. إيه المقصود؟».

«إنَّ تفسيرَك لشخصية مصطفى إسماعيل وتصرّفاتها مستندة على نظريّتك العجيبة «الرجال المبتهجون» ولمَّا كانت شخصية روبن هود غير واقعية، فالنظرية باطلة، وبالتبعية يكون تفسيرُك للشخصية باطل».

«حتّى لو افترضنا أنّ كلامَك صحيح، إنّما هذا لا يُلغي صحّة النظرية، أنا لم أخترعها، هي موجودة في علم النفس كأحدِ المبرّرات لأفعال الرجال».

اتّفقنا على أنّنا.. كأنّنا التقينا في زمنٍ آخر. وصدقنا، مع أنّها جملة خادعة، وسيلة فقيرة لردم فجوات من شأن إدراكها إلزامنا بفصم العلاقة. يبدو غريبًا كيف توثّقت علاقتي بحسناء بتلك السرعة، كان لا بدّ من الانتباه إلى أنّ هناك شيئًا ما خاطئ، أنّ الاتفاق الظاهري حول موضوعات ما لا يعني بالضرورة أنّ أصحابها يمكنهما أن يكوّنا علاقة جيّدة وخاصّة إن كانا رجلًا وامرأة، والأهم أنّه كان عليّ إدراكُ أنّ ظروفها قد تؤهّلها للارتباط بأوّل شخصٍ لديه الحدُّ الأدنى من الشروط التي تبحث عنها، سجينة مفرج عنها بلا استعداد، حوادث مزعجة، ومستقبل غامض لا معطيات حولها تساعدها على وضع افتراض له، لكنّها وبجانب كلِّ ذلك تملك طاقةً لا تخبو للاكتشاف، لديها مرونةُ التغيُّر وقدرتي على ملاحقة ذلك بطيئة.

ما الذي يجمعني بحسناء؟ أبوها، السيّد مصطفى إسماعيل، اللصّ الفيلسوف، أو الفيلسوف الذي انقلب لصًّا، لا فرق، الفلسفة الحقّة تقودك لخرق القانون. هو وفلسفته وجريمته القاسم المشترك الأكبر بيننا، ليس مؤثرًا أنّي أحبّه وهي تكرهه، فما يوحّدنا لا يفرّقنا.. أليس كذلك؟ وما

جمعته السماء لا يفرّقه إلّا الموت. مصطفى الخاتم المنقوش عليه اسمانا، وكأنّ تمرُّدَه كان لأجل ذلك فقط، الهدف الوحيد الذي أراه نتج عمّا ارتكب.

خبرتي في الرياضيّات محدودة، ويبدو أنَّ النساء ينجذبن إلى العقل الرياضي، هكذا تغلّب الأستاذ عليّ وفاز بقلبها متخطّيًا حاجز السنِّ، لا أتصوّر كيف سيفيده عقله الرياضي في مضاجعتها لكن لا بدّ أنّه سيجد حلًّا ما. أستعير الرياضيات الآن لإعادة تقييم ما حدث. أنا وهي معادلة، أبوها قاسمُها المشترك الأكبر، ولم نعدم قواسم مشتركة صغرى متعدّدة. أنا كنت مثلها سجينًا، وربّما لعدد الأعوام نفسه، بالطبع أنماط السجون تختلف كما سجانوها وطرق التعذيب، سجنها شقّة فخمة قريبة من شارع الطيران في مدينة نصر، وسجني.. قصر يبعد عنها مسيرة الساعة تقريبًا، أمّا المفارقة فتكمن في أنّ سجّانها تحوّل إلى واحد من مساجيني. لكنّي لم أكن سجّانًا، كنت مُقيّدًا إلى كرسيٍّ أمام خشبة مسرح لا تنزل ستائره، يأتي الممثّلون واحدًا وراء الآخر ليحكي قصّته، لا ترتيب أو أسلوب مفروض، يحكي حتّى يفرغ روحه ثم ينصرف جثّة. بعد فترة أيقنت أنّي أتلاشى على الكرسي، أتماهى مع القصص التي أسمعها، لم أستطع أن أكون مثل عبد القوي الذي لا يكترث بأيّ حكاية مهما كانت، محصّن بما يخصّه وما يتوق لحكيه. ما أسمعه يشوشني، حكاياتي الخاصّة تحترق، سأتحوّل إلى جثّة مسلوخة بذكريات لا تخصّها، المشاهد الجديدة تنافس السابقة، تبحث لها عن موقع، عقلي يصبح حافظة لما يطلقه المعترفون، لا بدّ لي من الخروج، كراهية المسرح تتكوّم يومًا بعد الآخر، تستنزفني التحقيقات، من حقّي عيش أيّام عادية لا حكاياتٍ فيها، ألا يكون هناك كلّ تلك الدلالات لأصغر التصرّفات. كنت أتشارك وحسناء الرغبةَ في نسيان ما فات والبحث عن ذاكرة أخرى.

«تحب نهاجر بعيد عن الماضي كلّه؟».

سألتني في رابع لقاء بيننا، ويومها كانت كمن خرج من زمن السبعينيات، منطلقة ورومانتيكية بلا حدود.

«العلاقة دي صعب تستمرّ».

هكذا قرّرت في اللقاء الخامس بعد شجار ختم مناقشة حول موجة الأغنية الشبابية. أنتصر للقديم في مواجهة ما بدا تشويهًا لأبسط تصوُّر عن الموسيقى والغناء، وهي رأت في ذلك جمودًا وتبنّيًا لوجهة نظر سياسية خائفة من التغيير. كيف يمكن قبول أغنية وموسيقى مشوّهة ويصبح ذلك معارضة سياسية!

القواسم المشتركة الصغرى كائنات صغيرة تلسعنا بقرصاتها، لكنّنا فرحنا بعلاقة ليس فيها طرف أقوى ولا التزام تحدّده الأطر الاجتماعية، كلانا فخورٌ بوعيه، بمعرفتنا أنَّ المسمّيات التي تربط الناسَ بعضهم ببعض.. الحبّ، الصداقة، الأسرة، محاولة للتعامي عمّا لا يمكننا مواجهتُه.. كلّ فرد غارقٍ داخله، يبحث عن حلٍّ لمأزقه الخاصّ. غير أنّ الحاجز بيننا ينبع من شعورها بأفضلية الأنثى والغضب على الرجال. وهل هناك امرأةٌ نجت من هذا الفخِّ؟ لكنّي لم أكن ضدّها في هذا، على العكس أميل للاعتقاد بأنّ صفاتِنا أنا وهي لم تكتمل، لستُ رجلًا خالصًا وهي ليست أنثى مكتملة، عندما نلتقي نتخلّص من الادّعاء، نتبادل الصفات ونلعب بها، تصبح خشنة وقاسية وأتحوّل إلى كائن وادع يمتصّ غضبَها، وعندما نملُّ من هذا نعود إلى أدوارنا الأصلية، لكن وقبل أن ننجرَّ إلى فخِّ العلاقة التقليدية بين رجل وامرأة، بين سالبٍ وموجب، ننقلب إلى دور آخر ولعبة أخرى، نفرغ ما بداخلنا من كبت، نلهو بحريّتنا.. نكون كيفما نريد من دون حواجز، لم يخجل أحدُنا من الآخر، وبرغم المشاجرات التي لا يمكن حصرها خلال تلك الفترة القصيرة لكنَّ أحدًا منَّا لم يجرح الآخر مطلقًا، ربَّما لهذا لم أغضب على هجرانها لي، وأهفو إليها كلّما جاءتني ذكراها. حسناء واحدة من الذكريات القليلة المبهجة التي أستيقظ وأنام بها، ربّما لأنَّ قصّتها وقصّة أبيها تعدّت شخصيّاتهما ليصبح لهما علاقة بكلّ ما أراه وأعيشه.

متأخّرًا جدًّا صحوت من الوهم.. حسناء خيالي ليست هي الموجودة في

الواقع. كان لا بدَّ من تأمل مغزى الإشارات التي تتعمّد بثّها في ثنايا كلامها، كانت صادقة في خوفها عليّ ممّا تخطّط له، لهذا أرادت لفت انتباهي لطبيعتها الصخرية، غير أنّي كنت مفتونًا بها وما زلت، واكتشافي أنّ قصّتها كلها تكاد تكون ملفّقة، وأنّها هجرتني مع رجل مختلٍّ، لم يدفعني لكراهيتها، حاولت جاهدًا، تمثّلتها عارية في فراشه ولم أغَر، إن طالها فجسدٌ بارد، لن يصل إليها مثلي، لن يخطر على باله أنّها تتأفّف من الجنس...

«الرجال أقرب إلى الحيوانات، ومهما بلغت درجة تحضّرهم وادّعاءاتهم أنّهم يحترمون المرأة يظلّون همجًا».

نجلس في بار بأحد الفنادق الكبرى ولم أكن أرى من تلك الفتاة سوى ظهرها المكشوف بالكامل، شريطين رفيعين متقاطعين يشدَّان جزء الفستان الأسفل إلى القطعة التي تحيط برقبتها، غارق في تأمّل تفاصيل المساحة المكشوفة الممتدّة من العنق الذي يتوقّف الشعر المقصوص عند حافته ليتوقّف عريها قبل أن يطال أردافها، بالكاد تخفيهم قطعة قماش صغيرة قبل أن يعودَ العري مع ساقيها إلى جمهورها مُتحدِّيًا وداعيًا، وبعد زجاجتي بيرة أصبحت رغبتها أشدَّ إثارة، حركات جسدها المبالغ فيها لا هدف لها إلّا التحرّر من بقيّة ما يكبله...

«آه لكنَّ صدرَها مترهّل».

فرحت بتعليقها، عزوته إلى الغيرة ما يعني بالتبعية احتمالية الحبِّ، لم أتمكّن من ضبط انفعالي فبان على وجهي أثر منه. حسناء لا تطيق أن تدور في ذهني خاطرة ونحن معًا لا أصارحها بها. ضعف أو رغبة في الاستحواذ، كلاهما يؤدّي للثاني. وإن أكّدت أنَّ هناك شيئًا فلا بدّ أن يكون، وأنا علي التصرّف.. أخترع، أؤلّف، أبتكر، أمرًا يدفعها للغضب أو الضحك أو يستفزّها حسبما أريد...

«دماغي كلّه مشغول بتخيّلك عريانة».

بلا انفعال...

«كويس.. لو انت مبسوط».

لكنّها تتصدّى بجدّية وحزم لما يمكنه وضع أساس لعلاقة جادّة... لماذا يعتقد الرجال دومًا أنّ غيرة امرأة من أخرى يعني أنّها تحبّ! غيرة النساء لا مبرّر لها في الأغلب، ليس لها سبب خارجي. هذه واحدة، أمّا الأخرى هو أنّني أقول لك الحقيقة وليست مبنيّة على غيرة، هذه الفتاة صدرها مترهّل لكنّك ومعظم الموجودين لم تنتبهوا لأنّ أعينكم تذهب للعاري، أمّا أنا فأنظر لما تحت الملابس.

كان ذلك صحيحًا، أصابني بالغثيان كلّما لمحت الفتاة طوال الأمسية وكأنّك فيما مستمتع بطبق من الطعام تفاجئك شعرة من رأس الطباخ. بدأت أفطن لميول حسناء، تنافسني في ملاحظة الجميلات والمثيرات، تتأملهن معي، ثم نبدأ في تحليل جسد من يقع عليها الاختيار. واحدة من ألعابنا الحسّية، وصلنا من خلالها لذوق الآخر في النساء. بالطبع كان من السهل الاستنتاج بأنّ تلك الميول أتت ردّة فعل على ما عاشته مع أبيها هل الطبُّ النفسي بسيط إلى هذا الحدّ، أم أنّي العبقري! امرأة قهرها رجلٌ فتتحوّل فيما بعد إلى حبّ بنات جنسها...

«الذكورة ثقيلة بشكل لا يحتمل فما بالك لو أنّ صاحبَها أضاف إليها العنف. الرجال عليهم التفكير بشكل جِدّي على أنّهم كائناتٌ ضدَّ مفهوم الطبيعة، هم في حاجة إلى تهذيب طبيعتهم، يعني مثلًا.. قدرة الشواذّ على الإبداع ملفتة».

«الشذوذ لا يتوقّف على جنس الرجال، يعني لا يمكن نعتبره تمرّد على الذكورة، هو كمان تمرّد على الأنوثة.. على السياق الإنساني كلّه».

برغم توطّد علاقتنا لكنّها ظلّت ترفض الجنس، في المرّات التي كاد يحدث فيها ذلك تفزع وتطلب منّي الانصراف، ولم يتغيّر هذا إلّا عندما

أرادت، مرّة يتيمة انتهت بعدها علاقتنا. كنَّا قد بدأنا نلتقي في شقّتها بمدينة نصر بعد أن مللنا زحام العيون المستطلعة وضغطها...

«لماذا يحدِّق الناس بهذه الطريقة، هذا أمرٌ مزعج جدًّا، لا يمكنني النوم من مطاردة هذه العيون لي في الليل».

أيّدتها راغبًا استثمار الفرصة...

«المصريين طول عمرهم متداخلين في حياة بعضهم إنّما في الفترة الأخيرة ومع التكدُّس في مساحة صغيرة، الموضوع أخد أبعاد نفسية».

تحرَّكتُ مدفوعًا بأنَّي رجلٌ عليه عبءُ البَدء بالمحاولة، ويكفي أنَّها من مهَّدت للأمر بنقل اللقاءات لمكان مغلق، غير أنَّ ذلك كان خطأً فادحًا...

«يعني ما استنتجته أنّني دعوتك للوساخة! ابتذال».

«انتِ بتعتبري الجنس وساخة! شكلك معقّدة بجدّ»

«فكرتك عنّي وعن الستّ لازم تخلّيني أعتبر الجنس وساخة».

تكفيرًا عن محاولتي الساذجة أصبحت ملزَمًا بالاعتياد على الأخوّة مع جسدها المغويّ، بعد فترة أصبح تواجدي بجوارها عاديًّا، وكأنَّنا زوجان استسلما إلى رتابة عيشهما، غير أنَّ الرغبة في تطوير العلاقة لم تفارق عقلي لحظة، لم يكن مجرّد الشوق للجنس وإنّما التواصل، الاكتمال بها والتحقّق عبرها، من دون هذا ليس أمامي سوى ما تقوله وما أراه، واللغة عاجزة، كيف أقول لها.. إنَّ رغبتي فيها ليست شهوةً حيوانيةً بقدر ما هي محاولة للتواصل. أراهن على أن تعتبر هذا وسيلة مبتكرة للإغواء وتستجيب فقط لهذا السبب. غير أنَّ ذلك غالبًا لن يحدث، لن تصدّق بالطبع، كلّ الرجال كما ترى موصومون بالدُّونِية...

«الثقل بين فخذي الرجل يربطه بالأرض أمّا جرح النساء فخفيف يعلو

للسماء لذلك فإنَّ الربَّ وضع لهن الدماء الفاسدة مرّة كلَّ شهر حتَّى لا يطرن مثل الملائكة من فرط الخفّة».

تُثيرني أفكارُها كما جسدها فأنجذب إلى الأرض أكثر ومثل الرادار تلتقط أبسط تغيّر في انفعالاتي، ورغبتي الدائمة فيها تغضبها. ألا تسعد أيُّ امرأةٍ بأنَّ رجلَها لا يمكنه التوقّف عن التفكير فيها؟ تجدني شاردًا فتقترب منِّي وتلمسه ببساطة آسرة، لمسة خفيفة وكأنَّها لا تقصد، تهمس في أذني.. ألا يمكنك أن تكون إنسانًا وليس حيوانًا طوال الوقت. أحاول جاهدًا السيطرة على ما يمدّ الدم لعروقي، تبريد الساخن، تلاوة تعويذات لينكمش، ليس لأكون إنسانًا كما تتفلسف وإنَّما لأبعدها عن خيالي الذي سكنته، لأملك حيادية التفاوض معها كما تفاوض أبوها مع الحكومة وخرج من محبسه. جسدها مقابل الحقيقة التي ترغب منِّي إعادة كتابتها. كان سهلًا بالنسبة لها ادّعاء الطهرانية، رغبة النساء لا تصبح واضحة هكذا مثل الرجال، نحن مكشوفون بشكل فاضح. من الصعب تخمين رغبة امرأة إلّا أن أعلنتها، أو إن كانت على قدر كبير من البراءة والفطرة، ما يستحيل أن تلتقيه تقريبًا.

معظم الأوقات نقضيها في الشارع، لديها دومًا مكان جديد ترغب الذهاب إليه، ماهرة في اكتشاف ما لم أعتقد في وجوده. خارج القاهرة حيث تختفي المباني وتبدأ حدود الصحراء، كأنَّ ما نَحيَاه من حضارة وهمٌ ليس إلَّا، نجلس على الرمال في مطعم مُعَدٍّ لمَن مثلنا.. للمشتّتين بين عالَمَين، ننتظر نضجَ اللحم المدفون تحت الرمال. أظن أنَّها كانت جادّة عندما قالت إنّها تتمنى حياة مثل تلك، الابتعاد عن الناس والمباني والسيارات، أن تصحو فلا تجد حولها نشراتِ أخبارٍ وأغـانٍ، ظننت أنَّها هلاوس الحشيش الذي دخنّاه خلسة، لم أدرك إلّا فيما بعد عمق تأثير الحياة التي نشأت في ظلِّها، حيث السكون المطبق في شقّة منعزلة، لا شيء غير الكتب والموسيقى الكلاسيكية، من ذلك تعلّمت ألّا تنتظر شيئًا. ثم الحيرة عندما

تحرّرت أخيرًا، حرية تاقت إليها لكنّها في الوقت نفسِه تستعذب ما مرّت به وكأنّها المسيح...

«نحن مثل أصغر حشرة في نظر القوّة الهائلة التي تراقبنا عبر السماء».

نشرب البيرة بكمّيات كبيرة، منحنا الحشيش طاقة للاستيعاب، ممدّدان على الرمل نتأمّل السماء. المرّة الأولى التي أراها بهذا الصفاء، منبهر بما أراه أفكّر إن كانت هذه نقطة تحوّل في حياتي تجبرني على الالتفات إلى ما تجنّبته قبلًا.

«تفتكر احنا هنعمل إيه بعد ما نموت؟».

وما الذي يمكن أن يفعله أيُّ شخص عندما يموت! استفزني السؤال وكأنّها وجّهت لي إهانةً شخصية...

«هو احنا طالعين رحلة؟».

غضبت من السخرية...

«سطحي».

لم نتحمّل التجربة، لحمٌ مشويٌّ تحت الرمال، عجوزٌ صامتة كأنّها ملاك الموت تقوم على خدمتنا، بيرة وحشيش وقمر.. وصفة مثالية لولوج عالم الاكتئاب من أوسع أبوابه. طلبت أن نذهب وهو ما كنت راغبًا فيه بشدّة. ذهب كلٌّ إلى نفسه...

«يا ريت بلاش نتقابل فترة».

«أنا كمان أُفضِّل ألّا نلتقي لفترة».

أفكّر جادًّا في إنهاء هذه العلاقة المعقَّدة، ما الذي يدفعني للارتباط بفتاة في حاجة إلى إعادة تأهيل، ببساطة.. مجنونة.

بعد أسبوع تهاتفني، تطلب أن نلتقي، وبين الزهو برضوخها والهيبة ممّا تدبّر له أثق أنّ علاقتنا على أعتاب نقلة.

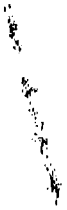

يكاد يكون من المستحيل أن تَسرِق في حيٍّ شعبيٍّ وتنجو، العمارات متلاصقة والكثافة السكّانية العالية تقف عائقًا، الحركة دائبة طوال الوقت، الأطفال يلعبون في الشوارع وعلى سلالم العمارات، والرجال مستعدُّون في الداخل، والشباب على النواصي، إضافة لجيش كامل من البوّابين والمُصلّين والباعة الجائلين.

المفاجآت في الأحياء الشعبية لا يمكن التنبّؤ بها، من الصعب وضع جدول لحياة الناس فيها، أو الالتزام بخطّة.

السلامة تعني تجنب الفقراء.

مصطفى إسماعيل
كتاب الأمان ـ النسخة الأصلية

(14)

ليس لدى لطفي جانب مظلمٌ على الإطلاق. ما زال بإمكاني التأكيد على هذا برغم الشكّ الذي زرعته حسناء في نفسي حول قدرتي في الحكم على الأمور...

«الأحكام المطلقة التي تلجأ إليها مريحة لكنّها غير واقعية على الإطلاق».

لماذا لم أقل لها إنَّها سيّدة الأحكام المطلقة، ارتكنت إليها مع أبيها، ومعي الآن... حكم مطلق قولها أنّي ألجأ إلى الأحكام المطلقة. أنا، مثل «تاليا» لست سريع البديهة، هذا أحد عيوبي، لا ضررَ أن يواجه الإنسان ذاته بعيوبه فهذا الطريق الأساسي لإصلاحها وتأديبها، إنّما أملك ذاكرة حديدية تختزن الكلمات وتراجعها قبل تحليلها. هذه واحدة من مزاياي... من الضروري كذلك أن نقدّر ذاتنا حتّى لا نقعد ملومِين محسورين... بين النرجسية والعدمية نجد توازننا النفسي.

عدنا أنا ولطفي إلى صداقتنا، شروطها مختلفة، إنّما ما زال في الإمكان تسميتها «صداقة». هل هناك يا حبيبتي الهاربة إثبات أفضل من هذا على أنّي أجيد الحكم على الأمور؟

لطفي ليس نرجسيًّا وليس عدميًّا، «لطفي» تعريف وليس اسمًا، اللطف

الخاصّ بي، الكائن الأكثر شفافية في العالم، يمكن رؤية أفكاره تمرُّ متتالية على ذهنه، وكلّها طفولية إلى حدٍّ اعتقدت معه أنّي من أنزلته عن جنّته.

كان أخي واجتهد إلى أن أصبح أبي، أو لعلّها المصادفة لا أكثر، فأنا متمسّك بغرفتي ولم أكن لأتركها وأنتقل إلى غرفة أبي لمُجرَّد قيادة العائلة التي تتكوّن أمام عيني. القيادة تعني الانشغال عن الفرجة لتكون إحدى أدواتها.

أعرفه منذ طفولتي. صديق فرضته علاقة عائلية، وبعدما أصبحت وحيدًا ثابر على علاقتنا حتّى بات له الحقُّ أن يأتيَ وقتما يريد ويفعل ما يشاء. شقّة صغيرة أصبحت مريحة بعد رحيل أبي وأمّي عن الدنيا في الوقت المناسب، غرفتان وصالة صغيرة ومطبخ وحمام، يندهش الزائر كيف تمّ تقسيمها إلى كلٍّ هذا، خطوة واحدة كفيلة بنقلك من أحد أقسامها إلى الآخر وعدها عند الزواج بالحصول على أكبر منها غير أنّه تكاسُل بعدما وطِئَها فظلّا في فخّها طوال عمرهما، لم ينجبا غيري ربّما لأنّه لم يكن لديهما مساحةٌ كافية. ولو كان الأمرُ بيدي لدفنتهما فيها فهي أقرب إلى القبر.

صديقته منال التي تشاركه الغرفة بمثابة أمي، أناديها بـ «ماما»، وتتعامى عن اشتهائي لها، في الساعات التي لا نتجادل فيها ألمس منها شفقة وحنانًا على وحدتي التي لم تشبعها هدى.

ما الذي يمكن قوله عن هدى؟ من الصعب الرؤية في ظلّ الكراهية، الآن يتبيّن لي هذا، بعد فوات الأوان أدرك أنّي تعاملت مع موضوعها بترفّع زائف، لكن وطالما بدأنا وضع قائمة بعيوبي ومزاياي فلنُضف أنّي لا أجتهد في تغيير شكل الواقع كما يرسمه الآخرون حتّى إن تعلّق ذلك بي، منساق إلى سحر السيناريوهات ومرعوب من البقاء وحيدًا، وهي بدت لطيفة، هذا ما اعتقدته قبل اكتشافي أنّها تسحبني معها إلى عالمها، وهو عالم لم أحبّه.. ساكن تمامًا وهي بداخله على وجهها تلك النظرة المستكينة، وكلّ دقيقة

ترفع من على أنفها نظّارتها الطبية التي تعاندها وتبدأ الانزلاق في اللحظة نفسها.

اسمها شكل الحاجز الأوّل بيننا. كلّ ما خطر على ذهني عندما سمعته موشّحات وأدعية دينية.

«انتِ بتفكريني بشهر رمضان»

يومها واجهت النظرة المستنكرة دون تعقيب وذلك ما أدمنته فيما بعد، أقول شيئًا سخيفًا لتبدأ الطلّة في التشكّل.

«وهو شهر رمضان عيب!».

هذه منال وهذا الدخول الأوّل لها إلى خشبة المسرح. لم تكتفِ بجرأة مواجهتي، إنّما انتقلت إلى التعنيف والتهذيب...

«أظن أنك محتاج للجانب الإيماني في حياتك».

لطفي بجوارها يضحك ليخفّف من موقف يراه حادًّا، لكنَّه في الوقت ذاته يربّت على كتفها مشجّعًا. رجل يؤمن بمبادئ الحركة النسوية. ارتسمت العلاقة بيننا نحن الأربعة من هذه اللحظة تحديدًا، مشاغبات طفولية نخفّف بها وقع الخطيئة التي تثقل الفتاتين.

«يا... هدهد».

يزعق نداؤها مع صرير الباب الذي ينفتح. الصرير نفسه الذي كان عندما ينتهي أبواي، لم يكن الباب يغلق إلّا ليداري سوأتهما، مرّة أو مرّتين في الأسبوع. مثلهما، تفتح منال الباب ثم تمكث في الغرفة لبعض الوقت، تمنحنا الوقت الكافي، وهدهدها بجانبي ينتفض مبتهجًا أو مضطربًا حسب إيقاع النداء الذي يخضع لحالة قائدتها المزاجية، تنطقه ممدودًا ومفخّمًا ومنغمًا، تقسّمه مرّات لنصفين...

«يا... هد».

وتمرّ ثوانٍ قبل أن تفرج عن نصفه الثاني...

«هد».

«منال زمانها جايه».

لم تفد محاولاتي لإقناعها أنّي مثلها سمعت النداء الإستراتيجي الأوّل، والتحذيري الثاني، وأعرف أنّه بعد دقيقتين تقريبًا ستكون أمامنا تداعبنا بواحدة من جملها الخالدة...

«يا عصافير الحُبّ».

«يا كتاكيت».

وكأنّنا نصوّر فيلم مقاولات رخيص. غير أنّها، وتلك الكارثة، لم تكن تؤدّي ذلك بابتذال، لم نكن أبطالًا لفيلم ماجن، لم تكن تدخل إلينا شبه عارية، ويدها لا تكاد تحمل زجاجة البيرة من أثر الشراب، ولطفي وراءها مترنّحًا، لا تأتي في كامل زيّها، بلا أيّ علامات ممّا حدث. نحن أيضًا، ننتهي وترتدي هدى ملابسها فورًا بلا تعقيب عمّا حدث. هي عمومًا لم تكن تخلع ملابسها كاملة، تظلّ مستعدّة لأيّ طارئ، غالبًا تدرّبت حتّى أصبح بإمكانها الفوز في مسابقة الأسرع في إخفاء آثار المضاجعة، تهندم الحجاب الذي انزاح من على رأسها، تمدّ جسدها لتفتح الباب ثم تسرع بالجلوس على طرف السرير، تلتقط أيَّ كتاب تقع عليه يدها وتنشغل بتصفحه، وكأنّنا خلال الساعة المنقضية كنّا مشغولين بتثقيف أنفسنا. لعنة الله على الثمانينيّات وما ورثناه منها، لا فنَّ، لا موضة، انتهى عهد السياسة والثقافة وبدأ التديُّن والتقاليد، نفعل ما نريد شرط البسملة والحوقلة. يومًا انصرفتا غاضبتين لأنّي لم أستطع كتمان غيظي من المصادفة، كانت تمسك بنيتشه «ما وراء الخير والشرّ»...

«عندي مجلّدات ميكي يا هدى أحلى، في رفِّ المكتبة المقفول».

«مش لازم الواحد يقرا كلّ الكتب دي عشان يكون مثقّف.. الثقافة في الدنيا».

تتدخّل منال تنتصر لعيني تابعتها الدامعة. ولطفي يواصل دوره المعتاد... تشجيعها أمامنا ثم السخرية منها دون أن تدري، وربّما تدري لكنّها تتغاضى في مقابل المساحة التي تركها لها، وتأكيده الدائم على احترام المرأة ودورها، بالطبع هذا في مواجهة الدور الذي وجدت نفسي منغرسًا فيه ومضطرًّا لتكملته.. «عدوّ المرأة».

التقطت الكتاب من يد الهدهد الذي كان ممسكًا به محرجًا، فتحته على. صفحة بعينها وقرأت...

«ما يدفع على الرغم من كلّ الخوف، إلى الإشفاق على المرأة، على هذه القطّة الخَطِرة الجميلة، هو أنّها تبدو أكثر عرضة للمعاناة والعطب والخيبة وأشدّ حاجة إلى الحبِّ من كلِّ البهائم».

لم أندم على ما قلت، والجملة على أيِّ حال لم تكن لي، لو أرادوا فليغضبوا من السيّد نيتشه.

يقول لي الأستاذ فخري إنّ المرأة لا تحبُّ تحمّل المسؤولية لهذا فإنَّها في أعماقها تميل إلى مَن يقهرها، المرأة مثل شعوبنا تعشق الديكتاتور، لهذا فنحن جميعًا «نسوان». نيتشه، والأستاذ فخري عقّدا علاقتي بهدى، لا أعرف عن خبرات نيتشه بالنساء، لكنّ ما أنا أكيد منه أنّه كان ينبغي أن أفكّر جيّدًا فيما يقوله الأستاذ فخري عن النساء فعلاقته بتلك الكائنات لا تسمح له بأن يدليَ بآراء حولها، لكنِّي مع ذلك اقتبست شيئًا من علاقته بعشيقته الخالدة.

سعيت لتحويل هدى إلى عبدة، لا تتكلّم ولا تفكّر ولا تحلم، بعض الناس لا يليق بهم هذا. تجربة أضفى تطبيقها على علاقتنا بعض الإثارة، لكنّها لم تتقبّل هذا، ولم أحترمه، لماذا لم تواجه بالمثل تبعيّتها لمنال! كفّت

نهائيًّا عن التظاهر بحبِّ القراءة الذي لجأت إليه لزيادة مساحة التقارب بيننا. هذا أفضل فقد توقّف نزيف الكتب، ولم أعد مُجبرًا على سماع آرائها السطحية حول ما قرأت، أفصح الهدهد المتظاهِر بالرّقة عن شخص عنيف، بدأت في مبادلتي الكراهية، تسخر من عزلتي التامّة واكتئابي، غير أنَّ هذا وللعجب كان يحضّنا لأداء جنسي أكثر حماسًا، انتهينا من تمثيل قصّة الحُبِّ فبدأنا في رؤية حقيقة الصلة التي تربطنا. دفعها هذا للسقوط في فخ اكتئابي، من دون أفق لإطار شرعي للعلاقة فإنّها لن تتحمّل كونها...

«حيوانة».

مثلما وصفت نفسها في واحدة من المرّات، والمؤكّد أنَّ كراهيتها لي ستزداد لأنّي من جعلتها كذلك...

«لماذا يهرب الناس من معرفة أنفسهم؟».

«يعني إيه.. أنا حيوانة فعلًا؟».

سألتني متطلّعة لإجابة وكأنّي مَن سيقرّر مصيرها. في حالات كتلك يفترض أن أضمّها إلى صدري نافيًا تلك الفكرة حتّى تستمرّ الحياة، غير أنَّ الرغبة في تخريبها بدت أكثر جاذبية، قد يخفّف هذا شعوري بالمهانة لعلاقتي بها...

«كلنا حيوانات يا حبيبتي».

لم تكن لتفهم. الخطوة التالية في حياتها الارتباط بي، هذا مفروغ منه وإلّا لمّا تخلّت عن عذريّتها، ليس من شيء مجاني، ما تحصل عليه تتكّبد ثمنه، خاصّة إن كان «أغلى ما تمتلكه فتاة». تكرّر الجمل التي سمعتها وتربّت عليها بلا مراجعة، بلا أدنى مجهود في إعادة صياغتها، لهذا لم أكن أنتبه إلى ما تقوله، حديثها يدفعني إلى السرحان، وبعد وقت أدمنتها، مثل عجوز يربطها بالحياة آلة الحياكة القديمة، تضع قدميها عليها ليباشرا العمل

المحفوظ.. مزيدًا من ملابس ليست لأحد وذكريات تتداعى بلا رابط. تثرثر بلا انقطاع بإيقاع ثابت مهما بلغ حماسها، تتأوّه أيضًا بإيقاع واحد لا يتغيّر، يبدأ خافتًا ثم يتصاعد درجة أو درجتين لا أكثر، وفي كلّ الأحوال يحافظ على انتظامه مثل النائمة، لم تبدُ لي يومًا مثارة برغم محاولاتي المتعدِّدة، حريصة على التأكيد بأنَّها ما وافقت إلَّا لإرضائي.

أسرة متجانسة، السعادة تُنسيهم المساحة الخانقة التي تلامس فيها أقدامهم بعضها بعضًا وهم يجلسون متواجهين أمام التليفزيون، هدى بجانبي، ومنال في مواجهتي، أميل إلى الأمام فتكاد تقع في أحضاني، لا تبتعد، تصرُّ على الاحتفاظ بمساحتها. القسمة خاطئة منذ البداية، المفترض أن تكون منال من نصيبي، آلة حياكة من طراز أحدث. قادرة على استفزازي بتصميمها على صحّة آرائها، معجبًا بقدرتها الهائلة على تصديق الوهم ومجاراته، لعبت الدور الأهمّ في تحويل لطفي من إنسان عادي إلى شاعر، كنت قد يَئِستُ أنا وهو من الأمر، بدا أنَّ ذاكرته عصيّة على النسيان، والشاعر الشبراوي الشهير أكّد أنّ تحوّلَه مشروط بنسيان الأبيات الألف التي حفظها.

كان يرغب امتلاك مقدرة رصّ الكلمات بجوار بعضها بعضا لتتهلّل منها وجوه الفتيات وتغرِّد العصافير، هكذا كان يرى الشعر وكلّ واحد لديه رؤيته. ربَّما كان الرجل مخمورًا، ونحن أيضًا على ما يبدو وإلّا لما اقتنعنا بأنَّنا عثرنا على وسيلة تحويل لطفي إلى شاعر...

«احفظ ألف بيت وبعدين انساهم».

وبعدما راحت السكرة نسيت الموضوع، ولكنّي بين مقاومة الصداع وتعب المَعِدة المعتاد كلما أكثرت في الشراب صحوت عليه يعبث في المكتبة باحثًا عن دواوين شعر، عدتُ للنوم محاولًا تذكّر إن كان جاء توًّا أم قضى الليل هنا، وصوته جزء لا ينفصل من هلاوسي.

مُشَعشَعَةً كَأَنَّ الحُصَّ فِيهَا

إنّي لا أؤمن في حبّ
لا يحملُ نزقَ الثوّار

❋

البدايات أنا
والنهايات أنا

❋ ❋ ❋

ومن الذي جعل النساء
دون الرجال، فلا سبيل إلى الرغيف سوى البغاء؟

تمتلئ الغرفة بالشعراء.. المتنبي، قبّاني، درويش، الأخطل، ريلكه، رامبو، الخنساء. يرنّ صوته دقّاتِ طبول في رأسي، أصرخ عليه ليتوقّف، وطوال شهور مضت الأمورُ هكذا، يأتي ومعه كشكول خصّصه لتدوين الأبيات الألف، ينتقي بعض الجديد ثم يطلب مني اختباره فيما حفظ. ليست هذه طريقة لتكوين شاعر على النمط الحديث، لكنّي لا أجازف بمصارحته وهو يعيش تلك الحماسة. والآن انتهينا من الحفظ، فكيف الطريق إلى تنفيذ الشقّ الثاني من الخُطّة؟

تجد منال الحلَّ...

«الامتناع عن التفكير أقصر طريق للنسيان».

بمجرّد أن تصدق في فكرة تملأ روحها وعقلها وتتصرّف وفقها. لكن الطرق التي حاولناها لمنع لطفي من التفكير باءت بالفشل، هو يستخدم عقله دومًا. كلُّنا نفكّر، ليس هذا فعلًا احتكره لطفي، لكنّنا نراه هكذا لأنّه

بشكل عامٍّ غارق في ذاته، لا يعود إلينا إلَّا بخطّة يرغب تنفيذَها، مشروعات لا يربط بعضها ببعضٍ سوى جنونِها، لكنَّه يؤمن بأن...

«مفيش حاجة اسمها مستحيل».

ومهما تكرّرت المحاولات ومعها الفشل فإنَّه يعود من جديد بفكرة مختلفة وبتصميم لا يلين.

«حتى واحنا مع بعض بيفكّر».

قالتها منال بينما تومئ بطرف عينها إلى غرفتهما وكأنَّ الجملة في حاجة إلى تفسير.

الزعيمة والمثقف. هكذا سأكون أنا ومنال. أحكي لها عن اليوتوبيا فتعيشها وتدخلني معها إلى عالمها المثالي، ربَّما يكون هذا الحلَّ لضيق المكان، ألا يقولون إنَّ السعادة حالة عقلية. لو تقبّلت منال عملية التبديل، لتقبَّلتها آلة الحياكة القديمة، ولا يلزمنا سوى بعض الإجراءات الشكلية، مجهود بسيط كافٍ لتستردَّ كلّ واحدة منهما غشاءها، ليجرِّب الجميع مرّة أخرى متعة التمزيق. لن نستمرَّ في اختيارٍ غيرِ صائب فقط لأنِّي ولطفي استبدلنا الأغشية عن طريق الخطأ. هل سيتحجّج أيٌّ منهم بالحُبِّ! سخافة لن أجد لها ردًّا، سنغرق في فخِّ الابتذال الذي كرّرته بلا مللٍ الدراما البشرية عبر تاريخها.

تضحك هدى على جملة يعلّق بها لطفي على أحداث الفيلم الذي نشاهده، تلحظهما منال وغيظ نمرة يتبدَّى على ملامحها، تميل لتسند كوعها على ركبتيها، ينتابني إحساسٌ بالضآلة أمام صدرها الذي انكشف باهرًا أمام عيني. أضع رأسي عليه وأخبرها بينما أداعبه أنَّ الانتظار ليس مضيعةً للوقت كما تظنُّ.. هذا استعداد لما سيجيء وليس مُهمًّا متى.

فشل زميلنا «أ» للمرّة الثالثة في فتح باب شقّة، عدنا أدراجنا، علّل ذلك بطول بعده عن هذا العمل، ظلَّ مكتئبًا، خاصّة مع تقريع بقيّة الزملاء، أبدى رغبته في الانسحاب متمنِّيًا لنا التوفيق، هم لم يمانعوا، لكنِّي رفضت، قلت إنَّ الأهم الرفقة.

على مدى شهرين عاونته على استعادة مهاراته المفقودة، خرجت معه للتمرين على فتح شقق مهجورة، تدفّقت فيه الروح من جديد وعدنا بعدها للعمل.

مصطفى إسماعيل
كتاب الأمان ـ النسخة الأصلية

(15)

«نحن نتوقّع لك مستقبلًا باهرًا. أنت واحد من الأشخاص الذين نتمنى ضمَّهم إلى فريقنا».

مقابل الإطراء وهبتُ روحي للعمل. والحقّ أنّي لم أهتدِ على وجه الدقّة لما أخفقت فيه حتَّى أسمع كلمات مناقضة تشيّعني مطرودًا بعد خمسة أعوام. غير أنَّ عدم استيعابي لأسباب القرار لم يمنع ارتياحي له، لم يعد هناك ما يغريني بالبقاء، غير أنَّ بعضهم عندما تتورّط معهم لا تهتدي لسبيل ترك دائرتهم، تأمّل أن يبادروا هم، مثلما تودّ أن تهجرك حبيبتك التي لم تعد تريدها. هذا يحدث عندما لا تعود الحكايات مسلِّية أو ملهمة بالقدر الكافي لتشغلك عن حياتك البائسة. كنت قد وصلت إلى الحدِّ الذي أتمنَّى فيه العودة إلى أفعال الواقع حتَّى لو كانت بلا قيمة كبيرة.

ما أهميّتي على أيّ حال ليطلب نبيل العدل موافقتي على صفقة بينه وبين مصطفى إسماعيل.. النسخة الأصلية من كتاب الأمان مقابل الإفراج عنه. لن يسأله أحدٌ عمّا سرقه، كلّ ما غنمه حلال طيّب له بشهادة الحكومة أمام الله والمؤمنين وقت أن تطلب منها الشهادة. هذا إن كان مصطفى يهتمّ من الأساس بشهادة من هذا النوع. فقط عليه الالتزام بأنّ لا نسخَ أخرى من الكتاب في أيِّ مكان آخر، كما عليه الالتزام بعدم إعادة نسخها من ذاكرته عبر أيّ وسيلة كانت مسموعة، أو مكتوبة، أو حتّى نقلها شفاهة لألسنة الرُّواة، عليه نسيان كتابه كأن لم يكن. وربّما طلبوا منه زيادة أن يكون هو

نفسه كأن لم يكن، وهو فعل هذا، اختفى تمامًا، أفكّر دومًا أنّه متوارٍ عن الأنظار يضع كتاب أمان جديد لمشروع مختلف، أم أنّه اختار الحلّ البسيط والمنطقي لحكايته.. أن يكون واحدًا من مئات المجاذيب المحتمين بالأضرحة والمساجد.

رفضت صفقة الإفراج عن مصطفى إسماعيل لأنّها تتناقض مع كلّ مشروعه، لا تنسجم مع تحدِّيه، فعلت ما كان يتعيّن عليه فعلُه. لم أفكّر أنَّ هذا كان مخطّطه، عرف من البداية أنَّ القضية لن تصل إلى المحكمة، ستحرق الملفّات، أو تخزّن بشكل سرّي، لن تخاطر السلطة بوضعها بين أيدي العامّة، ليس من الحكمة نشرُ التفاصيل، وأفضل طريقة الادّعاء بأنّها لم تحدث، وبالتأكيد هذا يمكن تدبيره.

خرجت من المكان دون وداع وكأنّي سأعود في اليوم التالي، فقط كلمات قليلة من نبيل العدل يبلّغني فيها بالقرار مشيرًا أنّي لم أقدّم ما كان منتظرًا منّي، مؤكّدًا على تحذير سالف...

«كل ما رأيت وسمعت لم يكن، والعواقب لن تكون سارّة على الإطلاق إذا جازفت بالمخالفة».

فرحت بالخلاص، غير أنَّ ما سيظلّ يحاصرني ككابوس: ماذا كنت أعمل؟ فيمَ أنفقت تلك الأعوام؟ كلّ الناس يمكنها بسهولة الحديث عن وظائفها.. طبيب، مهندس، طيّار، صحفي، شرطي، خبّاز، إلى نهاية القائمة. مهنٌ رفيعة، ومهنٌ وضيعة، مع القانون أو ضدّه. أنا كنت أحد القلائل في هذا العالم الذي لا يمكنه أن يحمل بطاقة تعريف، المعلومات الوحيدة التي كان بإمكاني كتابتها على تلك البطاقة اسمي ورقم هاتفي. لست محقّقًا، ولا شرطيًّا، ولا باحثًا، ولا صحفيًّا، أنا كلُّ هؤلاء وأكثر، أنا الوظيفة الأكثر عصرية التي تخلط التخصّصات لتنتج ما لا اسم له. لهذا كنت أتجنّب السؤال عن وظيفتي مثل خجول لا يفضّل الحديث عن طول عضوه! طوال فترة عملي تجنبت الاختلاط بالناس حتّى لا نصل إلى السؤال...

«حضرتك بتشتغل إيه؟».

حضرتي، وحتّى خرج من وظيفته، لم يبلغه أحد ماذا كان يعمل. كنت أتقاضى راتبًا معقولًا، ليس مبالغًا فيه ولكنّه كافٍ ومشجّع، مع تلميحات عديدة بأنّه يمكنني تقاضي أضعافه مع مميّزات إضافية لو تخلّصت من السلبية التي رافقتني، لو تحوّلت عنصرًا فاعلًا، إن تجاوزت الاشتغال بالمعنى السطحي لوظيفتي.. كاتب يدوّن ما يملَى عليه، لكنّي تسمّرت أمام السؤال الذي رفض أن يجيب عنه أحدٌ بشكل واضح...

«ما المسمّى الوظيفي لنا يا سادة؟».

«تقرير سريّ مشفوع بطلب عطف..

برغم تمتّع الزميل خالد مأمون بقدرات ومواهب كبيرة كان يمكن أن تؤهّله لنيل مركز مُهمّ، إلّا أنّه يفتقر إلى إيمان يحرّك إمكاناته، يقف على أعتاب السؤال ويخشى محاولة التصدّي إلى إجابة، والأكثر خطورة أنّه لا يرغب في التورُّط. وهذا يخالف الشرط الأوليَّ المطلوب في العناصر المرغوبة.

بعد خمسة أعوام قضاها في المكان لم نجد أيَّ تحسُّنٍ طرأ على صفاته السلبية والتي تمَّ رصدُها منذ البداية، وثبت خطؤنا في اعتبارها عارضة، لهذا نوصي بالاستغناء عن خدماته مع تجاهل الإجراءات المعمول بها في مثل هذه الحالات ليقيننا بأنّه لن يستغلّ ما اطّلع عليه من أسرار».

عدت مثل الباشمهندس أشرف غاضبًا من السنوات التي ضاعت، لكنّي على خلافه لم يكن لي حقُّ الشكوى، لن أجد متعاطفًا...

«كويس انّك لحقت نفسك».

نفسي تلك ممزّقة ما زالت لا تعرف ماذا تريد، ولم «ألحقها» مثلهم. مع ذلك ما زال هنا مكاني لم يطردني من رحمته بعد، أبٌ شرقي لا يمكنه

إجبار ولده، الذي لم يعد طفلًا مسلِّيًا، على الرحيل، يتمنى أن يعرف وحده ما عليه.. ترك الرجل لحاله والبحث عن ناره الخاصة.

خرجت من أسر وظيفتي الغامضة إلى حرية لا ملامح لها، الآن ومن جديد أجد نفسي في غربة، ما يدعوني للتفكير بجدّية أنّي أعاني من مشكلة حقيقية لا بدَّ من العكوف عليها لحلّها، لديَّ الكثيرُ من الوقت، العمرُ كلّه ربّما، ليس مهمًّا تحقيق شيء، أليست الرحلة هي المُهمّة؟ أنفقت عامين إضافيين بعد ترك عملي في محاولة تطبيق القاعدة الذهبية...

«اعرف نفسك».

أغلق عيني وأنصت إلى صوت العالم محاولًا تحديد موقعي فيه، على أمل الوصول لصوت نفسي بلا إضافات. لكنّي لم أمسك شيئًا واضحًا، أوهام، أفكار خادعة وصور مزيفة، الأمر الوحيد الملموس هو الغريزة، معجبًا بوضوحها أستجيب لها بلا مقاومة. هل داخلنا شيء أصلًا باستثناء تلك الغرائز، مَن الذي اخترع تلك الجمل البلهاء عن التسامي والعلوّ فوق الزائل؟

أيُّهما أفضل هذا أم ذاك؟ لم أستطع أن أكون مثل الأستاذ فخري، لست منعزلًا حقيقيًّا، هو لا يفكّر فيما ترك، لا يعقد المقارنات بينه وبين آخرين، لا يتوقّف ليسأل ما الصواب وما الخطأ، لا يشغله تقييم ما يفعله وما لا يفعله الآخرون. هدوؤه الذي أتمثّله تفسده مئات الأسئلة: أيهما أكثر شرفًا أن تخرج عاجزًا بعد تجربة تصدّق فيها أنّك وجدت الطريق، أم تصبح عاجزًا لأنّك لم تهتمّ من البداية بالتفكير في الطريق؟

«النوم أخو الموت».

في غمرة انشغالي بنفسي لم أنتبه إلى جدّية التحوّلات التي بدأت تطرأ على لطفي. هذه الجملة التي يعلق بها على كسلي تضاعف خوفي وتوتّري، تجنّبت الاستفسار عن أصلها حتّى لا ينفتح نقاش لا أريده حول الدين.

«أنت تخلط ما لا يمكن خلطه».

بهذا الوضوح عبّر صديقي الوحيد عن رأيه في «كتاب الأمان» بعد صدوره. قال لي ما تقوله حسناء الآن.. إنّي سمحت لنفسي أن أُخدع ثم سعيت لخداع الآخرين.

«الثوري لا يمكنه أن يكون لصًّا.. طريقان لا يلتقيان».

وعبثًا كنت أقول إنّ الخروج على القانون له أشكال عدّة، والتاريخ مليء بهؤلاء الذين قام بتلميع صورتهم مخفيًا حقيقة تصرُّفاتهم وتوجُّهاتِهم...

«أدهم الشرقاوي مثلًا كان لصًّا».

لم يكن من المفترض أن يؤدِّيَ الجدل حول كتابي إلى تلك البرودة التي طالت صداقتنا، لكن وإضافة إلى تحوّل لطفي الجذري الذي لم أقبله، كنت خائفًا من المصير الذي حذرني منه نبيل العدل لو أفشيت ما أعرف من أسرار، ولم أكن واثقًا أنّ جملة «هذه الشخصيّات والأحداث لا علاقة لها بها بالواقع» والتي ذيّلتُ بها كتابي كافية لتهدئة غضبهم، هل يتعاملون معي ومع كتابي مثلما فعلوا مع مصطفى، الادّعاء بأنه لم يحدث، أم أنّ الانتقام سيحرِّكهم ضدَّي باعتباري.. خائنًا. لكن ما حدث أنَّ كلَّ طرف وجد في الكتاب ما يريد، السلطة حوّلتني من جديد إلى تابع لها خاصّة أنّي حذفت كلّ ما يمكن أن يكون له دلالة عن حماقتها وجهلها. والمهمّشون وجدوا فيه قصّة ترضيهم عن الأحلام المقموعة. وأنا لا أقول شيئًا، ألوذ بديموقراطية التأويل، وحقّ النصّ في الحياة بعيدًا عن صاحبه. لكن في داخلي لا يزال القلق عارمًا من غدر يُدبر لي.

متدثِّرًا من برد شتوي غير تقليدي، بينما يجلس على حافّة السرير مطرقًا في الأرض، مشهد مماثل جرى مع هدى بينما كنت أنهي علاقتي بها، لكنّه لا يبكي مثلها دموعًا تنهمر متتابعة وكأنّها المطر، فكّرت أن أحكي لها عن «أليس» التي صنعت دموعها بحيرة كادت تغرق البلدة. نظرت إلى الكتب

التي وضعها على ساقيه المضمومتين بقوّة. تمامًا كما تصرّفت هدى في اليوم الأوّل على السرير، وضعت عددًا من الكتب على ساقيها المضمومتين بقوّة، تحتمي بمؤلّفيها من هجوم مباغت، لم تعلم أنَّ ما كتبوه عن الحبِّ والغنج والرغبة سيتدفّق إلى دمائها ليُثير رغبتها لتلتاث بها. من أين يأتي هذا التشابه بينهما؟ من الجلسة العذرية؟ هل تنتقل الرغبة إليه أيضًا لنتضاجع؟ ضحكت مخفيًا توترًا أصبح يلازمني مؤخّرًا كلّما التقينا. التاسعة إلّا عشر دقائق، ثمانية على وجه التحديد، على هذا الوضع الشاذّ، ستكون نهاية صداقتنا، أفكّر في الطريقة التي عليّ اتّباعها لتفادي لقائه، لم أعلم أنَّه اتّخذ القرار نفسه، ولم يكن علينا سوى التصارح لتجنب الحيل الرخيصة.

«إن شاء الله قرّرت الانتحار خلاص؟».

قلتُ مشيرًا إلى الكتب التي كنت قد نسيت أنّه استعارها. نظرته قاسية لم اعتدها قبلًا...

«أدُّوا الأمَانَاتِ إلَى أهلِها».

لم آخذ يومًا المظاهر التي بدت عليه بالجِدِّية اللازمة، اعتقدت أنَّها واحدة من شطحاته وسرعان ما تذهب مثل غيرها.. من الرغبة في أن يكون مسرحيًّا، إلى محاولة الهجرة، ثم محاولًا نحت جسد قويّ لأن ـ وكما اعتقد خلال تلك الفترة ـ النظام يتداعى والقوّة الجسدية ستكون مطلوبة لحظة الانهيار، وعندما أدرك أنَّ تلك القوّة تتطلّب منه أن يفقد بعض عقله تركها ليبدأ في التنظير للانتحار على اعتبار أنّه الفعل الإرادي والاعتراضي الوحيد الممنوح لنا.

عندما سلّموه أدوات الثورة، بعض الكتب السلفية وجنزيرًا، قلت له إنَّ الموضوع تعدَّى مجرَّد اكتشاف أفكار مختلفة. بعد كلِّ تجربة فاشلة يعزّي نفسه...

«شفنا ناس وفهمنا بيفكّروا ازّاي».

انخرط في تلك التجربة عقب فشله في كتابة الشعر، والأزمة التي نتجت عن ذلك مع حبيبته منال. لم تحتمل اكتئابه لما استعصى عليه النسيان، جوهر علاقتهما كان قائمًا على محاولاته الدائمة، فلمّا خلد إلى السكون بدا شبحًا بجانب حيويتها التي لا تنقطع، لكنّ المؤكّد أنَّ جزءًا كبيرًا من تلك الحيوية كان مصدرها تفاعلها مع أحلامه وطموحاته المستحيلة، فلمّا همد اتّسمت حركتها بالادّعاء والمبالغة، وبعد أن كانت الطاقة المُحرّكة لمنزل العشّاق الأربعة تحولّت إلى امرأة مكفهرة على الدوام. لا شيء أكثر سخفًا من امرأة عابسة. حلّ فصل الخريف، تساقطت أوراق الحُبّ اليانعة، ولم يكن في مقدوري أنا أو هدى أن نجد حلًّا، على العكس كنا نراقب ما يحدث بينهما ببعض الشماتة، فللمرّة الأولى لا تصبح خلافاتنا محلَّ الحوار الدائم، وينتقلان هما إلى ذلك الموقع لنحاول نحن القيام بما كانا يفعلانه معنا من محاولات التقريب، لكنّنا وربّما بوعي خبيث كنّا نساهم في زيادة حدّة الخلاف.. هدى سعت إلى ذلك لإطالة فترة التقارب بيني وبينها على أمل أن تنتقل علاقتنا إلى مستوى أعلى. بينما كنت أسعى جاهدًا ما أمكنني لإفساد العلاقة بينهما لأنّ علاقتي بهدى ستصبح مستحيلة بالتبعية وستنتهي من تلقاء ذاتها، فلن تضحي بمنال من أجلي، خاصّة وأنَّ علاقتنا بلا مستقبل.

«تقدر تبرّر لي سبب عدم نسيانك الشعر برغم مجهودنا وتعبنا؟».

وقبل أن يجيب المسكين كانت منال تعاجله بالسؤال الأكثر أهمية...

«مع إنه كان سهل عليك جدًّا يا سعادة الشاعر إنّك تنسى تفاصيل حياتنا!».

لم تكن تهزأ به بهذا اللقب، لم يهمّها أنَّ إنجازه في ذلك المجال أنّه حفظ ألف بيت التصقت بذهنه ولن تغادره، وأنّه كتب فيها قصيدة بالغة الركاكة، اعتبرته شاعرًا منذ إعلانه رغبته...

«من أوّل لحظة اتقابلنا فيها وأنا باقول لنفسي انّك فنان».

لو اختار حُلمًا آخر، لأكَّدت عليه بجملة شبيهة...

«من أوّل لحظة اتقابلنا فيها وأنا باقول لنفسي انّك اتخلقت لحياة البحر».

ولأنّ لطفي استمدّ مشروعية حمله للقب شاعر من اعتراف منال به فقد كان طبيعيًّا أن يتغنى في أولى قصائده بجمالها وقوّة شخصيّتها، وجاءت القصيدة بمثابة التأكيد الذي لا يمكن التشكيك فيه على الشرعية التي منحتها لموهبته، وهو ما يعني أن أتوقّف عن سخريّتي منه ومنها، وكما قالتها صراحة...

«الفن حديقة زهور فيها كلّ الألوان، الكلّ ممكن يبدع فيها، إنّما الغيرة أول طريق السقوط».

لم أقل إنّه فاتها انتحاله أبياتًا من قصائد عدّة، وأنّه لا يجوز لها التحدُّث عن الفن بينما لم تلاحظ الكسور الفاضحة في الوزن، ولا حتّى غياب الإيقاع. لكنّنا لسنا في مدرسة نقدية على أيّة حال، وما يطربك شعر بالضرورة مهما كان رأي الآخرين فيه. ولطفي بعد تلك القصيدة لم يكن في حاجة إلّا للجلوس إلى المكتب ساعتين في اليوم ليملأ رزمة الأوراق الملونة التي اشترتها له، ليصدر ديوانًا يثبت من خلاله للعالم أنّه صاحب موهبة، بل إنّها مضت أبعد من ذلك في مساعدته وحثّه على الكتابة فوضعت له عناوين وأفكارَ قصائدَ من بينها واحدة تتناول قصّتنا نحن الأربعة، عن قدرة الحُبّ على تجاوز المساحات الصغيرة، وسمتها...

«أيام الليلك».

مقترحة أن يكون ذلك عنوانًا للديوان. ولمّا تعثّر في كتابة ما يمرّ برأسه من صور اقترحت...

«لازم تدمج الواقع بالهلوسة على طريقة رامبو».

«لكن رامبو لم يكن مجرّد لايف ستايل يمكن تقليده، هذه أفعال تنتج

عن الإيمان بطريق، أو الأصحّ عدم التصديق في الطرق المعروفة، ومحاولة إيجاد المختلف ولو بشكل غير طبيعي. ملل فطري من الإنسانية. ومثلًا كيف سنأتي بعبيد نتاجر فيهم؟».

استطردت في الحديث عن رامبو محاولًا إثناءها عن مقترحها، لمحت لها عن علاقته الشاذّة بفيرلين، أنّها كانت لكليهما أفضل الفترات إبداعًا

«هل ممكن تقبلي بعلاقة من هذا النوع بيني وبين لطفي في سبيل الشعر؟».

أسألها متصوِّرًا أنّي أصل بالأمر إلى حدوده القصوى، لكنَّ لعبتي ارتدّت عليّ...

«إن كانت عندكما الرغبة لن أمنعكما».

استنجدت بلطفي ليصدَّ وقاحتها، لكنَّه لم يعلّق وكأنَّ الأمر لا يعنيه. أردت الاستمرار في لعبتها متخيِّلًا حفلات من الجنس الجماعي بين العشّاق الأربعة لاستدعاء شيطان الشعر. ربَّما أَزلْنا هذا الشيطان لو كنَّا في منزلي، نهيم وراء لطفي الذي تتنزّل عليه الكناية والاستعارة والبحور، أضاجع حبيبته وهو لاهٍ بالورق، القُبلة منها تعادل بيتًا له، الضمّة بقصيدة، مع تعرِّيها لي يصرخ مأخوذًا من شعر منهمر فوق رأسه.

«إيه الأخبار؟».

سأله الجرسون بينما يضع مشروباتنا بحرص مبالَغٍ فيه حتّى لا ينسكب منها شيء على أوراقه. كانت فكرتها أيضًا...

«أصحابك لاعبو الشطرنج لهم مكان، والموسيقيّون لهم مكان، والكتاب، والكومبارس، حتّى الحرامية. الموضوع له علاقة بالتأثيرات الروحية المتبادَلة، ليست مجرّد أماكن يلتقون فيها.. شيء معروف بالمناسبة».

إيمانٌ دفعَها لمنح الجرسون مبلغًا من المال عندما أكَّد لها بعد حوار قصير شرحت له فيه الوضع...

«ربّنا هيفرجها على الأستاذ هنا أكيد».

نحن في حالة تمهيدية يفتح فيها لطفي قلبه وروحه ليمتزجا بآلاف الكلمات والأفكار التي قيلت هنا، وهل هناك أفضل من مقهى «ريش» بكلّ تاريخه لفكّ عقدة شاعر. قابع في سكون أمام أوراقه الملوّنة وقلمه المفتوح في انتظار حلول أرواح عظماء الإبداع. يسخر منها ومن أفكارها لكنّه منقادٌ إليها، تعويض في الأغلب عن الدور الذي رفض أبوه القيام به، الأبُ وظيفتُه أن يكون قاسيًا لينطلق الابن في اكتشاف مساحات التمرُّد داخله. إنَّما منال، وإن كانت أكثر دهاءً من هدى، لا تملك وعيًا ينبهها إلى أنَّ انقياد لطفي لها بهذه الطريقة تمهيد للتمرُّد عليها، وأنَّه كلما ازداد ضغطها عليه لتحويله إلى فنّان، فإنّها تعجّل من ثورته عليها، كان اعترافه بأنّه لم ينسَ الأبيات الألف أوّل خطوة على طريق انهيار علاقتهما، لو ظلّ راغبًا فيها لادّعى بأنّه نسيهم، ليس ذلك بالأمر الجلل، مَن الذي سيفتّش في ذاكراته عن بقايا الأبيات؟ لكنّه كان يسرّب إليها أنّ لا قيمة لها أو لما تقوم به في حياته.

أحيانًا أظنُّ أنّي الوحيد الذي لديه إيمانٌ ما.

مصطفى إسماعيل
كتاب الأمان ـ النسخة الأصلية

(16)

«جرام واحد معرفة يساوي طن حقيقة»

حتَّى مع تجاهلي للجملة تتبقّى صور حروف اللوحة الأمّ آخر ما أبصره، وأوّل ما أفتح عليه عيناي. هناك عددٌ آخر بخلافها لكنّها بينهم الأضخم والأكثر فنية ولذا فإنّها الأشدّ تأثيرًا.. حروفها الخمس والعشرين مكوّنة من ألف صورة، هذا ما يُقال ولم يتسنَّ لي التأكّد منه، لم أتأمّلها ما يكفي لعدِّهم برغم أنّي أخذت «إذن تأمّل» لأتمَّ الشوط الفاصل بيني وبين التنور...

«ابدأ بالأصغر والغامضة لأنّ المباشرة منها مفخخة».

نصيحة رئيسي نبيل العدل انطلقت منها لتفقد اللوحات ما يكفيني لاستيعاب المعنى، الشرط التمهيدي للانخراط في المنظومة. قضيت أسبوعين في ذلك. أطوف من هنا إلى هناك، مسمِّرًا أمام لوحة وراء الأخرى، منفتحًا ما أمكنني، غير أني مشوه بكلمات سابقة وتلك بالنسبة لي ظلت سطحية. ذات مرة لمحت دموعًا في عيني زميل يقف أمام واحدة منهن. ليس لي ولا غيري حقُّ التعليق أو سؤاله، الفضول ينبغي أن يتوجّه إلى ما يستحق، وإلّا عاب صاحبه بالتفاهة. دموعه أمرٌ يخصّه، ثم أنّ سببها أوضح من سؤاله، لقد أشرق الإيمان في قلبه فغالبته دموعه. انتابتني بعض الغيرة، تمنّيت لو لم أكن على ما أنا عليه، لو كانت لديّ براءة الجهل لتمتعني الكلمات من جديد. لا أعتقد أنّي مثله كنت سأصل إلى الإيمان لو أكملت

عملي في قصر الاعترافات، إنّما على الأقلّ كنت سأحوز نسخة من اللوحة الأمّ. يحصل العاملون عليها تقديرًا عند الترقّي، أو تكريمًا مع الخروج المشرف.. كلّ سبع سنوات يعاد معاينة أداء العاملين، ومن تحوّلت مهمته لوظيفة روتينية، من فقد إيمانه وصلته الروحية مع معتقداتنا يتم نقله إلى واحدة من مؤسّسات الدولة براتب أعلى ومنصب راقٍ، ينقل للضائعين هناك ما تعلّمه، ويصبح عينًا لإدارته السابقة في محلّه الجديد. هكذا يتمّ ربط البلد كلّها بعين ترى كلّ شيء. لا يأخذ الراحل عن المكان سوى متعلّقاته الشخصية ونسخة من اللوحة تكريمًا له على ما بذله من مجهود، صك يقول بأنّه حتّى لو ذهب سيبقى واحد من أخوية «الأعلى إدراكًا». يحتفظ بها في منزله متجنّبًا الإجابة عن مصدرها أو معناها، يكتفي بردٍّ ممّا سمعه وحفظه...

«تأمّل وستبصر».

يربي أبناءه وفق قيمها، لينقذهم من المجتمع العادي الذي يحوطهم، والذي يقدّس الحقائق بلا تَخيُّل، ولو للحظة، أنّه لا قيمة لها. كانت لتكون ذكرى جيّدة لو حصلتُ عليها، لهيأتُ لها جدارًا كاملًا وقضيتُ أيّامًا أتأمّل صورها، لم أتبيّن من تفاصيلها إلّا القليل.. فتاة عارية تجري مذعورة بعد ضرب ناجازاكي. قطع عنق في السعودية.. الرأس تطير في الهواء والدماء تنفجر نافورة من العنق. رجل معلّق على مشنقة يطيل دقائقه في الدنيا بالصراع مع الألم الناتج عن وقوفه على زجاجات مكسورة العنق. أمّا المُدهش حقًّا فأنّها تضمّ الصورة التي يعلّقها ديمتري في مكتبته.. رجلان وامرأتان يمتطون الجمال أمام الأهرامات وأبو الهول، وجميعهم، البشر والحيوانات، يحدّقون إلى الأمام بتحدٍ، كان سيكون لدي من الوقت لأتأكّد أنّها الصورة نفسها، وأبحث عن الصلة بين ديمتري وبين قصر الاعترافات.

في الردهات يتناثر عدد آخر من اللوحات تشبه أمّها...

«الموت وهم».

«الفشل فعل إرادي».

«اليوم نرد إليك بصرك».

والهدف واحد.. تكوين شكل مختلف للتفكير، في أكثر من نقاش دار بيني وبين العدل حول قضايا مختلفة كان يُنهي الحوار بالإشارة إلى اللوحة فوق رأسه...

«المعلومة بألف حقيقة».

استغرق الأمر مني بعض الوقت للتعوّد على هذا الشكل من التفكير، وفي فترة خُيّل لي أنّي أصبحت مثل زملائي الذين يسيرون على هدى اللوحات. منذ البداية لم تكن لديَّ أزمةٌ في قبول أنّ الحقائق تتغيّر على مدار التاريخ، وأنّ الأهواء والمصالح لها عامل أساسي، وما أسوّيه في «كتاب الأمان» في طبعته الثانية خير مثال على هذا، وبالتأكيد لم تكن لديّ حساسيةٌ في قبول أنّ ما أعتقده حقيقة يراه غيري أكاذيب، لكن جوهر الأزمة تلخص في التفرقة بين ما هو معرفة وما هو حقيقة، ليس هناك من وحدة قياس مثلًا يمكنها تحديد أنّ هذا جرام معرفة وذاك طن حقيقة، على هذا كنت أرى الجملة مبنية على خطأ فادح، مشوبة بعيب البلاغة وهو ما لا يتّسق وهدفها، والشروحات التي حصلت عليها مجرّد تلاعب بالألفاظ لا أكثر...

«المعرفة أرقى من الحقيقة لأنّها معلومات خالصة لم تدخل على مصنع إيديولوجي لوّثها بمكوّنات من عنده لمضاعفة حجم المنتج».

«المعلومة وجودك، وما أنت عليه الحقيقة».

مصطفى كان يبدو كمن يفهم الفارق، لهذا كان يغرقنا، كما يرى العدل، بالحقائق بدلًا من المعلومات، ما أحال القضية إلى شأن فلسفي مثلما أشار لطفي مبكّرًا، وهو بذلك كان يسخر من المكان ومن الأسس التي قام عليها، أذكى من اللجوء إلى الصمت لكنّه لا يقول شيئًا في الوقت نفسه، وخاصّة

في الموضوعات التي يفضل عدم الحديث عنها، ومن بينها سفره وعودته وما تلاه مباشرة على صعيد علاقته بزوجته ووفاتها.

السيدة علية الموظّفة في مركز الإحصاء والتعداد. لم تكن تشكو من مرض ما، والأزمة القلبية التي فاجأتها، بعد عودته بأقلّ من عام، والمدوّنة على أنّها سبب للوفاة في شهادة رحيلها، غير مقنعة، الأزمة القلبية سبب عامٌّ للموت، لكن ما الذي أدّى إليها، هل تخلص منها، لماذا؟ هل كانت عائقًا أمام تنفيذ مشروعه؟ ألم يحتمل رفضها له؟ وزهدها فيه واحدة من المعلومات القليلة التي استنتجناها حول علاقتهما بعد عودته. هل تصدّت للطريقة التي اعتمدها لتربية ابنته؟

> يحررك السفر من الارتباطات، الأشياء لا تعود كما كانت مهما بذلت من مجهود ومهما صدقت نيّتك في الاندماج.

هذا ما قاله لنا، إضافة إلى تلميحات أخرى لا تكفي لبناء تصوّر عن تلك الفترة من حياته. على هذا سيكون من المُهمّ الإشارة إلى أنّ هذا الفصل الذي يعالج سفره وعودته يعتمد على تأويلٍ ما أدلى به لمحاولة تتبّع التغيّرات التي طرأت عليه، مع التأكيد على أنّ تلك المحاولة مكتوب عليها النقصان فقد نجح في إحاطة أفعاله بالغموض، بل وعلاقاته الاجتماعية، كان واضحًا أنّ لديه خطّةً في التعامل معنا، أعطانا بكرم ما نريده، كمًّا هائلًا من المعلومات، أرضت العدل والإدارة والأعلى منهما في البداية، ثم أدركوا بحكمة السلطة أنّ استمراره بينهم، حتّى وإن بدا أنّهم من يملكون مصيره، لا جدوى منه إلّا استنفاد قوّتهم، ووصوله إلى قلب المفاعل.. كنت مثل فَيروس في المقهى وهو فَيروس في قصرنا.

من المهمّ أيضًا إبرازُ حجم تدخّل حسناء الجادّ في هذا الفصل بالذات. وما يحيرني في هذا الخصوص.. هل أنا مضطر للاعتذار من قرّاء الطبعة الأولى أم الثانية؟ أم أنّي لستُ ملزمًا باعتذار لأيٍّ منهما على اعتبار أنّ...

«الحقائق تتبدل طوال الوقت».

أو أنّها في الأصل ليست موجودة ونحن مَن يخترعها ويُضفي عليها تلك الصفة. الطبعة الأولى من «كتاب الأمان» قدّمت مصطفى كفحلٍ جنسي، وأظنُّ أنّ محبِّي الأدب الإيروتيكي سيستمتعون بقراءة هذا الفصل من الطبعة الأولى، ففيه تفاصيلُ عن العلاقة بينه وبين زوجته، ومغامرات له أثناء سفره مع واحدة من الفتيات في أحد بلدان الله التي لا خبرة لنا بها، حيث ما زالت النساء يصدِّقن أنّهن لم يجئنَ للعالم إلّا لإمتاع سيّده الرجل. ومع أنّ حسناء تمكّنت من دفعي لاستقباح تجرُّئي على خصوصيّات بيتهم، حتّى أنّي لا أطيق رؤية الكتاب الآن وأتمنّى اختفاءه كأن لم يكن، لكنّي أجد نفسي ملزمًا بإيراد شيء ممّا جاء في الطبعة الأولى حول العلاقة بين مصطفى وزوجته قبل سفره...

«بعد أن تغفو حسناء تنفرد الأمّ بنفسها. محظوظة باختياره لها وهي الموظّفة البسيطة، انتهت من تعليمها وأغلقت الكتب، بينما يشقّ طريقه ليصبح أستاذًا جامعيًّا، يبدو لها أنّه يعرف كلَّ شيء. فكّرت مطولًا: لماذا اختارها تحديدًا؟ ليست على هذا القدر من الجمال الذي يخفي اختلاف المستوى الثقافي، أسرتها ليست ميسورة ماديًّا بما يمكن معه تصديق ما طرحته الخالة.. أنّه يطمح في مساعدةٍ تُعينه على الصمود عامين ليتمكّن من إنجاز مشواره ونيل درجة الدكتوراه. أمّا الأكثر غرابة أنّه يحسدها على وظيفتها. لا تصدّقه، تعتبره كلامًا لَبِقًا، ما المثير في تسجيل أعداد المواطنين! كيف لأستاذٍ جامعيٍّ تمني وظيفة إحصاء وتعداد، استغلق عليها أن...

«اكتشاف حياة الناس.. كنز».

ولا تدري كيف تستجيب لطلبه وتحكي له عما رأته في البيوت التي زارتها، لا تملك مهارته، يمكنها أن تحدثه عن نفسها، عن شوقها ليفتح لها أبوابه الموصدة، لكن كيف تتحدّث عمّن لن تعلو علاقتها بهم فوق زيارة لن

تتكرّر، وإن حدث فلن تتذكّر أنّها مرّت. البيوت متشابهة كما سكّانها، مجرّد أرقام وأسماء في سجلّها.

لم يكن لديها مقابل انتقائه لها سوى أن تحبّه كما لم تحب امرأةٌ رجلًا من قبل، بلا شروط ولا أسئلة. لكنَّ سفره منحها وقتًا لطرح ما كان وجوده يمنعها من تدويره في عقلها، والإجابة كانت لديها إنّما الانجراف وراء الشهوة عَمَاها.. آلة جنسية يلعب بها، ليس لديها خبرةٌ بالعُقد الجنسية، لكنّها امرأة، وإذا كانت لمساته قبلًا تخدّر عقلها، فهي الآن وحيدة، جسد متعطش، ناقص، يحتاج إلى الاكتمال ولا يجد من يُعينه. والحاجة قبل أن تكون مبرّر الاختراع فهي صاحبة الحقّ الأصلي في الوعي.

في البداية سيطر عليها الشعور بأنّهما يرتكبان محرّمًا. معلوماتها الجنسية مبهمة كما حال معظم البنات اللاتي تعرفهنّ، مجرّد مزاح مستور يتوقّف قبل الولوج في العمق، تعتقد أنّ الجنس ضريبة ملزمة للنساء لقاء حُلم الأسرة. كلّ رجل يفرض ما يراه مستحقًّا على امرأته، تأهّبت راضيةً منذ البداية لتأدية ديتها الخاصّة، تصوّرتها بأشكال مختلفة، لكنّها لم تتخيّلها هكذا، عريها أمامه لا يتوقّف عند الملابس، يتحكّم في جسدها كما لو أنّه خالقه، لم يستغرق وقتًا ليكتشفه، بدا أنّه يحفظ خريطته، أو أنّه وضع له خريطة تتّبعها روحها بطاعة. يقول لها عند المداعبة، وعندما لا تملك نفسها، أنّه يلاعب الدنيا ومستقبله، أنّ غدهم سيكون أفضل، وكأنّه أمرٌ خفيٌّ بألّا تمنعَ شيئًا، مستقبلُه مرهونٌ بما تبذلُه في السرير. عوّدها على طقس المداعبة وإن لم يؤدِّ إلى ممارسة مكتملة، علّمها أنَّ النشوة المبتورة يظلّ صداها في النفس والجسد وقتًا أطول، الوصول إلى الذروة لا يقتل اللذّة فقط بل أيضًا يجعلهما غير قادرين على التواصل ليوم أو يومين بعدها، في اللحظة الأخيرة يؤجّلان التخلّص من تلك الطاقة حتّى يصلا لنقطة اللا عودة، ساعتها تشعر أنّ الأمر لن يمرَّ بسلام، مع ذلك الاندفاع العنيف تغادر المساحة الضيّقة، تتحرّر روحها وتحلّق فوقها.

لكنّ استمتاعَها معه لم يمنع ذلك الضيق من التراكم ببطء، تكاد تكون عبدته، السرير هو المساحة المتاحة أمامها للاقتراب منه، غير ذلك يقرأ أو يكتب، شخصية مختلفة.. مُهذب ومحايد ومجامل بما لا يليق بما يرتكبه معها في المساء. غريزتها أرشدتها لجسر يصلهما.. أن تكون مثله خالقًا، فاعلًا وهو المفعول به، داومت على اكتشافه، لكنَّها تستسلم أمام مناعته تائهةً وسط قدرته اللا محدودة على الطيران بجسدها، ومع الوقت خمّنت السرَّ، جسده بدأ في تقبّلها لما تخلّصت من التعامل مع الأمر على أنّه دينٌ يجب ردُّه، تعلّمت أن تشتهيَه. لكن في اللحظة التي خبرت فيها اللعبة.. قرّر السفر.

عندما عاد أخيرًا اكتشف أنّه لم يعد ينتمي إلى أيِّ مكان، زوجته اختارت الموت بدلًا من التأقلم مع تغيّراته، جسد وروح رفضاه منذ اللحظة التي فتحت له فيها الباب. ابنة في حاجة إلى إعادة تأهيل لتهتدي إلى ما يعنيه التواجد في هذا العالم، راغبة في الحياة كأيِّ حيوان لا يشغله أنّه سيصير ترابًا، كيف يمكن إفهامُها أنَّ التخلِّي طريق الامتلاك، أنّ الحبَّ طريق مفروشة بالكراهية، والألم وسيلة وحيدة لنحسَّ بالسعادة.

أول ما نطقت به زوجته بعدما أنهت فترة صمتها...

«رجعت ليه؟».

لم يكن عتابًا، ولا طلب اعتذار عمّا راح، أو عن القرار الفردي الذي رماها به مغادرًا دون منحها فرصة، ولا عن انقطاعه طوال هذه المدّة إلّا عبر اتصالات يتيمة متباعدة تبلغها أنّه ما زال حيًّا، وقد انتقل إلى أرض أخرى. وراء السؤال كراهية لم تبذل مجهودًا في إخفائها.

كيف يشرح لها أنّه غادر مدفوعًا وعاد كذلك، أنّ قوّة أكبر منه تملك نفسه وروحه لا يمكنه ردَّ ما تأمر. ستقول إنَّها لم تعد تريده لا هو ولا القوّة التي تتحكّم به. تبحث عن أسباب واقعية وهو لا يتقن تقديمَها، مع ذلك

فقد حاول جاهدًا، وطلب وقتًا، استحلفها بما كان بينهما غير واعٍ أنّ ما يستحلفها به هو تحديدًا ما يباعد بينهما الآن، هو ما جعلها تتخفّى وراء الملابس الفضفاضة فلا يبين لها ملامح ثم ترى ذلك ليس كافيًا أمام رنوه، فتضمّ ساقيها بقوّة كلّما هاجمتها رائحته الذكورية. لكنّها رضيت مع ذلك، جزء منها لا تملكه يرغب فيه وفي شكل مختلف للعلاقة، فقط اشترطت ألّا يقربَها، يمكث في البيت، إن شاء، يشاهد عبث الزمن بها. قبل اللعبة بلا حساسية...

ليس ضروريًّا كيف تلعب.. المُهمُّ أن تنتصر.

يتحدثّان كصديقين، يحكي لها ولابنته عمَّا مرَّ به...

الحكايات أقصر الطرق لامتلاك القلوب.

ينتظر المغفرة.. ولن ينالها.

بعد أعوام الانتظار أغلق جسدها على نفسه منافذه، عادت إليها هواجسها.. ورقّة الزواج لا تبرّر العُهر، هو صنع منها عاهرةً ثم هجرها، قرّرت ألَّا يمسَّها بعد ذلك أبدًا، تركته وحده بعدما عاد علّه يفيق، لكنّه يجلس كربٌّ مهزوم، ملك يفتقد الزهو بانحناءات عبيده. لن تتحمّل انكساره طويلًا، وصوت يحذرها بأنَّ في هذا نهايتها.

اليوم فقط، وبعد شهور دعته للعودة إلى فراشه، بجوارها، وكطفل استرد لعبته انطلق يلهو.. فارسًا في الغرام، كانت تأمل أن يكون قد نضج وأدرك أنَّ قدراتِه التي يباهي بها لم يعد لها قيمة عندها.

لم يكن الأمر قطّ مثل ما مضى، عندما مال عليها هامسًا أنَّ خمسة أعوام لم تغيّرهما، والأمس كاليوم، ودّت الردَّ...

«أنت أغبى أستاذ جامعي في الدنيا».

لكنَّها لم تستطع النطق. الأمس ليس اليوم، ومهما بذلت من محاولات

للتصديق يبقى الشعور بالمهانة أقوى. أحسَّت بنقصان الهواء الذي يدخل رئتَيها، ليس الهياج الجنسي كما سَيَرِدُ على ذهنه. دقّات قلبِها تتباطأ تدريجيًّا مثل عربة متروكة على راحتها حتّى تتوقّف. برودة هائلة تتملّكها فيرتعش لها جسدها.

«أنا باموت يا مصطفى».

قبَّلها على خدَّيها وشفتَيها، يتذوّق طعم دموعِها الذي لم ينسه طوال سفره. لم يخطر على باله أنها تعني حرفيًّا ما تقول. جسدُه الممدّد على جسدها هو ما نبّهه إلى أنَّ خطأً ما قد حدث، همدت تحته. شال وجهه المتروك على الوسادة بجوار رأسها يتشمّم رائحة شعرِها ويصبّ في أذنها غزلًا من القديم عن حلاوة جسدها، لم تضحك ضحكتها الخجلى المعتادة، صامتة وساكنة بشكل مريب. دارت الفكرة في ذهنه لكنَّه أبعدها متوسِّلًا في قلبه ألَّا تكون ارتكبتها، ألَّا تعاقبه بتلك الطريقة.

لا شيء يماثل وجه امرأة منتشية بالجنس، لا شيء يماثل أن تكون ربّها الذي ينحت تلك التعابير على وجهها. ماذا أنا الآن، ربٌّ قاتل؟

استلقى بجوارها وقضيبه المنتصب يغضبه منها. فكّر لحظات في مضاجعتها على تلك الحال. بدت الفكرة مهينة، غير إنسانية، بدلًا من الحزن لا يرغب إلَّا في إطفاء شهوته. لكنّه عاد مثلما يفعل لتقليب المسألة في رأسه محاولًا إيجاد مبرِّر قويٍّ يحافظ به على انتصابه. عدم تجاوبها المانع الأساسي، والتجربة الجديدة المحفز».

كنت وحسناء قد ناقشنا كلّ ما جاء في الكتاب ودوّنت التعديلات التي تراها ضرورية، وذلك بعد جدالات هزلية لا غرض منها إلّا التظاهر بأنّي أنقدها ثمنًا مناسبًا لما سأنال. لكنّنا لم نقترب على الإطلاق من هذا الفصل، وتمنّيت أن نستمرَّ في ذلك، أن يمنعها الحياء مثلًا...

«أحقر تصوُّر لعلاقة بين زوجين.. خيال مريض بجدّ».

«أنا محترم حقك في الغضب. إنّما ما كتبته لا يمكن وصفه بـ «الخيال المريض»، أصلًا لا توجد تسمية كهذه، وحضرتك لستِ طبيبةَ خيال لتصدري تقريرًا طبيًّا بهذا. تخيّلي لهذه العلاقة كان محاولة لتقديم مصطفى بصورة يمكن استيعاب أفعاله معها، لن تقف أمامه محاذير من اختراع غيره. وحده سيجد الأسباب التي تقنعه بهذا الفعل أو الامتناع عنه، ولن يقوده في ذلك إلّا التجربة قبل القانون أو العرف أو التقاليد وغير ذلك من مسمّيات».

«على هذا وبعد أن جرّب السرقة، والنوم مع ميتة، كان المفترض أن ينتحر فهذا ما تبقّى له من تجارب!».

«طبعًا، لولا أنَّ الانتحار طريق باتّجاه واحد».

«تعرفي أن أخيل نام مع بنثيسيليا بعدما قتلها؟ أكيد عارفة».

«يا سلام! وعلى هذا المفترض إني أكون مين.. هيلين!».

«وفي هذه الحالة انت تكون مين؟ هوميروس!».

«لازم تحذف مشاهد الجنس المبتذلة والمريضة، راعي انك بتتكلم عن ناس موجودة مش رواية. أنا مستعدّة أقدّم لك حكاية عن مصطفى، وأقترح تبدأ بها الفصل»

«إن كانت مقنعة».

«حكايتك أنت غير مقنعة، و.. مزيّفة. حكايتي على الأقلّ حقيقية».

«الحقائق نسبية».

«من فضلك لا داعي للاستفزاز، هذا كلام يروّجه الفاشلون للتغطية

على قدرتهم الضعيفة في الوصول للإجابات. وحتّى لو وافقتك، إنّما الدوافع بالتأكيد لن تكون نسبية، حكايتي ستتضمّن في متنها مبرِّرًا لما قام به مصطفى، وهذا من نقاط الضعف الرهيبة في كتابك.. أنت لم تشرح للقارئ السبب في هذا التحوّل».

«ربّما تعمّدت هذا، تركت لكل واحد إيجاد الدوافع».

«لن يستوعبوا هذا.. سيعتبرونه عجزًا أو قلّة حيلة، صدّقني».

«طيب ممكن أسمع الأوّل وبعدها أقرّر».

«هل ندم مصطفى على قرار السفر؟ لم يخسر شيئًا سوى شعور الألفة الذي كان رفيقه في تمشيّاته الليلية، منذ عاد لم تعد لديه القدرة على الخروج من منزله بعد العاشرة ليلًا، أصبح يهاب الليل، مرتابًا ممّا سيفاجئه فيه، الناس تغيّرت، أصبحت أكثر حدّة وعدوانية. الليل كان من قبل رفيقَه وأنيسَه، عندما لا يكون هناك سواه مع بعض العساكر الذين يحرسون المواقع المُهمّة، يتبادل معهم التحية، يعرفهم بالاسم، يقف عند زواياهم وأركانهم يخفّف عنهم ثقل الوقت، يفتحون له صدورهم، يسمع مئات القصص عن الحنين إلى الأهل والأرض البعيدة، يأتون من قرى نائية ليتسمرّوا في أماكن محدّدة لسنوات، يفرحون بمراقبة نمط عيش مختلف، لكنّهم ليسوا جزءًا منه، لا أحد يبالي بهم، كلّهم متشابهون في ذلك الزيّ البائس، لا يسمع الواحد منهم اسمه إلّا في طابور الخدمة، غير ذلك فهو «دفعة» و«عسكري».

ليس في الليل بعد سوى القطط الشاردة التي تبدأ التجمّع وفق توقيت متّفق عليه مع امرأة تطوف بسيارتها لتطعمها. تَتَبّعها حتّى عرف المسار الذي تسلكه، تأتي من الزمالك نزولًا إلى شارع 26 يوليو، تتوقّف فيه مرّتين، الأولى بعد الكوبري مباشرة، بجوار محلّ شهير للكبدة يخدم زبائنه إلى طلوع الفجر، يخرج عاملون فيه يرجونها الابتعاد ولو مسافة صغيرة، لا تلتفت ولا تسمع، لا ترى سوى قططها، يتركونها بهمهمات تلعن الجنون،

والأثرياء الذين يشفقون على الحيوانات والبلد مليئة بالجوعى. في وسط البلد، تتوقّف في ثلاث نقاط لا تتغيّر، شوارع مخفيّة لا حركة فيها لتكون براحتها مع قططها. يفرغ صندوق سيّارتها من الطعام فتغادر بسعادة تكفيها حتّى اليوم التالي. يسير هو حتّى ميدان العبّاسية، يدقّق خلال المسافة فيما سبق له أن رآه.

طيفها، رافقه خلال سنوات هجرته، ما قصّتها، كيف تحيا يومها، تنام طوال النهار وتستيقظ في المساء لتعدّ طعامهم، هل هذه علاقتها بالدنيا! هي مبرّر أوبته، تمكّنت من البقاء في ذاكرته برغم أنّه تقلّب في البلاد حتّى كاد ينسى أرضه، رأى وجوهًا وعاداتٍ تصارعت داخله حتّى لم يعد عارفًا موقعه وسطها، من كثرة الارتحال لا يرى نفسه إلّا في طريق يجري أو معلّقًا على سحب تأبى إفلاته، ذهب إلى بلاد لن يفكّر أحد في ذهابها، رأى ما تخيّله وأكثر، جبالًا ينزل الماء من أعلاها يشقّ طريقه بين الصخور، ماء يجري من آلاف السنين، يتجمّد في الشتاء داخل كهوفه ثم يعود للجريان في الصيف، دون أن يهدر نفسَه، يلفّ في حلقة دائرية ليعود إلى منزله مرّة أخرى، يملك عقله الخاصّ، صعدوا به ليبيت ليلة هناك، له حفنة من الماء ملء كفّه لا يزيد عليها، يقدسون هذا الماء ولا يسمحون بالاقتراب منه إلّا للخاصّة، حفنة الماء سترشده، تجري في جسده تطهّره من الشكّ. قالوا إنّه يستحقّها، ولم لا وقد كاد يصبح واحدًا منهم، نسي أنّه جاء مبتعثًا ليهديهم إلى الطريق الحقّ، عضوًا في جمعية يموّلها أغنياء، واحدة من الوظائف التي شغلها وتركها سريعًا قبل أن يصبح موظّفًا يكتب تقاريرَ عمّن تاب ومن لم يَتُب، أعطاهم المكافأة المقرّرة لمساعدتهم إن قبلوا الصفقة وتركهم إلى حالهم.

تعلم كيف على الرجل أن يكون راسخًا مثل تلك الجبال، باردًا كالهواء الطائف عليها، سريعًا وحازمًا مثل الخيول التي امتطاها للمرّة الأولى، عرف مواصفات أخرى للرجال لا تشبه تلك الوادعة التي تربّيها نسمة العصاري على النيل».

«طيب. الحكاية لطيفة، إنّما ما هو الدافع».

ببصّة محذرة...

«من غير تهريج».

صمت مفتّشًا في القصّة عمّا خفي...

«فعلًا لم أجده، يمكن الغلط من عندي وليس من القصة، إنّما هذا ما حصل».

«مستحيل! وبتقول عن نفسك كاتب! بجد شغلانة غير مناسبة لك إطلاقًا. والدافع واضح جدًّا».

مسيطرًا على أعصابي ما أمكنني...

«تكرمي يعني ووضحي.. من غير غلط».

«القطط».

«أفندم!»

«القطط.. واضحة قوي».

«قصدك إنّه تحوّل من أستاذ جامعي محترم إلى لصّ بسبب القطط؟».

«بالظبط».

«ازّاي يعني؟».

«فكّر فيها».

لماذا رحل مصطفى؟ إلى أين ذهب؟ كيف قضى سبع سنوات؟ كان ذلك مهمًّا بالنسبة لنا كجهة تحقيق للإحاطة بالتغيّرات التي طرأت عليه، ما المكان الذي يذهب إليه الناس ليعودوا على تلك الدرجة من الخطورة! فيما بعد سنستقبل العائدين منه مع تصنيف جاهز...

«ينتفي لديهم الإحساس بعقدة الذنب من الخروج على القانون. ما يمنحهم القدرة على ملاعبة القائمين على تنفيذه بحيل لم تخطر على البال.

لكي تنال النعيم لا بدّ من المرور على الجحيم، نحن محكومون بذلك، بكلّ ما هو أرضي ودنيء. هناك أشياء لن تفهمها إلّا بعيدًا عمّا عهدت، ليس الأمر أنّك فقط تحظى بوقتٍ كافٍ للتأمل، لكنّ منازعة الحنين والرغبة في الراحة يعني امتلاك رضًا لن يزول. تولستوي له قصّة تحكي عن رهان جرى بين مجموعة سكارى، أحدهم تحدّى أنّه بقدرته قضاء عشرين عامًا بمفرده، كانوا سكارى إلى الحدّ الذي نفّذوا به رهانهم، في اليوم التالي وضعوه في حجرة معزولة في حديقة منزله وأغلقوا عليه الباب، ثم بعد أسبوع جاءوا إليه وقالوا خلاص يكفي هذا وكأنَّ الرهان لم يكن، رفض، ربّما كرّروا المحاولة بعد ذلك، بالطبع فكرة مفزعة، لكنّه رفض وصمّم أن يتمّ الاتفاق. في البداية كانوا يسمعون صراخه وضحكاته وكلامه، ثم طلب أدوات تسلية، وبعدها بدأ يطلب كتبًا، في كلّ المجالات والعلوم، ثم بدأ صوته يخفت فلم يعد يهذي. في نهاية المدّة المقرّرة، جاءوا إليه ومعهم المال قيمة الرهان، لكنّهم ما إن فتحوا الباب حتّى انطلق جريًا هاربًا منهم إلى غابة قريبة تاركًا ما يملك وراءه.

كلّ الكتب في ذلك الوقت كان لها وظيفة واحدة.. تَلقِينُنا مجموعةَ الأخلاقيات والمبادئ التي ينبغي التزامها. المعنى الفجّ للقصّة، وربّما الوحيد.. المعرفة لا تستقيم مع الحياة، وتلك رسالة كانت شائعة جدًّا زمن شبابي، لا بدَّ أن تكون زاهدًا، الامتلاك خطيئة. بالطبع هذا أثبت زيفه، ليس فقط لأنَّ مُروِّجيه كانوا كذبة، إنّما الأهمُّ أنّه لا يمكنك انتزاع ما خُلِقَ الناس عليه، الطمع والغرور والأنانية، صفات لها حقُّ التواجد مثل التواضع والتخلّي والإيثار. ما الذي يمكنه أن ينتج عن الصراع بينهما هذا يعود إلى كلّ فرد، المبدأ أنّه لا يجوز أن أحرمَك حقّك في ارتكاب الخطيئة. وبرغم إيماني فيما بعد

بخطأ كثير ممّا كنت أقرأ إلّا أنّ المثالية لا يمكن انتزاعها إلّا بمشقّة. لهذا رغبت في الرحيل، لأحطّم ما بقي من تلك القيم الأخلاقية الكاذبة، كان الطريق لكي أستردَّ إنسانيتي».

عاد مصطفى إلى التدريس في الجامعة بلا توقّعات كبيرة، لكنّه لم يتوقّع تحييده تمامًا...

هذه سمة عصرنا، عندما تكون موهوبًا ولست تابعًا تقصى، مكانك في الهامش، يتركونك حتّى تتعفّن من فرط الإحباط واليأس، الشكّ في إيمانك بذاتك، هل أنت هكذا كما تتصوّر نفسَك، أليس من الوارد أنّه وهم، أنت مثل أيّ آخر، طموحاتك وأحلامك ليست مميزة جدًّا لتشكو الظلم، عندما تلم بالأمور على وجهها الصحيح ستعرف أنّك واحد من ملايين عانوا، منهم مَن فهم بسرعة، ومنهم مثلك من ظلّوا على عنادهم فضاع منهم زمن كان يمكنهم الاستمتاع به.

لديهم القدرة على أن يوصلوك إلى الحدِّ الذي يختلط عليك فيه الأمر: هل تأتي الحياة أوّلًا أم الموت!

التضليل منهجنا وطريقنا، لا ثبات لمواعيد عمل، هذا يحدّده بالأساس انشغال الأمن بقضية أكبر.. تشريفة للرئيس. زيارة رئيس دولة. مباراة كرة قدم حسّاسة.

أحداث كهذه تعني أنّنا سنعمل بدون مضايقات، وحتّى في حالة الانكشاف تصبح عملية الهروب أكثر يُسرًا.

مصطفى إسماعيل

كتاب الأمان ـ النسخة الأصلية

(17)

الأربعاء. الخامس عشر من يناير للعام ألف وتسعمائة وواحد وتسعون. حدث في مثل هذا اليوم..

تخلّصت حسناء مصطفى إسماعيل من مكتبة أبيها بالكامل، لم يعد سوى الأغلفةِ بعد كشطِ اسمِه المطبوع بالحروف المذهَّبة. ربَّما لو لم يكن أنانيًّا إلى تلك الدرجة وأبقى على الكتب دون حشر اسمه وسط مؤلِّفيها لما تصرّفت هكذا، لكنَّ التاريخ علّمنا أنَّ الأعمال العظيمة يقف وراءها الغضب والرغبة المشتعلة في الانتقام. هو نفسه لم يكن ليفكِّر في طريقة أفضل لو اختار نمط حياة عاديًّا. فيما يتهادى شروق ألفية جديدة تمكّنت من إنجاز خطوتها المبدئية في عمل تظنّ أنّه لن يجد الاهتمام مباشرة، لكنّها توقن أيضًا أنّه سيصبح فيما بعد من علامات القرن الحادي والعشرين.

مطمئنة. لكنّ الرضا لا يكفي ليداري معضلة تكوّنت في المقابل. مع آخر «كرتونة» نقلها البوّاب، متنهِّدًا خلاصًا من العبء، بلا التفات لدوره التاريخي، أصبح لديها لعبةُ «بازل»، في حجم مدينة، تجميعها لا يستلزم مجرّد الجهد والإخلاص، إنّما الأهم الوصول إلى مركز اللعبة لتبدأ من خلاله الانطلاق عبر اتجاهاتها الأخرى. آلاف الأوراق تنتظر دورها لاختيار فقرات منها بعد أن أسعدها الحظّ وصعدت في التصفية التمهيدية كأفضل صفحات الكتاب الذي كانت تنتمي إليه.

درت من البداية بمقدار الصعوبة لكنّها لم تتخيّلها على هذا النحو، الآن تراها مستحيلة، تتفحّص الأوراق ومثل المؤلّفين العظام شعورها يتراوح بين الإحساس بالتفاهة والنرجسية. من كثرة العمل تداخلت الكلمات وتشابهت فغامت أمامها المعاني.

«الكلام هو ما تكون من كلمتين وأكثر وأفاد معنى تامًّا ويسمّى جملة مفيدة».

بعد ما قرأت تجد أنَّها في حاجة للعودة إلى دروس الصف الرابع الابتدائي للتأكّد من الأساسيات، لأنَّ المفيد نسبي. بماذا أفدنا أن...

«الشمس ساطعة»

و...

«نهض الولد للقيام بواجباته».

تسطع الشمس من آلاف أو ملايين السنين. مأزِق آخر.. منذ متى تسطع الشمس تحديدًا؟ تهرب منها المعلومات الأساسية، كلّ جملة تحمل فخًّا تستسلم له فيعطّل سيرها. تمدُّ لها النسبية يدَها...

«الشمس تخرج من مخبئها منذ أمدٍ طويل، والولد معها يقوم ليتمَّ واجباته. في كتاب اللغة العربية يسمّون تلك جملًا مفيدة وأراها ناقصة إلى حدٍّ مرعب. ماذا بعد أن نضج الولد؟ تزوّج، أنجب، ثم مات، لكنّه في الكتاب لا يزال ينهض دون اعتبار لأيِّ متغيِّرات. لغة كاذبة».

استعارات. الأمر مفهوم بالطبع. تلجأ إليها لإسقاط مأزقها على اللغة العربية، وعلى الكتب ومؤلّفيها. هي الولد، والشمس حرّيتها. حصلت حسناء على حرّيتها. عجزت حسناء عن التمتّع بحرّيتها. حسناء تائهة دون والدها الذي تمنّت منه خلاصًا. حسناء حزينة بعد وفاة والدتها مع أنَّها توقّعت رحيلها. هل تصلح تلك الجمل لتلخيص حالتها. هل هذه جملٌ مفيدة؟

أنفقت عامًا كاملًا من حياتها، فقط على تحرير الكتب وأفاقت متأخّرًا جدًّا إلى النتيجة، الجمل المبعثَرة على أرضية غرفتِها أفقدتها القدرةَ على التفكير المنطقي، الأغلفة لا تتوقّف وظيفتُها على حماية الكتب، هي أبوابٌ بأقفال تمنع اختلاط عالمها بالواقعي، لهذا كانوا يحرقونها قديمًا عندما يرغبون التخلّص منها، منعًا لتسرُّب الأفكار والتشبيهات.

تعيد قراءة الصفحات بقلب خائف، برغم تأكّدها أنَّ الاختيار تمّ بمزيد من العناية والتدقيق بحيث يمكن الشهادة بأنّها جمعت أفضل ما في كلِّ كتاب، تتمتّع بذوق سليم، ليست رومانتيكيةً ولا عقلانيةً، لم تتبع مدرسةً بعينها، اعتمدت على معيارٍ إنسانيٍّ يحاول التوفيق بين مختلِف المناهج، يُسيِّرها وعيُها بأنَّ هناك مَن سبقوها في الفكرة، «المجمعون» كثيرون لكنّها منحت نفسَها أفضليةَ الشمولية. من اجتاز هذا الدرب قبلها حصر عمله في موضوع بعينه، ما قيل في الحبّ.. الفكرة التي تحتلُّ الصدارة بلا منازع، وتأتي النساء والحياة تاليًا، ونادرًا عن الموت، ولا شيء عمّا يُتوقع بعده. لهذا فإنَّها تتحرَّك في كتابها بثقة، ما تمّ تجميعه من قبل تحرّكه الشهوة، ومهما ادَّعى أصحابه من سعي إلى المعرفة، بمعناها المطلق، تظلّ أعمالُهم شاهدة على انتقائية معيبة. ما القيمة المفترضة لكتابٍ يضمُّ أقوالًا عن النساء أو الحُبّ، ما الذي يفترض أن يتعلّمه منه قارئه، أن يصبح ماهرًا في اصطياد القلوب؟! يصمُ نفسَه بعدم الاكتمال من يظلّ عمرُه باحثًا عمّن يحبُّه. ولماذا لم تقم امرأةٌ بجمع ما قيل عن الرجال، هل لأنَّهنَّ يعتبرونهم أقلَّ درجة، أم لإدراكهنَّ أنَّ هناك الأكثر قيمةً من الجنس والحُبّ؟

من جديد وجدت مبرِّرًا لتحمد اللهَ على أنَّها امرأة، وبعقلٍ موزون، لولا ذلك لما تمكَّنت من تحييد شهوتها، لما ترفعت عن الانتقام من أبيها، والالتحاق بطابور يتزايدُ عددُه باضطراد من نسوة يؤنِّبن العالم بفظاعات يتمّ تهويلُها وتضخميها. لكنّها اختارت أصعب الطرق، انتقامُها شأنٌ شخصي، أمّا كتابُها فأبعَدَ في هدفه، لهذا ليس له موضوعٌ واحد، ولا فرع بعينه من

فروع المعرفة، موضوعه «الحقيقة»، ووسيلتُها إليها كلّ مَن كتب حرفًا له قيمة في التاريخ البشري، في الجغرافيا، والتاريخ، والشعر، والرواية، والفلك، والسحر، والرياضيات.. كلّ شيء.

لم يكن تجميع الصفحات بالسهولة المتخيّلة، أن تختار من كلّ كتاب مجرّد صفحة فلا بدّ أنَّ في ذلك مشقّةً غيرَ اعتيادية، كثيرًا ما وقفت أمام صفحاتٍ عدّة حائرة.. أيُّ الصفحاتِ أفضل؟ بعضُهن يعجبنها لتدفُّق المشاعر، وبعض آخر لقوّة الحدث، وثالث لأنَّ اللغة من الإحكام بما لا يمكن تجاهله.. وصلت بعد تفكير مطوّل إلى أنّه لا بدَّ من معيار، لا يقع عليه خلاف، يحكم عملية الاختيار.. عندما تفرغ من مشروعها لا بدَّ سيوجَّه لها سؤال عن ذلك. تتخيّل الشهرة التي ستأتيها، وهذا ليس عيبًا بخلاف التواضع الكاذب. حزرت أنّ عملها سيَلفت الانتباه، وأنّ حجم المناقشات حوله، والهدف منه، وقيمته، سيكون واسعًا، وسيصبح فور صدوره ضمن الأعمال الأساسية لمن يريد خلاصة التاريخ الإنساني. بالطبع هناك نقاطُ ضعف ستفاجئها، أنّها نسيت بعض المؤلّفين، أو حتّى حقبة بأكملها، أو لم توازن بين ما قدّمته كلّ حضارة.. لكن مع ذلك فإنّ الفكرة نفسها لا خلاف على قيمتها وضرورتها وحداثتها.

الطريق كانت طويلة قبل الاهتداء إلى ما يشعرها الآن، برغم شكوكها، بالعظمة والاختلاف عمّن سبقها. مثل الجميع بدأت الفكرة بموضوع واحد، وبمجال واحد كذلك، بل ويمكن القول إنّ ما انتهت إليه نتاج فشل ليس إلّا، الفكرة المبدئية تلخّصت في جمع الشخصيات الروائية في رواية، الحالمين والمجرمين والثوّار والعاهرات والمكافحات والتعيسات، الفرسان والنبلاء، اللصوص والقوّادين، القدِّيسين والمجانين، أيّ شخصيةٍ لها قوّة ما في العالم الروائي منذ كتب الإنسان هذا الفنَّ. أرادت أن تقيم منهم حياة موازية لما نعيشها. لكنَّ الأحلام يسيرة مهما بلغت درجة تعقيدها وطموحها، تبدو برَّاقة ورائعة في الذهن، لكن وعند مباشرة التطبيق تأتي

الصعوبات. لم تكن العقدة فقط أنّ مصائر الشخصيّات مختلفة، والوقائع لا يمكن دمج بعضها ببعض، الأصعب في الرؤية خلف كل رواية، كيف يمكن دمج مئات الشخصيّات دون تنافُر، ودون تدخُّل منها، كانت تريدها مثل الحياة تجري سلسةً ويسيرة دون أن تبدو على ساحتها القوّةُ العليا المحرِّكة لها.

عندما تنجح في لضم فقرتين لكاتبين ترقص في أرجاء شقّتها منتشيةً بعبقريّتها وقدرتها، تعاود العمل على أمل أنّ الطريق أصبح ممهّدًا لكن الأزمات تستمرُّ في التوالي، تتنافر الرؤى والصياغات، لا ينسجم المشهد الثالث مع الثاني أو الأول. دخول بقيّة المعارف ضمن متن الكتاب جاء ليضع حلًّا لعدم التناسق، أصبح من السهل أن يكون لديها معنًى ما.

يقول دون كيخوته...

«يا صاحبي، إنّ أثمنَ ما منحته السماء للإنسان من نعم هو الحرّية لا ريب في ذلك، وكلّ الكنوز التي تنطوي عليها الأرض أو التي دفنت في البحار لا يمكن أن تساويَها. ولأجلها، ولأجل الشرف ينبغي أن نخاطر بالحياة. وضدّ الحرية، وهو العبودية الخانعة، هي أكبر الشرور. لقد شهدت ما كان في ذلك القصر من رخاء وثراء ووفرة، والحفلات الفاخرة التي كانت تُقام: لكنّني أحسست، في وسط هذه الأطايب من الطعام الفاخر، ومن الشراب المنعش الممتاز، أنّني خاضع لقلق الجوع، لأنّي لم أنعم بكلّ هذه النعم بالحرّية نفسِها التي كانت ستكون لي لو أنّ كلَّ هذه الألطاف كانت ملكي. والعرفان بالجميل عن النعم التي تلقّيناها رباط يقيّدنا ويمنعنا من أن نكون أحرارًا. ما أسعد من منحته السماء كسرةً من الخبز، دون أن يضطرَّ إلى الاعتراف لأحدٍ بجميل غير الله تعالى».

بعد هذه الفقرة اختارت مدام رولان من عصر الثورة الفرنسية، تصرخ ضدّ اليعاقبة ورأسها يتدحرج تحت المقصلة...

«أيَّتُها الحرية.. كم من الجرائم ترتكب باسمك!!».

الحرّية قيمة أسمى. لا الحرّية وَهمٌ نسعى إليه لكنّنا لن نبلغه. المنهج الذي اختارته ألّا تدعم مبدأ في مواجهة آخر، كلّها ستتجاور بلا تخطيط، ومثل السحر فإنّ من سيقرأ عملها، فسينفك أمامه اللغز الذي يسعى إلى حلّه. على هذا أنجزت تقريبًا عشر صفحاتٍ من ألف كما قدرت، إضافة إلى مقدّمتها التي وضعت فيها هواجسها وأحلامها، ولأنّها ظلّت مرتابة في أنّ الفكرة ليست ملكًا لها وحدها، وأنّها تبني على ما فات، فقد بدأت كتابها من فقرة رواية «والدة» لفرانسوا مورياك...

«وتوقّف ابنها عن أن يقصَّ بمقصِّ أُمِّه ورقات من طبعة شعبية لحِكم الفيلسوف إبيكيت. ولأنّه كان فيما مضى طالبًا في مدرسة السنترال، فقد كان يعتقد أنَّ الكتاب الذي يشتمل على أهمِّ الحِكم التي أُلقيت، منذُ خُلق البشر، فقد يكشف له بطريقة رياضية عن سرِّ الحياة والموت. ولذلك أصبح همُّه كلُّه أن يجمع الحكمَ من مصادرها. وكانت تسلية القصِّ وحدَها تُعينه على الوقت كما كان في حال صباه».

فاجأتها تلك الرواية وذلك الابن. رواية صغيرة محشورة بين كتب ضخمة، استهانت بحجمها ولم تتوقّع أن تسبّب لها كلَّ ذلك الإزعاج. هي نفسُها تبحث من وراء عملها عن سرِّ الحياة والموت، لكنَّ ذلك الابن سرّب لها قلقًا عظيمًا وشيئًا من الإهانة، ليس لأن السرّ لم يعد له قيمة، أو للتشابه بين الفكرتين إنّما لأنَّ ما استنتجته من مورياك أنّ بطله محدود الوعي. المشغولون بما وراء هذا العالم يُصنَّفون بأنَّهم ممسوسون، ومع ثقتِها بزيفِ الاتهام وأنَّها محاولة لمنع هذه الموجة من الاتساع والتمدّد، فقد قرّرت إبقاء تعاطفِها مع المجانين الباحثين عن الأسرار الكبرى في الحدود المعقولة. كتبت في مقدّمتها...

«لست مثل بطل مورياك الذي يبحث عن سرِّ الحياة والموت، هناك أمرٌ

أعمُّ وأهمُّ من ذلك، الحياة والموت ليسا سوى لعبة صغيرة بعد انتهائها ستبدأ أخرى. بطل موریاك وكثيرون غيره مثل الأطفال ينهارون بكاءً عندما تتحطّم لعبتهم ظنًّا منهم أنَّها الوحيدة. أنا لم أحدّد ملامح للحقيقة، لكنَّ ظنِّي أنَّ كتابي لديه قدرةُ إرشادٍ كلّ شخص إلى حقيقة يبحث عنها».

الضحية سيكون صديقي المقرّب إلى أن تنتهي العملية على خير ويذهب كلّ منّا إلى حال سبيله. على مكتبي ملفٌ يضمُّ سيرة حياته.. عمره، هواياته، علاقته بزوجته وأولاده، مواعيد خروجهم وعودتهم، ما الذي يخفيه هو أو أي ممّن ينتمون له. والأهم.. أيّ من هذه الأسرار يمكننا توثيقُها بلا مجهودٍ إضافيٍّ كبير، ثم موازنة قدرتنا على امتلاك الأسرار دون أن تتحوّل لسبب القضاء علينا.

مصطفى إسماعيل
كتاب الأمان ـ النسخة الأصلية

(18)

«من قال إنّه لا بدَّ من وجود قوانين لنلتزم بأن يكون لنا مبادئ»

الجملة الافتتاحية في الطبعة الأولى من كتابي، صياغة مختصرة لأفكار مصطفى، لم أفكّر في احتمالية زيفها، مأخوذًا بقدرته على إيجاد توازن بين التمرّد والالتزام.. سيّرني الاعتقاد أنّه طالما استلبتك الكلمات فلا شكّ في صحّتها، قدرتنا على التحكّم فيها محدودة، ما نملكه فقط التهيّؤ لاستقبالها، تخرج من كهفها لتطوف باحثة عمّن يلتقطها، لا بدّ أن تعود وقد تبّناها شخص ما، هذا لا يجعلها تعاني من الظلمة بعكس رفيقاتها المهجورات. للآن لم أتخلّص من رومانتيكية الفكرة لكنّي أضفت إليها الوعي بأنّ أنوثة الكلمات تمنحها قدرة الخداع ولا بدّ من التأنّي والتفكير فيما تريده لأنّها، وبافتراض صدق نواياها، مثل النساء لا يفطنَّ لما يترتّب على ما يَقُلن من تبعات. أحلم أن يمنحني هذا شرف زيارة هذا الكهف واختيار ما يمكنني من تغيير قواعد الدراما التي استقرّت ولم يعد أحد بقادرٍ على التدخُّل بها لتصبح مجرّد ألعاب في السرد والتقنية، قد أجد جديدًا بخلاف المأساة والكوميديا والعبث، هذا يجعلني أهتدي للفن في هذه القصّة بعيدًا عمّا قد يدركه أيُّ أحدٍ عنها. الأفعال طاهرة في ذاتها لكن ما إن يقوم بها البشر حتَّى تتلوَّث، لو استطعت فصل ما قام مصطفى عن سياقه الإنساني ومدلوله الاجتماعي والسياسي، لوصلتُ إلى الفنِّ المكتفي بنفسه، بلا حاجة لتعريف

من خارجه، أو للغة خاصّة، قصّة لا تحكي عنّا وإنّما عن ظلالنا، عن الحياة الأخرى لنا التي لا يمكننا إدراكُها فنهجر متابعتها موهومين أنّها انكسار ذواتنا أمام الضوء. في هذه الحالة لن أبحث عن أسباب وتبريرات، ليس الفنُّ أن يكون اللصُّ هو الشريف، ولا من تبيع جسدها هي البتول، كيف فاتني أنَّ تلك الصيغة آن لها السقوط، أنّنا في حاجة للاعتراف بأنّنا نصنع من هلاوسنا صيغًا كاذبة تستقرُّ حتَّى تصبح كالحقيقة. كيف لم انتبه إلى أنّي كنت أسير وفق ما تنتظره مخيلة الكثيرين، صنعت بطولة وهمية لرجلٍ قد لا يكون كذلك على الإطلاق.

في الطبعة الثانية سأكتب قصّة حسناء ومعها الحقيقة المطلقة. سأعترف وأطلب العفو...

«كنت مغفّلًا، صنعت من لصٍّ بطلًا قوميًّا، منحته بطولة لا يستحقّها، كنت أبحث عن وسيلة للاعتراض، لشقِّ الصمت الذي وجدت نفسي مقيّدًا به، الذي كنّا ملزمين به بسبب ضيق المساحة.. البيت صغير لا يحتمل الصراخ».

الكلمة التي تردّدت على مسامع الطفل حتَّى ابتلع صوته، وعندما رحل الأبوان كان الأوان قد ضاع لاسترداد الصوت، الحركة لا بدّ أن تتمَّ في هدوء حتّى لا تنطبق علينا الجدران. من المسؤول عن اختيار نمط حياتنا بهذه الدقّة؟ صمت أصدقائي في المقهى جاء ليتمَّ ما بدأه الأهل، كأنّه لا فرار ممّا ولدنا فيه. لا فرح بـ «كش مات»، الأحمق من يفرح لأنّه، المسكين، لا يدرك أن لا شيء ممّا يحدث.. يحدث، لم يستدلّ على أنّ التواضع طريق إجباري للبصيرة. لكنّي الآن لا أريد سوى أن أكون ذلك الأحمق، أفهم لماذا تخلّى مصطفى في عمليته الأخيرة التي أسقطته عن كتاب أمانه وسرق بلا خطّة ولا استعداد، رغب في الشعور بالحياة حتّى لو عنّى هذا أن يحطّم أسطورته.

لحظة.. أكرر اعتذاري. أظنّ أنّي على وشك السقوط في الفخِّ نفسه مرّة

أخرى، أعود إلى قواعد الدراما القديمة والمحفوظة ثانية، أصنع أسطورة جديدة، هذه المرّة من الحماقة.

لماذا لا أعترف بالحقيقة المجرّدة.. مصطفى لم يكن سوى لصٍّ مثل أي لصٍّ آخرَ، فقط رغب في أن يكون أكثر احترافًا ودقّةً ومهارة، الكمال محرم على البشر، القدر يتدخل في اللحظات المناسبة لمنع الأفضل من الارتقاء، هو لم يفقد الأمل أن يكون المستثنى.

> حتّى إن كانت جريمة، فلا بدَّ أن تخلص لها، الجدّية أحد شروط وجودنا.

السيّدة العجوز تتسوّل في أحد مواقف الميكروباصات، تدور بين العربات تقف مستندة على بابها، وجهها في داخل العربة وجسدها في الخارج، السائق طلب منها الابتعاد...

«عاوزين نشوف شغلنا».

«ما احنا كمان بنشتغل».

ضحك الركاب لكنّها جادّة، هذا عملها. ليس مهمًّا كيف نراه، أو كيف سيتمّ تصنيفه في الحساب الختامي، المهم أنّها تعمل. هل تتبع تعاليم مصطفى؟ غالبًا سينتهي بي المطاف في مشفى للطبّ النفسي أعالج من الهذيان بسيرته، من رؤية الأمور حسب منظوره.

> أسوأ كابوس أن تحيا تحت ظلّ رجل خربت الكتب عقله، يؤمن بأنّه الأفضل، يسعى لأسرك لوعيه، أيًّا ما كان شكل هذا الوعي، لا يسمح لك بالخروج عن نطاق سيطرته، لحظة تمرُّدك تهديد لوجوده، لن يتحقق بغير ذلك، مثل الكواكب السوداء التي تحيا بالتهام ما حولها، طاقة سلبية تكبر بالمحو. وأي منهم ليس لديه استعداد لأن يواجه هذه الحقيقة المخيفة. أبي لا يختلف كثيرًا، فقط خالف القاعدة التي يمشي عليها معظمهم، هم انتقلوا من خانة التمرد إلى الطريق المستقيم

المنصوص عليه في التصوّر العامّ، أمّا هو، ولأنّ أكثر ما يكرهه أن يكون مثل البقيّة، فقد عكس الفعل.. من الالتزام إلى الحرّية كما تصوّرها، هناك عنصر واحد مشترك كما ترى، وليس مهمًّا كيف جاء التحوّل أو موعده وشكله لأنّك تكتشف أنّها حلقة واحدة.

أمارس مع حسناء ما فعلته مع أبيها، أعيد تدوين ما تقول، اعتبرت أنَّ ما يحدث بيننا يندرج تحت بند الاعترافات، سأنفّذ طلبها وأقرّ بأنّي خدعت الناس وأجعله اعترافًا علنيًّا بإعادة كتابة قصّة مصطفى على وجهها الذي تعتقده الصحيح، غير أنّها ستكون جزءًا أساسيًّا من الموضوع هذه المرّة.

«لم أكن صغيرًا إلى الحدِّ الذي أجهل معه أنَّ السرقة حرام، لكنَّ بخلَ أمّي علّمني الالتفات إلى «مَا مَتَّعْنَا بِهِ غَيرَكَ» وعليه أظنُّ أنّها شريكٌ أصليٌّ في الجريمة، وطالما لديكم هذا الولع بالأسباب أنصحكم بالبحث عنها وسؤالها عن ابنها، هذا إن وجدتموها فآخر عهدي بها كان عندما بلغت الثامنة عشرة، كانت قد حافظت على البقاء في البيت لأعوام حتى إنّي كدت أنسى حوادث هجرانها، حتّى جاء عيد ميلادي ذاك الذي اختفت فيه من دون وداع».

«وما علاقة الستّ الوالدة بأي شيء، أنت رجل في الأربعين، لماذا تتحدّث كأنّك مازلت ولدًا صغيرًا! إلّا إن كنت تقصد الخرافات المتداولة عن تأثيرات تربية الطفولة؟ ألا تدري أنَّ علم النفس تخطّاها من زمن!».

بدا العدل نافد الصبر فقاطع مصطفى مخالفًا قواعدنا...

«دعه يتكلّم ما شاء.. هذه وسيلتك للفهم».

أفضل اللحظات أحببتها في الاعترافات كانت عندما ينفصل المعترف عمّا حوله، عنّي وعن نبيل، عندما يتأقلم مع الغموض المحيط به، ينسى دهشته من الغموض، ويتواصل مع ذاته. تقنيّتُنا في التعامل تعتمد على طمأنة الخائفين ومنحهم الإحساس بالألفة، بعد هذا فإنَّ الإلحاح على السؤال وطرحه بكلِّ صيغه الممكنة يعمل كالتنويم المغناطيسي.

«هل تعرف إينجما؟».

ردَّ العدل بهزَّة موافقة من رأسه، وفعلت مثله...

«أمّي كانت مثل تلك الآلة المُعقّدة، تصرُّفاتها وكلامُها يجعلانها وكأنّها تنتمي إلى أقوام آخرين، أو حتّى حضارة غير معروفة، ربّما تكون أكثر تقدُّمًا لأنّها تعتمد منطقًا معقّدًا لدرجة تُخرج تصرّفاتها من نطاق العقل إلى الجنون...

صمت لحظات يستدعي ما يشرح به كلامَه...

«بخلها مثلًا كان غريبًا، مصدره ليس الشحّ وإنّما حبّ طفولي للنقود، تراها أوراقًا جميلة لا يجوز التفريط فيها، تعطيني الكثير منها شرط ألّا أضيّعها لنلعب بها في المساء، نفرشها على أرضية الغرفة ليربح بعضنا من بعض في ألعاب مختلفة. كان طقسًا رائعًا، لكنّ الكتاب الملوّن في المكتبة المجاورة لبيتنا كان أروع، خايلني طويلًا خاصّة مع رفضها شراءه، حسبما ترى لا يستحقّ أن نمنح مقابله للبائع نقودنا الزاهية، ثم إنّ لديها قصصًا وهي أفضل ممَّا في ذلك الكتاب».

«سرقته؟».

«يا عزيزي.. ما أحاول شرحه لك منذ بدأنا هذه الجلسات، أنّك لا تسرق ما هو ملكك، أو ما يفترض أن يكون كذلك. اوكي، دعنا لا نختلف، نعم سرقته، أو حاولت، فقد أمسك بي البائع، لم تكن لديّ خطّة وقتها».

صمت لحظات، ثم أضاف مبتسمًا...

«ربّما ما حكيتُه وهم، ربّما نحن الآن داخل أحد أحلام أمّي، أنا لم أفهم قطّ كيف كان عقلها يعمل، كنت أظنّ على الدوام أنّها على اتصال بكائنات أخرى، سمّها كما ترغب.. الجنّ، الأشباح، الفضائيّين. وهؤلاء كانت تستمدّ منهم طريقة حياتها، وحياتي».

في اللحظات الحرجة، عندما يقع طارئ ما يهدّد بكشف العملية، يصبح الوقت هو العدوّ الأوّل، لا بدَّ حينها من قرار واحد لا يتمّ مراجعتُه أو التشكيك فيه. لا بدّ أن تكون سريعًا ودقيقًا ليس فقط للاختيار بين طرق الهروب المتعدّدة، إنّما أيضًا للتنقُّل بين أكثر من شكل لها.. أن تكون خفيفًا ليحملك الهواء كريشةٍ حتّى إن رأوها لا يتمكنون من الإمساك بها.

مصطفى إسماعيل

كتاب الأمان ـ النسخة الأصلية

(19)

«النسوان عالم مدهش فعلًا».

تتقطّع جملة الورقي مع رجّة الميكروباص على جزء غير ممهّد من الطريق التي نقطعها لنصل إلى تلّ الفراعين. رمقته وجوه الركاب من حولنا ومنسوب رفضهم غير المحسوس لوجودنا، الذي راهنت أن تحننه الرفقة، يتصاعد، يندلق من العيون إلى الأفواه...

«عيب يا بيه.. سيرة النسوان مكروهة في الأيام المفترجة».

يعنفه السائق بعد أن أدار صوت الكاسيت للحدِّ الأدنى.

نحن أولئك «البهوات» الذين يأتون من العاصمة مهندمين للفرجة على مولد سيّدهم السنوي، أناقة الورقي غيرُ محتملة في ظلّ الاحتفال بذكرى رجل دانت له الدنيا فأدار لها ظهره.

«بسيطة يا أسطى.. سامحنا، ضيوف عندكم، وعلى أوّل طريق مولانا، بنتعلّم».

أنبني الورقي على تنازلي لكنّني لكزته ليصمت، خفت حدّة العدوانية. سيفكّرون بعد ما قلت إنّنا لسنا بالجهل الذي تصوّروه، مريدون لا يصحّ معاملتهم بخشونة، وجملة الورقي قد تبدو ترديدًا للمدائح التي تتناهى إلى سمعنا كلّما عبرنا قرية من القرى، اختار شيخهم الدسوقي غريبًا ليكون

رسوله ينقل إليهم ما لم يعرفوه من كلامه عن النساء، هذا أفضل من الظن بأنَّ كلّ ما ينشغل به أحدهم وسط هذا الجوِّ الروحاني هو النساء. سيردّد الركاب جملته منسوبة إلى الولي الصالح بعد تحويرها لتأخذ بُعدًا صوفيًّا.

تمنيت أن يحافظ على صمته حتّى نصل، من الأجدى له كرسول الاكتفاء بنقل الرسالة المكلّف بها، لا يملك مهارات تمنحه حقَّ إضافة شروحات عليها، أي جملة منه تعني إفساد الأصلية. لكنّه كان مصمّمًا على أن يكون صاخبًا ولافتًا للأنظار...

«بالمناسبة أنا مُتبحِّر في الصوفية ووصلت فيها لمرحلة الكشف، وكلامي أنا مسؤول عنه.. شيخكم كان بيحب النسوان، وليس عيبًا.. إن الله جميل يحبُّ الجمال».

لا، ليس الورقي على هذه الدرجة من الحماقة، ولم يكن يسعى إلى شجار مجاني، إنَّما كان ينتقم لتاليا زوجة المستقبل لما عانته من حرمان باسم «الزهد»، الذي صادف أيضًا أنَّ الورقي لا يجد له مبرِّرًا.

ولأنَّ مَن يحبُّ عليه قطع الفيافي والصحاري فقد نزلنا من العربة مطرودين عند القرية الرابعة في خطِّ سيرنا، ما عني أنَّ علينا السيرَ في طريق قفر حتّى الوصول إلى قرية المحبوبة.

للمرّة الألف ألوم نفسي على ارتباطي بهذا الرجل، وللمرّة الألف أعاهد نفسي على قطع الصلة به. هو من فضل أن يعيش تفاصيل حياة زوجته المقبلة ولم يستجب لطلبي أن نستأجر عربة خاصّة...

«انزل من برج المثقفين العاجي.. شوف الواقع وعيشه».

وعلى هذا انحشرنا كالبضائع في عربة متهالكة، بين مجموعة من السكّان المحلِّيِّين ووسط مشترياتهم المحمّلين بها من المولد.. حلويات، وملابس، وألعاب، رخيصة الثمن وغالية القيمة ببركة الشيخ.

كنّا قد وصلنا كفر الشيخ أولًا، ومنها إلى دسوق، مررنا من تحت اللافتة الخضراء الضخمة التي تظلّ في مدخل المدينة لأسبوع كامل...

«ولتنشروا رايات عزي بعدما...

طلع النهار وتنشروا أعلامي»

لم نتوقّف ولو لدقيقة، كان في عجلة من أمره، ولم أكن على أيِّ حال راغبًا أن أكون جزءًا من حشد تسيّره مجموعة من الأقاويل عن خوارق لا سندَ علمي لها.

لم تطلب «تاليا» من الورقي مقابلًا ما للزواج، اكتفت بما يقدّمه عن طيب خاطر، أثبت أنّه أكثر قدرةً على مشاغلة النساء من الباشمهندس أشرف، حسم الصراع لصالحه بالكرم الذي أحاطها به، فتح لها حسابًا بنكيًّا بمبلغ معقول ضمانًا لها إن أرادت الذهاب، استأجر شقّة في النزهة بجوار المطار لتشاهد الطائرات راحلة. بعد عام بالضبط من تاريخ زيارتنا لقريتها دعاني الورقي إلى بيت النزهة ذاك لأراها من مكاني في الصالون جالسة في الشرفة مثل خيال، لم تتحرّك طوال الفترة التي قضيتها معه، ولولا حركة رأسها كلّما مرّت طائرة في الأعلى لحسبت أنّي أتوّهم وجودها.

ثمن قلب «تاليا» كما حدّدته.. ساعة حائط، لونُها أزرق ولونُ عقاربها أحمر زاهٍ، يخرج منها عند مطلع كلّ ساعة ثلاثة عصافير لونها أصفر، مؤكّد أنّ هناك نسخًا عدّة ممّا طلبت، لكنّ التي تريدها معلّقة على حائط بيت أسرتها في قريتها، فيها علامة لا يتبيّنها سواها، ما يعني أنّ الباقيات مغشوشات، لن ترضى بهن ولن تتسامح في محاولة خداعهن بواحدة شبيهة. لجأ إلي الورقي لمرافقته في تلك الرحلة الصعبة، وجد نفسه متورِّطًا في أمر معقّد وهو الذي توقّعها زيجة سهلة لن يغرم فيها سوى المال، فتاة بلا أهل ولا متطلّبات كثيرة، لكنّ طلبها يعني أنّ الموضوع، فوق ذلك الطلب الغريب، سيسير في الطريق الطبيعي للزيجات، خطبة ومهر وأفراح تثير الغثيان وأهل لا بدَّ من كسب ودِّهم...

«طقوس غبية».

ظنَّ صراعه مع الباشمهندس وانتصاره عليه يتبعه صعودُ منصّة التتويج، لكنَّ «تاليا» فرضت عليه شوطًا أخيرًا في السباق، أقصر لكنّه أكثر وعورة. مع ذلك لم يتراجع عن رغبته في الارتباط بها، بدا أنَّها كلّما زادت في طلباتها الجنونية، تمسّك بها أكثر. ولم يكن تفسير ذلك صعبًا، مهووس بالبحث عن متع جنسية مختلفة، آخر ما يريده امرأة مثقّلة باللحم تنطرح خاضعة، ورأى في اختلاف «تاليا» عن بقيّة جنسها، سواء من حيث التكوين الجسدي والعقلي، وعدًا بمتعة مغايرة، والأهم أنّها لن تدقّق في لهوه، أطماعها لا تتعدّى مساحة تظلّ فيها ساهمة.

«فاكر قصّة لإحسان اسمها نوع آخر من الجنون»؟

«لا أنا انتهيت من إحسان في المرحلة الابتدائية».

«غلطان. إحسان أفضل كاتب عربي في تقديري، عنده معرفة غير عادية بالنفس البشرية».

«احتمال».

«مؤكّد. حاول ترجع للقصّة، أو أنا أوفرها لك. مذهلة».

ربّما يبدو منتهى الحماقة سعي رجل للزواج من امرأة لإعجابه بقصّة لكاتب ما، كان يتحدّث عن تلك القصّة كلما سألته عن علاقته بـ «تاليا» دون أن يحكي لي عن مضمونها أو يوفرها لي كما وعد، ولم أستطع الوصول إليها فإحسان كان يكتب مثلما يتنفّس. لكن وبغض النظر عن محتوى القصّة فالرجال يرتبطون بالنساء لأسباب متنوعة للغاية، ما يسمّونه الحبّ تحرّكه أسبابٌ مختلفة، والأفضل أن يتزوّج رجل امرأة لأجل قصّة عن أن يتزوّجها طمعًا في مالها مثلًا، طريقة تفكير الورقي تلك كانت تجعلني غير قادر على قطع العلاقة التي تربطنا والتي يسمّيها صداقة...

«أنا متأكّد إنّ الفراعنة كانوا كائنات من الفضاء الخارجي».

يؤمن بالظواهر الخرافية، بالعفاريت والأشباح والكائنات الفضائية، وبقدرة الجنّ في التسلُّط على أجسادنا، بعد مجهود اقتنع أنّي لن أؤلّف أبدًا لداره أو لدار غيره كتبًا عن تلك الظواهر، لكنّي لم أستطع إقناعه ألّا يتسرع في إصدار كتب عنها بتلك الكثرة حتّى لا يهدم مصداقية الدار الوليدة.

«أظنّ إنّك المفترض تكون حذر جدًّا في اختيارك لكلامك هنا بالذات».

«وإيه أهمّية هذا المكان تحديدًا؟».

«مقرّ الإلهة وداجت، والأرض التي تربّى فيها حورس».

أشرت له إلى ما يبدو من بعيد هيئة تمثال. حدّق إليه ثم هزّ كتفَيه. الليل يقترب منّا سريعًا، أضعنا وقتًا غيرَ قليل في السير بعد طردنا من العربة. لا أحد بجوارنا، نحن فقط وتلك والمساحة الضخمة المكشوفة التي خصّصتها هيئة الآثار لمدينة بوتو عاصمة الوجه البحري قبل التوحيد، ولم يكن من طريق آخر سوى أن نلفّ حولها لنصل لهدفنا، مجموعة بيوت قليلة تنام تحت لعنة وادجت، آلهة غاضبة على من ينبشون قبور موتاها، لا تتخيّل أنّ أحدَ الأحجار المقدَّسة بجوارها كفيل بتوفير حياة مريحة لعائلة بأكملها. هنا نشأت «تاليا»، تلعب عند تلّ المساخيط وفق التسمية المحلية للمكان الأثري، تسمع مثل أطفال قريتها التحذيرات من الاقتراب من سور التلّ، هناك قصصٌ غامضة عن اختفاءات لصبية وبنات جرّبوا انتهاك الحرمات فلم يتبقَّ منهم أيُّ أثر يدلّ عليهم، ولم يجد رجال الشرطة الذين أتوا من مركز دسوق، على فترات، أيّ شبهة جنائية وراء هذا الاختفاء، وانتهت تحقيقاتهم إلى أنَّ التل مأهول بالآبار العميقة التي يصعب الوصول إليها، محذّرين الأهالي الاقتراب منها، غير أنَّ ذلك لا يتّفق مع وجود البعثات الأثرية والتي لم يسبق أن تعرّض أحد أفرادها لهذا الخطر الأهالي لم يصدّقوا قصّة رجال الشرطة، والشرطة أيضًا لم تصدّق قصّتهم عن وجود

عصابات تستعين بسحرة يبحثون عن كنز فرعوني عظيم لن ينفتح إلا إذا أريقت فوقه دماء طفل لم يتعدّ الرابعة عشرة، يستقون ذلك من أسطورة توارثوها من أهلهم، أنّ هذه الأرض تسكنها امرأة لها رأس حيّة، كانت ساحرةً وحُكم عليها بالحرق عندما فشلت في علاج أحد أبناء الملوك، ومن يومها وروحها تتعقّب صغار السنِّ ممّن هم في عُمر ابن الملك. هذا ما تؤمن به بيوت قرية «تاليا» والقرى التي حولها، ربّما لذلك ظلّت تلك القرى على حالها، لا يزيد عدد سكّانها، الطفل الواصل حديثًا يأتي عوض من تمّ ذبحه قربانًا للساحرة. إحدى الوسائل غير التقليدية للحفاظ على التوازن الطبيعي. ولا يملك الأهالي إلّا انتظار زمن المواجهة بين تلك الشريرة وبين سيّدهم الدسوقي، مثلما حدث قبلًا، لكنّه هذه المرّة سيتأكّد أنّه قتلها، لن يكتفي بلطمها بعصاه لتهوي في قبرها السحيق ظنًّا أنّها ماتت بينما هي هناك تتّحد مع الظلام وفيما تترقّب في صمت شفاء جراحها ترعى حقدها على البشر يأمل الأهالي المساكين في قرب موعد المعركة ولدى كل منهم ثأر معها يقوّيهم لتمزيق جسدها وحرقه كي لا تتمكّن من الالتئام. لكن وحتّى تلك اللحظة ليس أمامهم سوى العيش بمنطق أنّهم الأضحية المناسبة لحماية الأعلى شأنًا سواء كانوا من السائحين أو أفراد البعثات الأثرية، عليهم التعوّد على مصاحبة القلق، لن يعرفوا الراحة إلّا بوصول الطفل إلى العمر الذي تتحرّم فيه دماؤه على المرأة صاحبة رأس الثعبان.

بأسلوب ركيك يحكي عن طفولة «تاليا». بعدما فرغ لفَّنا صمت بدا معه أنَّ الطريق لن تنتهي، كان من المفترض وحسب الوصف أن نجد القرية بعد نصف لفّة حول سور التلِّ، ربَّما زادت المسافة لأنَّنا فضّلنا من دون قرار عدم الاقتراب من السور. المغيّب يقترب منّا سريعًا، الشمس غارقة في الحمرة وتغطس في الأرض الفضاء، لم أرها على تلك الهيئة، تلك التي في القاهرة تشرق قاسية وتغيب باهتة. لو وافق الورقي على مجيء لطفي حسب طلبي لفكّت هذه اللوحة عقدته الشعرية. المسكين جَهِل أنّ أمامه طريقًا أطول

ممّا يتخيّل، حتّى إذا فرضنا أنّه وجد وسيلةً تُعَلّمه كيف يكتب، فسيتبقّى الأصعب.. أن يختلف عمَّا كتبه من قبله.

«انت متأكّد إنّ القرية هنا؟».

سألته، والمحيط الذي حولنا يتحوّل إلى أجواء غير مريحة، صوت نباح الكلاب في المنطقة الأثرية يشتدّ وكأنّها كائنات خرافية تنتظر الليل للخروج من مكامنها، حرس المرأة الحية يستبقون مقدّمها بإثارة الرعب في قلوب فرائسها فلا تبدي مقاومة عندما تصل إليهم.

«وصلنا».

نطق بها بصوت خافت عندما بدأت بيوت القرية في الظهور فجأة وكأنّ سؤالي الإشارة المتّفق عليها لتفصح عن وجودها. لكنّ إحساس عدم الراحة ظلَّ ملازمًا لي، لم يكن مبعثه فقط الخوف ممّا نحن مقدّمون عليه، من اقتحام بيت من لا نعرف في هذه الساعة لنخطب ابنتهم التي هجرت بيتهم منذ سنوات، وليس القلق من التفكير في كيفية العودة من هذا الطريق، كان هناك ما هو أبعد من ذلك، فجأة خطر على ذهني بيت اللوتس.. البيت الأوّل الذي اقتحمه مصطفى، تذكّرت الكائنات المضيئة، لم أنتبه إلّا في هذه اللحظة وأمام أحدّ مقرّات حورس الآمنة إلى ما يمكن أن يكون سرّ اللغز كلّه، الأمر كلّه طقسي بشكل ما، الماء الذي سقط فيه مصطفى طريقه إلى التحوّل، حورس إله التحوّلات في الفرعونية إن لم أكن مخطئًا، والمضيئون هم الذين يصحبون المتوفّى في رحلته الثانية ليتحوّل من فردٍ عادي إلى إله، مصطفى كان يؤدّي طقسًا ما في ذلك البيت، يؤهّله لما سيقوم به، وإن كان الأمر كذلك فالمسألة لا بدَّ أن تكون أبعد من مجرّد عمليات سرقة قرّر بها أستاذ جامعي التمرّد على منظومة قيم المجتمع، هناك بهذا الشكل ما يربط البيوت التي اقتحمها، شيء ما يبحث عنه. بمزيد من الذعر استيقظ على أنَّ التحقيق الذي أجريناه أغفل البحث في الجامعة التي ينتمي إليها، سألت

العدل عن ذلك فقال إنَّها ليست ضرورية في هذه المرحلة، لكنَّ هذا استمرّ حتَّى الإفراج عنه، لماذا؟ الآن فقط أتذكّر، بعد فوات الوقت غالبًا.

لم أفق من أفكاري إلّا والورقي يطرق الباب وامرأة في طول «تاليا» نفسه ونحافتها تقف أمامنا، وليس على وجهها علامات مفاجأة من الأغراب الذين يقصدونها في هذه الساعة.

البيتُ المستهدَفُ لن يكون مطلقًا في الأدوار الأخيرة تجنُّبًا للحصار. الدور لا بدَّ أن يكون من شقّتين فقط لأنّ احتمالاتِ وجود شقّتين من غير سكّانهما أعلى بكثير من أربعة أو ثلاثة.

مصطفى إسماعيل
كتاب الأمان ـ النسخة الأصلية

(20)

أغلقت حسناء كتابها بينما تجاهد لإبعاد ظلّ من الأسف يزحف محاولًا السيطرة...

«كنتِ تظنّين أنكِ ستأتين بما لم يصل له أحد؟ هه! تفاهة، زبالة، طفلة بتلعب قصّ ولصق».

أغمضت عينيها وهي تتلمّس الحروف المحفورة على الغلاف التي تكون عنوانه واسمها...

«ألف، لام، حاء، قاف، ياء، قاف، تاء مربوطة».

تنطق كلّ حرف منفردًا، تنفخ فيهم من روحها ليمنحوا للكلمة التي يُكوّنونها ما تستحقّه، تدقّق عسى أن تصل إلى السرِّ الذي يراوغها.

«الحقيقة».

خصصت فصلًا كاملًا لها بوصفها موضوع الكتاب. عملت على تبسيطه قدر الإمكان مبتعدة عن لغو الفلسفة التي تترك قارئها في حيرة أكبر، قامت بذلك انطلاقًا من موقفها وإيمانها الذي تبدّى راسخًا في بقية عنوان الكتاب...

النهائية».

فإذا كانت تسعى لحقيقة لا خلاف عليها، فلا بدَّ لها أن تكون قادرة على الإقناع من اللحظة التي تقع العين عليها. أن يهتف كلُّ قارئ: هذا ما كنت أبحث عنه. وما كتبه هيدجر عن الحقيقي هو مثال بالنسبة لها...

«هذه الكلمة الرفيعة التي أصبحت مع ذلك كلمة بالية، وأوشكت أن تكون صمّاء عاطلة من كلّ معنى، تدلُّ على ما يجعل الحقيقي حقيقيًّا».

ذلك تعريف كافٍ وزيادة، الإيمان بالكلمة ما يلزم لهداية الناس لما فاتهم، لم يكن السيد هيدجر في حاجة لتعقيد الأمر أكثر على نفسه وعلى جمهوره، لكنّه مثل كثيرين لا يهتدي بإحساسه، يراوده الشكُّ فيما وصل إليه فيعود إلى ما كتبه ليعيد تدويره وتمحيصه بأساليب مختلفة حتّى لا يتبقّى من المعنى الأصلي شيء، وجوهر ما تقوم به أنّها تخلّص الكلمات من الشكوك التي أحاطها بها مؤلّفوها.

لكنّها مع ذلك الإيمان ما زالت عاجزة عن تقييم عملها، هل تتفاعل الناس مع العنوان الذي وضعته؟ ألن يعترض المثقّفون الذين حفظوا، بغباء، أنّه لا توجد حقائق مطلقة أو نهائية، يريحون أنفسهم بهذا حتّى لا يجتهدوا في تقديم إجابات. وما قيمتهم إن تفرغوا لطرح مزيد من الأسئلة على عالم مَبنيٍّ في الأصل عليها؟

وصلت إلى اسمها فتمهل إصبعها على حروفه لاستعادة الثقة، مرّت على اسم أبيها فشطبته وانتقلت إلى جدِّها الذي لا تعرف عنه سوى الاسم. مصطفى إسماعيل.. رجلان يتمَّان التعريف الذي يصاحبها، لا تكتفي بـ «حسناء»، ولا بـ «حسناء مصطفى» الاسم هكذا ناقص، اعتادت على اللعبة...

«حسناء مصطفى إسماعيل»

«الشيخ مصطفى إسماعيل؟».

«تشابه أسماء».

لكنّه لم يكن مجرّد تشابه في الأسماء، لاسمها مهابةٌ ما، اعتادتها ثم

وعت السبب لاحقًا، ليست ابنة المقرئ الأشهر، لكنَّ الناس يمنحونها ما يستحقّه اسم الرجل من تبجيل. لم تستشفّ سبب التوله به إلّا عندما تمعّنت في صوته ثم قارنته بآخرين، الصوت الأكثر عذوبة بينهم، يقرأ بقلبه فيضيف للسورة الإحساس الملائم لها. أدمنت اللجوء إليه كلّما زاد خوفها.

لا بدّ أن يكون كتابها جيّدًا بما يليق باسم الشيخ، ستذهب الأذهان إليه، لن يظنُّوا أنّ الاسم يعود إلى اللصّ وليس للشيخ، اللصّ على أيِّ حال لم يكن أكثر من قصّة عابرة شغلت الجمهور لأيّام، أخذتهم المفارقة.. كيف يكون الأستاذ الجامعي لصًّا؟ وانتهى الأمر عند هذا الحدِّ، و«كتاب الأمان»، الذي حاول أسطرة الحكاية، مرّ كأنّه لم يكن، قرأت عنه مقالًا في جريدة محدودة الانتشار، وغير ذلك كانت حريصة على المرور أمام بائعي الجرائد الذين عرضوه للبيع، تراقب الإقبال عليه، اشترت بعض النسخ ومزّقتها، كانت لتشتري ما يصادفها منه لولا الانتباه إلى أنها بذلك تصنع له رواجًا وهميًّا، وقد تكون السبب في صدور طبعة أخرى منه.

تجلس في الصالة التي أصبحت فسيحة بعد خلاصها من الكتب التي خنقتها زمنًا، تركت كتابها، وقامت من مكانها متكاسلة، تبحث عمّا يخلّصها من حالة الإحباط، وقفت أمام المرآة الضخمة التي اشترتها مؤخّرًا. تخلّص أبوها من مرايا البيت، فيما عدا واحدة صغيرة أعلى الحوض في الحمام يستخدمها في حلاقة ذقنه كلّ يومين ولم تكن قادرة على رؤية وجهها كاملًا فيها. لم يترك لها المجال لتعترض، عادت من الجامعة لتفاجأ بالتغييرات التي أجراها والتي طالت غرفتها أيضًا، رمى منها كل شيء.. ألعابها التي تحتفظ بها منذ الطفولة، القصص العاطفية والمغامرات الشبابية، شرائط المطربين الأجانب، لم يترك لها ممّا تملك سوى كتابين يستحقّان البقاء في حكمه، وهما أوّل ما تخلّصت منه بعد سجنه. كان ذلك التحرّك الأوّل

الذي قام به نحو محاولة السيطرة عليها، العام الذي عاشته أمّها بعد عودته شغله عنها، فقط ملاحظات عن النمط الذي اختارته لحياتها، لم ترشدها على ما يعنيه، فهي، وبشهادة من يعرفها، شخصية منضبطة، تقوم بكلّ شيء بالقدر المناسب، ليست مثل زميلاتها اللاتي يتقنّ للبقاء في الخارج طويلًا للمغامرة، تفضّل أن تمضي معظم أوقاتها في البيت بجانب أمّها، تأكلان معًا، وتشاهدان التلفزيون، تتابعان المسلسلات والأفلام واحدًا وراء الآخر وتنشغلان بعوالمها عن جفاف حياتهما، وفي الأوقات التي تنفرد فيها بنفسها تقرأ كتبًا مسلّية عن الحُبِّ والمغامرات، تنهي كتابًا ثم تسرح مع أحداثه بعد أن تحل مكان البطل، تعيد تركيب الأحداث بما يوافق هواها، تضع الرجال في مواقع ثانوية، كما يليق بهم، تتفنن في وضع نهايات مبالغ في دراميّتها لهم، أمّا النساء فيعشن في سعادة نلنها لأنهنّ الجنس الأرقى، ونتيجة ما قدمنه من تضحيات شجاعة.

من جديد تُعيد تذكّر حياتها معه، برغم محاولاتها المتعدّدة للابتعاد عن تلك الدائرة، برغم يقينها من أنّها لتبدأ حياتها فعليها التصالح مع ما فات ونسيانه، لكنّها عاجزة عن ذلك، الكلام سهل، أمّا التنفيذ فلا يختبره إلّا من يمرّ به. وبخلاف هذا تقدّر أنّ غضبَها يمنحها طاقة إيجابية، كتابها جاءت فكرته في لحظة كتلك.

«معظم الناس عادية، قليل منهم يعلو عن هذا المستوى، أنا آسف لأنّي تعبتك، نسيت إن الناس العادية قدراتها محدودة».

هل كان يسعى إلى تحفيزها لمجاراته فيما يريده منها؟ ربّما، لكنّها لم تتقبل ذلك، لم تحب ما فعله بها. لم تتسامح مع إبعاد كتبها المحبّبة عنها، ولا البرنامج الصارم الذي فرضه عليها والذي يقضي بقراءة كتابين أسبوعيًّا. بدأ بالروايات الكلاسيكية حتّى تعتاد على الأفكار المعمّقة، الروس في البداية، وأولهم ديستوفسكي باعتباره المهندس الذي أقام أسس هذا الفن حديثًا،

لا تنكر أنّها استمتعت في البداية، اعتبرتها وسيلة، وإن غريبة، للتواصل مع رجل غامض لم تستطع تحديد حقيقة مشاعرها تجاهه.

لكنّ البرنامج الثقافي كان كارثة على علاقتهما، واجه تملُّصَها بحزم فنفرت خاصّة أنّه كان برنامجًا صعبًا ومرهقًا.. تقرأ ثم يتناقشان لتتعلّم مبادئ التحليل والوصول إلى أعماق النص، لم تتمكّن سوى في حالات نادرة من تكوين رؤية متماسكة لما تقرؤه. «الأخوة كارامازوف» كانت الاختبار الأصعب...

«من الشرير ومن الطيب؟ هل لو كان الله غير موجود يصبح كلّ شيء مباحًا بالفعل بما في ذلك الجريمة كما كان ديمتري يعتقد؟».

لم تكن مضطرة لتلك الأسئلة المعقّدة، تستهويها الحكايات المجرّدة، الإجابة الوحيدة على أسئلته، والتي لم تجد الشجاعة لمصارحته بها.. أنّ الرجال سبب المصيبة، يعقدون الأمور حتّى يثبتوا قدرتهم على حلها وعندما يفشلون في ذلك يحيلون الأمر برمته إلى شأن فلسفي.

مثله صعبة المراس، مهرة جامحة يحاول جاهدًا ترويضها، وهي أخذت على نفسها عهدًا بأنّ ذلك لن يحدث حتّى لو انتهت مثل أمّها، ممدّدة على سريرها وروحها منتزعة منها، دخلت معه معركته بوصفه رجلًا يظنّ نفسَه الخليفة على الأرض، وفي المقابل هي امرأة وحيدة وضعيفة بلا خبرة ولا تجربة، لكنّها تؤمن بقضيّتها، قضيةِ كلّ النساء، وانتصارها يعني خطوة للأمام في الحرب التاريخية بين الجنسين.

طافت بأرجاء البيت، غرفة وراء الأخرى، لم تطمئن قطّ إلى أنّه غير موجود، ربّما هذه واحدة من ألعابه.. يراقبها في غياب كاذب، ربّما عاد ولا تدري. أول ما فعلته بعد اعتقاله تغيير «كالون» الباب، عندما يعود سيضطرّ إلى الطرق، لن يفاجئها ثانية، تفعل ما عجزت عنه أمّها المسكينة، تضع قانونًا عليه الالتزام به إن أراد التواجد بجانبها، وهذه المرة ستختار له الكتب التي عليه قراءتها، وتسأله فيها، طفل تلقّنه أمّه الدروس المبدئية، من الشرير ومن الطيب؟ الذئب هو الشرير ومهمّتك فضح تنكّره لا إيجاد المبرّرات له.

ديمتري ببساطة هو القاتل، ومن أغواه بائس أضلته الفلسفة مثلما أضلتك، وديستوفسكي بائس هو الآخر ليس بقدرته أن يحكي حكاية شائقة لهذا يحيطها بكثير من الدراما الذكورية المبتذلة.

تعلّمت الإنصات للبيوت، هناك منها من لا تريدني فيها كأنّها تحذرني، وأخرى تتلقّاني ببشاشة كأنّها تنتظرني من زمن. مؤشّر أثق فيه، اكتسبته من الخبرات. من يتعامَ عن العلامات، يفقد الطريق.

مصطفى إسماعيل
كتاب الأمان ـ النسخة الأصلية

(21)

ساعة كاملة لم تتحرّك فيها العربة سوى أمتار، أشغل عقلي بالعدّ كي لا أنهار، واحدة من تمارين اليوجا التي بقدرتها منحك السيطرة على نفسك حتّى لا تتبعثر...

«واحد، اتنين، تلاتة، أربعة».

وأتوقّف قبل المئة بخمس عدّات. ألا تنصّ القاعدة على أن يكون العدّ تنازليًّا؟

100، 99، 98، 97، 96، 95...

هل تكفي مئة عدّة للسيطرة على توتري؟ ما الرقم المناسب لنجاح العملية.. خمسمائة مثلًا! جاهدت لاستدعاء مبادئ اليوجا الأساسية وسط إحساس متزايد بالهلع، أكّدته حوادث متتالية في العام الأخير، أن المعلومات الأساسية تنمحي من رأسي، وأهمّها ما قرأت من كتب، بدأ الأمر بعدم تآلف مع اسمّي، ليس خالد، لا يصح أن يكون، ولم يكن كذلك. في طفولتي اعتقدت أنّ الأسماء تتغيّر بما يناسب النضج، ويبدو أنّ ما ضحكت منه بعد البلوغ يعود الآن مضافًا إليه إحساس كابوسي بالضياع. أستيقظ في منتصف الليل على شعور مقبض بالتيه، كأن روحًا لم تجد مستقرًّا استولت على جسدي. ما الذي يمنح الناس القدرة على التآلف مع أجسادها ووجوهها وأفكارها!

مكدّسين في شارع شبرا، أشبه بالصراط، لا سبب واضح لهذا الزحام

الرهيب، لكنّ بعد قليل بدأت الصورة تتّضح، كلمات متناثرة يتبادلها الركاب في عرباتهم عن حادث وقع، انفجرت قنبلة في أحد الأتوبيسات، الإصابات ليست بالخطيرة لكنّها موجعة، سبّبتها المسامير التي تمّ تزويد القنبلة بدائية الصنع بها، اخترقت أجساد الضحايا تاركة لهم هدايا باسم زمن التسعينيات.

من العبث البقاء في السيّارة، نزلت إلى الشارع، قرب المدرسة التي تلقّيت فيها تعليمي الثانوي، وذاكرتي مستمرّة في العناد.. ماذا كان اسمها؟ توقّفت قبل أن أبصر اليافطة مصمّمًا استعادة ذاكرتي، حتّى لو كان الثمن إعادة معايشة تفاصيل وقائع دفعني خجلي منها لتناسيها.

بشكل ما كان أقرب للفتيات، طريقته في الحديث، مشيته، خجله، هواياته التي تنصب على حبّ الموسيقى، أحسده مثل الآخرين خاصّة مع حبّ البنات له وثقتهن فيه. كانت الخطّة أن نستدرجه إلى قصر طوسون باشا القديم المغلق والذي بنيت المدرسة على جزء من حديقته. اتفاقي مع واضعيها أنّنا لن نتعدّى إخافته...

«لازم يسترجل، بنفكّر في مصلحته».

قالها من نصّبته جرأته ووقاحته زعيمًا علينا، لهجته تخلو من الصدق، لم يسع بجملته لتخليصي من تردّدي، يعرف أنّ الوقت حان لتسديد فاتورة انتسابي إليهم، ودوري لن يزيد عن إقناعه أنّنا وجدنا فونوغرافًا قديمًا وبعض الأسطوانات الموسيقية ونريده أن يحدّد قيمتها، كنت الأقرب إليه، يقضي معظم وقت الفراغ في المكتبة، يقرأ أو يساعد مديرتها في ترتيب الكتب، أذهب أنا أيضًا إلى هناك أحيانًا، وكثيرًا ما تبادلنا الحديث حول كتاب ما، لكنّي لم أكن مخلصًا للقراءة مثله، موزّعًا بين العالمين، الواقع وعالم الكتب، غير أنّي وبتأثير تلك الحادثة اخترت الكتب حتّى التقيت مصطفى فأعادني مرّة أخرى إلى الانبهار بما يحدث في الواقع.

ننزل إلى القصر عبر فتحة القبو لنكتشف ما فيه، أو نسرق بعض ما تبقّى من نحاس أحمر ظنًا أنّ له قيمة ما بينما كلّ ما له ثمن سبقتنا إليه الدفعات السابقة علينا، القصر ضخم بحيث إنّنا قضينا العام الأوّل كلّه في اكتشافه، الوقت المُخصّص لذلك فترة الفسحة، هذا إن استطعنا التحايل على الحارس الذي خصّصه المدير لمراقبة مدخله، أو جمعنا من المال ما يكفي لإغرائه ليغضّ الطرف عن تسلّلنا.

لأعوام بعد تلك الحادثة وبعد تخرّجي كنت أتجنب العبور من أمام المدرسة. عجيب ما تفعله الذاكرة، بعد التدريب أصبح في استطاعتي أنّ أمر أمام المبنى ولا أراه. يصرخ مستنجدًا بي، لكنّي عاجز عن الحركة، أراقب فقط، مأخوذًا بالمشهد، سينمائي بامتياز.. على سلم القصر أحدهم يضع المطواة على رقبته، وصاحب الفكرة وأكثرنا حقدًا عليه يستعرض قوّته عليه، يطلق نكاتًا بذيئة بينما يتحسّس بشرة وجهه الناعمة أو مؤخّرته قائلًا إنّه بالفعل فتاة وليس رجلًا، صورتهم تنعكس على مرآة أثرية ضخمة تحطّم زجاجها فتوزّعت أجسادهم على الأجزاء المتبقّية، ضوء قليل من النهار يتسرّب من الزجاج المترب ينيرهم بينما أقف في بقعة مظلمة. هل كان بقدرتي إفساد مشهد مرسوم بهذه المهارة، ألم تكن تلك الدقّة تعني أنّه من المقدّر له أن يتمّ. غير أنّي أيضًا كنت مستفزًّا إلى حدٍّ بعيد من ذلك الاستسلام الذي يبديه الفتى، رعبه من لمسات الآخرين يضفي عليه مسحة أنثوية مستفزّة، ربّما لو أبدى بعض المقاومة لاعترضت، لكن ليس وهو على هذا القدر من الوهن، الحقائق المجرّدة عن التعاطف وحقّ الآخر أن يكون كما يريد نظرية ليس لها قوّة البقاء وسط النزوع البشري للعدوانية. لم يدرك، ولو بشكل فطري، ضرورة صناعة صور عن ذواتنا يتمكّن الآخرون من التعاطي معها. لكنّه وفي اليوم التالي قدّم أبوه طلب نقله من المدرسة، كنّا نراقبهما من شرفة الطابق الثاني بجوار المكتبة، قال أكثرنا غلظة معلّقًا...

«الست خدت بنتها ومشيت».

ضحكت مع البقيّة لكنّي ندمت على ما حدث وعلى دور الخائن الذي قمت به، والعقوبة الأمثل لي أن أظلّ مستلبًا بحيرتي وتردّدي في مقابل صدقه وإصراره على أن يكون كما يريد، عقوبة تتعمّق، يتجسّد في مواجهتي، يتلبّس شخصيات مختلفة.. مصطفى، فخري، وحسناء، ولطفي، لا يعكر صفو تمتّعهم بما يفعلون شكّ. هل يكون خلاصي في البحث عنه وطلب مغفرته عمّا جرى، أقول له إنّ حياتي الباقية تنتظر هذا السماح، وهل سيفهم؟ هل تأسّست حياته أيضًا على هذا المشهد؟

المؤكّد أنّي أعاني خللًا ما.

وسعت خطواتي محاولًا طرد هاجس أنّي أشيخ أسرع من المعدّلات الطبيعية، وإلّا ما الذي يجعلني أعاود معايشة وقائع قديمة. بالأمس استيقظت من النوم والخوف يملؤني من اختبار المدرسة في الغد. أليست تلك علامات الخرف؟

ربع ساعة إن حافظت على تلك السرعة. تهت عن موعد لقائنا. أكاد أصطدم بأهالي شبرا الطيّبين، لماذا أصبحوا فجأة يشبّهون الأستاذ فخري، هل زاروا كلّهم الاتحاد السوفيتي وأتوا بملابس مكتوب لها الخلود! بعد قليل ستمرّ حسناء من هنا، تنزل من التاكسي قبل أن تصل بيتي بخمس دقائق، العادة التي تحرص على تطبيقها بصرامة دون سبب واضح، أمام محلّ حلويات «جنّة شبرا» الذي يتجمّع عنده البنات والشباب والعائلات ليلحسوا الآيس كريم، يرتدي كلٌّ منهم أفضل ما عنده ويأتي من بيته خصيصًا للمهرجان، مسيحيون ومسلمون، لكلّ فريق جانب. بينهم أولُ حبّ في حياتي، تعدّت عبير الأربعين ولم تتزوّج بعد وما زالت تظنُّ نفسها الطفلة التي علمت ابن جيرانها القواعد الأولى للجنس بدلًا من النوتات الموسيقية، لم يكن صعبًا التخمين أنَّ أمّي ترسلني إليها في أوقات متفرّقة ليخلو لها الجوُّ مع رجلها، ما المانع إذن إن صاحب دقّاتها على البيانو

اكتشاف جسد الصبي. أليس ذلك أفضل تمثيل للوحدة الوطنية، مسلم ومسيحية والموسيقى تملأ رحاب شارع أبو الوفا.

يتبادلون النكات وأحاديث خفيفة يفرضها المذاق الحلو لمنتج يتفنن صاحب المحلّ في تنويعه، لن تفكّر حسناء ولو للحظة في الانضمام إليهم، لن يبيّن من ملامحها أيًّا من علامات السخرية التي تموج بداخلها، لن تهب مشهدًا قادرًا على فتنة شاجال أكثر من نظرة. في هذا المحلّ كانت تقف تاليا، قبل زواجها، تخلط في صبر الأنواع المطلوبة لكلّ زبون...

«مانجو وفانيليا».

«خوخ وأناناس».

«موز وشيكولاتة».

تأتي إلى المقهى لتحدّثنا عن ملاحظاتها: الناس لا يختارون الطعوم وإنّما الألوان، يتفننون في الخلطة كي يخرجوا حاملين ما يميزهم عن الباقين، دقائق وتضيع الألوان المبهجة فيعودون للبحث عمّا رأوه في أحلامهم.. عن السعادة التي عاشوها نيامًا.

إنّ قدر لحسناء وتاليا أن تلتقيا ستجدان الكثير ممّا تتّفقان حوله. يجمعهما حبُّ مدينة نصر، ثكنة الموظّفين الفرحين بالصحراء. ستجد حسناء في تاليا التلميذة الملائمة لتنقل لها رؤيتها...

«التاريخ والحكايات لا قيمة لهما».

كيف يمكن أن تفوز بقلب امرأة تعتقد أنّ الحكايات فعل أبله يدمنه المأزومون.

لم أقل لها إنّ الكرسي الذي اختارته كان لأُمّي، ستعتقدها محاولة مكشوفة. قد تتسلّل روح أمّي إليها فتتبدّل في مكانها. أجلس في مقابلها، هي أُمّي وأنا أبي، من المفترض أنّي آتٍ الآن جريًا من الممرّ الواصل بين

الصالة وغرفتهما، أقف ثوانيَ في نهايته أتلصّص عليهما متحيّنًا لحظة تغافلهما لأفاجئهما...

«حلو الكلام.. إنّما.. هل اقتنعت بوجهة نظري، أم أنّ الوجه الآخر استهواك فنيًّا؟»

يحقّ لها السؤال بالطبع؟ أنا منحتها هذا الحقّ، لست مؤلّفًا، لو كنت كذلك لما تركني الغرور أبدّل حرفًا ممّا كتبت، شرط المعرفة قمع الرغبات. لماذا لا أقول لها صراحة إنّي أرغبها ومستعدّ في سبيل ذلك لتغيير أيّ حقيقة تريدها. سأقف في فناء الكنيسة وأقول علنًا إنّ الأرض ثابتة لا تتحرّك شرط أن تتعرّى من أجلي. هل تعتقدين أنّ تلك الملابس تخفيك عنّي، أنتِ عارية يا حبيبتي، هل لديكِ فكرة واحدة ما زالت مختبئة مني، ماذا بعد المناورات؟

أنقذَني الدَّقُّ على الباب من الشهوة المتصاعدة. يقف الأستاذ علي مرتبكًا، مضى على اختفاء لطفي ما يزيد على ثلاثة أشهر، والرجل بدأ يفقد كلّ ما يؤمن به عن أهمية التجربة، نلتقي يوميًّا تقريبًا ليحكيَ لي عن نتائج بحثه، الأماكن التي تردّد عليها ليسأل عنه، يفهمونه أنّ ولده محبوس بموجب قانون الطوارئ ولن يفرج عنه إلّا بعد انتهاء التحقيق معه، ثم يسمع كلمات موبّخة لتركه يسير على هذا الطريق...

«أيّ طريق يقصدون؟».

يسألني ولا ينتظر إجابة. يتحدّث مع نفسه، عادته، عندما تشغله مسألة رياضية يصحبها معه إلى الشارع...

«لطفي شخص مسالم جدًّا، هم عاوزين الناس تبطل تفكير؟».

الأستاذ علي مدرّس الرياضيات نموذج فريد، يتمثّل القيم الأوربية في حياته كلّها، ولطفي المستفيد الأوّل، بينما كنّا نبتكر الحيل للحصول على المتع الصغيرة، كان يخرج من منزله كمراهق أميركي له حرية فعل ما يتطلّبه

هذا العمر، عندما قرّر التدخين كانا يجلسان معًا في الشرفة يحتسيان الشاي ويتحدثان ودخان سجائرهما يتحدّى كلّ المنظومة الأخلاقية لشارع أبو الوفا، بل ولشبرا كلّها. ربّما لهذا لم يكن الأستاذ علي محبوبًا كثيرًا من جيرانه، يرون فيه النموذج الضدّ لكلّ ما يفعلون ويؤمنون، لم يتقبّل أحد تلك الموسيقى الكلاسيكية التي تنبعث من منزله وقت صلاة الجمعة، ولا أن يكون لولده حبيبة يصطحبها إلى منزله، قالوا إنّ الأذربيجاني، الذي تحوّل استسهالًا إلى الإيراني، ونظريته دفعًا به إلى الجنون، «المنطق الضبابي» ضلّله فلم يعد يعرف الخطأ من الصواب.

المثير أنّ لطفي نفسَه وبرغم تمتّعه بتلك الحرية إلّا أنّه كان يعتقد فيما يراه الآخرون، هو السبب الأول في إطلاق اشاعات الجنون على أبيه، هو من عرف الناس في المنطقة عبر أصدقائه على الإيراني الذي يقدّسه أبوه، وعلى نظريته التي تزين معادلاتها جدران بيتهم. نقمته على أبيه كانت تدهشنا بالنظر إلى المكاسب التي حصل عليها، لكن أسلوبه التهكمي إلى جانب الرفض العام لشخصية أبيه لم تكن تجعل أحد يتوقّف أمام الأسباب. لكنّي أنا الأكثر قربًا منه أعرف أنّ الأمر كلّه يتلخّص في الاسم الذي حَمّله به أبوه.. «لطفي زاده»، هكذا كاملًا، ومع أنّ أحدًا منّا لا يهتمّ ولا يتذكّر أنّ للطفي تكملة غريبة لاسمه، إلّا أنّ مجرّد وجود تلك الـ «زادة» في أوراقه الرسمية كافٍ للنقمة على أبيه.

«إذا كان هو مخبول بيحب عالم رياضيات مخبول.. أنا علاقتي إيه؟».

أكتشف أنّ الأستاذ علي ليس على تلك الصورة التي صنعها له ولده. هل سيكون من اللائق تنبيهه، قد تكون وسيلة لإفاقته من الذهول الذي أصابه، لو انقطعت الصلة العاطفية التي تسيره حاليًا سيتمكّن من التفكير بشكل أفضل.

«المشاعر ضدّ التفكير. والأخلاق لا علاقة لها بميدان المعارك».

هذا ما جعل الأستاذ فخري أسطورة شبرا في عالم الشطرنج، أنصح أبنائها، المشكلة الوحيدة أنّ استسلامه للجنون يسقط النظرية تلقائيًّا.

تهالك على أقرب مقعد ومدّ قدميه أمامه فشغل مساحة هائلة في الصالة الصغيرة. حسناء تنظر إليه باهتمام، غير أنّه غارق بالكامل في مشكلته، وهي حريصة على ألّا ينتبه إليها. واقفًا بجوار باب المنزل ومستندًا على دولاب صغير تحمل رفوفه بعض الأشغال اليدوية التي كانت أمّي تنكبّ على تنفيذها ثم رميها في ذلك الدولاب بلا اهتمام ودون أن تعود إليها أبدًا. منذ ماتت لم أنظر في أعمالها تلك غير أنّي حافظت على مكانها مثلما وضعتها، تمنيت أن ينصرف في الحال لأقضي الساعات المتبقّية من اليوم في اكتشاف أعمال الدولاب مع حسناء، قد يصلح أساسًا جديدًا يكسّر الجمود الذي فرضته على علاقتنا.

في المطبخ أعدّ الشاي. يحدّثها عن عمله ونظريّته وعن رحلة ما يسعى للقيام بها لتنفيذ أفكاره. الرياضيات، العدم، الصحراء، النجوم، مركز الكون، كلمات تصل إلي متفرّقة. عندما خرجت بادرتني حسناء متحمّسة...

«تعرف المنطق الضبابي يا خالد؟».

تسمّرت أمامهما حاملًا الصينية وعليها أكواب الشاي، لا بدّ أنّي بدوت أبله. أدركت أنّي خسرتها.. ستجد فيه الصورة التي تريدها للأب.. من يحوز الحكمة والمعرفة ولا يبالي بهما.

تلهى الأستاذ علي بِرجولته عن ولده، لا يخفي سعادته بالانتصار في معركة الرجال الخالدة. الحياة الإنسانية مجموعة من القواعد المبتذلة التي لن تتغيّر.

لا فارق بيننا وبين رجال الأمن سوى أنّهم صنعوا لأنفسهم زيًّا.

مصطفى إسماعيل

كتاب الأمان ـ النسخة الأصلية

(22)

لا تملُّ الحياة من لعب دور السيناريست المولع بالدراما الرخيصة. على كرسيّه المتحرّك، جالسًا أمام شجرات بائسة زرعها أبوه أمام منزلهم بعد سجنه لتمنحه الأمل بعد عودته، لكنّها تحدّته وطلعت عارية إلّا من وريقات، حياة مبتسرة.. إصلاحها هو هم لطفي في الشطر الثاني من حياته الذي سيقضيه كاملا بعجز شبه تام إلا إذا اعترف أحد ما بالذنب تجاه ما حدث وتولّى نفقات علاجه الباهظة، نما ليده إبريق تحرص أُمّه وأخوته ألّا ينفد منه الماء. صورة سهلة الانطباع في الذاكرة. أشاهده من مسافة ولا أقوى على مواجهته، كلّهم يتجنبه وعائلته خوفًا من اللعنة، انفصل مجال حركتهم عن العالم المحيط بهم، وكأنّهم غير مرئيّين. عاد ومعه ثلاثة من أبناء شبرا ممّن اختفوا معه، جميعهم لزم بيته، تنفيذًا لأمر أم انعزالًا إراديًّا لا فرق. رغبتي جامحة في العمل على ترميمه، كلانا في حاجة إلى هذا.. ليعود للسير على قدميه، ولأتغلب على الفراغ الذي يحيط بي. من اختبر الحركة لا يقدر على السكون. لكنّنا أعجز من المواجهة، يملؤنا الخجل، لم يعتد بعد التعامل مع عاهته، وتثقلني شبهة التبعية للسلطة. كان السيناريو الرخيص في حاجة إلى الاكتمال.. يأتينا في قصر الاعترافات ليروي قصّته. لجأ للعنف لينسى الشعر الذي ضلّله أحدهم فحفظه. يفضح خيانة صديقه الأقرب، الذي سايره طمعًا في رفيقته. أدون اعترافه، عالمًا بأفكاره تسبق

يدي كلماته، أدين نفسي، لكن بلا خجل، ربّما أبالغ عندما أصطف بجانبه ضحية، غير أنّه إحساس لا يمكنني الإفلات منه.

على إيقاع أنشودة الفرح لبيتهوفن الآتي من بلكونة الأستاذ علي، أسير متجنّبًا رؤية صديقي المُعاق. مثل هذه الموسيقى كانت لتبهجني لساعات، تدور داخلي فتمدّني بالنشوة، إنّما الآن مفردة نشاز في عالم كابوسي، الناس تبدّلت مع لطفي.. منكسرون مثله، يسيرون بلا إدراك لما حولهم أو لتصرّفاتهم. لا ينقصهم سوى أباريق يسقون بها شجرًا لا ينمو. على ناصية الشارع ارتفع تلّ قمامة ومعه طنين الذباب والرائحة العَطِنة. واحدة من السكّان دشّنت للفكرة.. مشاجرة مع عامل القمامة دفعتها للاستغناء عن خدماته، وتبعها آخرون مفضلين إبقاءَ قمامتهم أمام أعينهم، ومن يدري، الخطوة التالية الاحتفاظ بها في منازلهم ونبشها بحثًا عمّا له قيمة ناسين أنّها مخلفاتهم. بعد التلّ بأمتار كدت أصطدم برجل لم تصلني ملامحه كاملة في الثانية التي التفت فيها لي، لكنّه وجهٌ معتاد، من سكّان المنطقة! لا، علاقتي به أعمق من الجيرة، ربطتني به علاقة في فترة ما، غالبًا لم تدم سوى لقاءات متفرّقة لكن لا اسم له عندي، وملابسات معرفتي به تائهة، خطر لي أنّه يعمل محاسبًا. يقف أمام حائط موليًا مؤخرته للمارّة، يتبوّل في وضح النهار، يزحف ماؤه من بين قدميه إلى الشارع. هل خانته مثانته لدرجة أوقفته موقف الخزي والعار، أم طالبه عضوه بالخروج من محبسه ليشتمّ هواء الحرّية! ملأت صدري بالهواء لأكتم أنفاسي الوقت الكافي للابتعاد عنه مخمِّنًا أنّي في حاجة إلى أكثر بقليل من دقيقتين حتّى لا تصلني الرائحة لكن بعضها تسرّب فانحبست داخلي، هكذا سأقضي بقيّة اليوم برائحة بول محاسب.

ترومای شبرا، سكين عادل قسّم الشارع بين أبنائه بالتساوي. اعتدت أن أستقلّه رحلةً كاملة للخروج من ملل البيت مستزيدًا من تفاصيل محفورة على عيني، يمرُّ كعجوز سخيف لا يتناسب بطؤه مع الضجيج الصادر عنه. يستغرق زمنًا لينسحب من أمامي، أعبر متوجِّهًا إلى مكتبة «سافو»، لم أزر

ديمتري منذ شهور، أتمنى أن أجد لديه بعض السكينة، قد تنجح واحدة من معادلاته في إنقاذي.

واقفًا بجسده الضخم في وسط المكتبة يشغل كامل المساحة المخصّصة للزبائن. ما الحدث الجلل الذي أبعده عن كرسيه وراء «الكاونتر»؟ ملامح وجهه لا تدعو للراحة، يُشير إليّ مُحذّرًا، من ماذا؟ لا أدري. متجاهِلًا تعبيراته التي بدت لي مضحكة فتحت الباب منتظرًا صوت الناي الذي ترغبه كلّ ذرّة من جسدي لتطمئن، لكنّه صدر مشوّهًا، سقطت من آلته، التي يدفعها الباب، بعض العوامید الفضّية فانهار اللحن...

«ما أنا حذرتك».

وكيف لي تخمين أنّه يريدني خارجًا! ثم، هل يقضي ما تبقّى له من عمر بملامح هلع متصدّيًا لدخول القادمين!

يعتقد الأستاذ فخري أنّ مسيرة البشر ملأتها كومة أكاذيب ومبالغات، يتحدّانا أن يخبره أحدُنا عن قصّة لعلاقة زواج، حبّ، صداقة، تضحية، يكون اختبرها، أو يعرف أطرافها، علاقة ليس مصدرها كتب التاريخ، أو الإعلام، أو الدراما. نحاول، لكنّه يجد ثغرة ما ليدلّل على وجهة نظره.. هنا مثلًا المال ما يحكم، وهنا السلطة، وفي أخرى الاعتياد والخوف من المخاطرة. مبرهنًا على النتيجة.. الإنسان مجموعة من الانفعالات اللحظية المتنوّعة قد تخدعه إحداهنّ فيظنّها دائمة ليتورّط في علاقات يدرك لاحقًا عدم صحّتها. ثم يقول بلهجته الناصحة...

«الحبّ حبّك لنفسك، والصداقة أيضًا، والزواج الأفضل ارتباطك بما تريد تحقيقه».

حتّى اليوم، وإلى انهيار لحن ديمتري بعدما صمد أكثر من خمسين عامًا، كنت واثقًا أنّ معتقدات فخري لا تنطبق إلّا على حالته. تطرف أوجبه عبادة نسق معيشي صارم. عالمه النسائي مكوّن من امرأة واحدة، واتصالهما نصف

يوم في الأسبوع. يعرفها منذ صباه، خادمة في المنازل، في مثل عمره تقريبًا، كبرا معًا، يعلم بعضهما عن بعض أسرار مرحلة المراهقة. عندما ماتت أُمّه واصلت الاهتمام بأمور بيته مثلما اعتادت من دون سؤال عن مقابل، لكن فخري صاحب الإستراتيجيّات بعيدة المدى والتي لا يدركها خصمه إلّا عندما تصعقه الـ «كش مات»، رأى فخًّا على المدى، ساذجًا، تطلب منه دقائق لوضع الخطّة الملائمة لمواجهته ثم مضى التنفيذ طبيعيًّا، حافظ على استخدامها وعلى المسافة التي تفصل بينهما.. شبراوي أصيل، شابّ طموح يقيم في واحدة من العمارات القليلة التي تمّ السماح ببنائها بجوار قصر طوسون باشا، وهي من سلالة العبيد ساكني الأكواخ الفقيرة المُخصّصة لعمّال رعاية أراضي الباشا. الفضل في تطوير العلاقة منسوب لها، تمكّن من ضبط شهوته المستعرة بينما يتلقّاها ليضع الضوابط.. زاد على راتبها الشهري مبلغًا من المال مقابل كلّ مضاجعة. رفضت بغضب في البداية...

«أنا مش مومس».

«بالطبع».

تحوّلت إلى امرأة على يديه، لكنّه يئد الطموح الذي دار في عقلها...

«عمل إضافي تستحقي عليه أجر».

لم يتعمّد إهانتها، هكذا وضعهما، عمّا قريب يصبح من رجال الملك الذي غزا أجداده البلاد وعادوا بالسبايا، لا يعيبها أنّها واحدة منهنّ، غنيمته السمراء المليحة، المقدّسة كلعبته العاج. يتوه في تفاصيل جسدها المشدود، لا قطعة لحم زائدة عن الحاجة، والجمال ليس ما يأخذ بلبّه في عُريها الذي تبدؤه متمهّلة منذ دخولها ويكتمل في السرير. يشتهي أكثر الكمال غير المبالي بصفاته وكأنّه أمرٌ عادي، يرغب في اكتشافه على مهل. لكنّه مع ذلك لم يسمح لها بقضاء وقت زيادة، مثلها مكتمل بذاته وأرقى بإدراكه، ولن يضيع النعمة الممنوحة له من القدر.. الوحدة التامة. بصرامة

قطع علاقته مع من حاولوا اصطياده، البنات اللاتي قدّمن له على أطباق من فضّة، الحالمات بالزواج من شابّ ميسور الحال وبلا التزامات. أقارب رآهم خلال مناسبات معدودة توافدوا لمساندته في محنته ووحدته، أب وأمّ، وابنتهما التي سيرتبط بها حسب الخطّة، يخطّط الأب معه لمستقبله، وتهتمّ الأُمّ بنظامه الغذائي، فيما دور الفتاة ألا تكفّ عن منحه الابتسامات، وفي الليل، وكقوّادين يختتمان مسيرتهما بهدف نبيل، يتركونها لسهراته، يقرآن ويسمعان مقطوعات الموسيقى الكلاسيكية، وتجهد المسكينة ذهنها لإثبات نباهتها عبر الشطرنج. فرص لطيفة متعته بتضاريس أجساد ثلاث بنات للعائلة، لم يمانعن تصرّفه فيما يعتقدن بالأكيد أنّه سيكون ملكه، مدعومات بلهفة الأبوين. ينغمس في اللعبة عارفًا كيف ينهيها.. التجاهل التامّ. يغادرون باطمئنان لميثاق شرف غير معلن، لكن ولأنّ معنى «الشرف» متفاوت فإنّ الزيارة المتوقّعة لا تحدث وتنقطع العلاقات للأبد.

وحدها عبدته من بقيت، لا تطلب، لم ترغب إلّا في الحُبّ، ثم انخفض سقف طموحها إلى التقدير، لكنّها لم تملك قطّ جرأة الاعتراض على تصميمه إهانتها بماله...

«خدي يا نعمة».

تواصل إرضاءه ليتمّ الوداع المعتاد.. تتمنع فيدس المال داخل فتحة الجلباب متلمّسًا صدرها، تحية حتّى اللقاء المقبل. وعندما تزوّجت بتشجيع منه وبدأت تصطحب ابنتها المصابة بشلل الأطفال، غير عادته وبدأ في إعطاء المال إلى الصغيرة مُبديًا الاهتمام بحالتها، متمنّيًا لها التعافي ممّا لا شفاء منه، مدقّقًا في ملامحها بشكٍّ سيلازمه دومًا في احتمالية انتمائها له. حافظًا على التضاجع أسبوعيًّا، حتّى عندما فترت الرغبة، بإحساس لم يفصحا عنه بأنّه الوسيلة التي بقيت لتعيدهما لزمن احتمل حلمهما بالترقّي. تتعرّى لتهب عليها رائحة مشوار كانت تقطع فيه المساحة الواصلة بين العشش وبيته، الطريق المفروش بأشجار الفاكهة والورد، الخطوة بين

شجرتين رحلة لذّة بين الروائح والألوان تصحبها على سريره الوثير الزمن الذي جاء بعده لم يوفّر لها سوى كلمات فخمة مرمية بجانب أشجارها المقطوعة بحقد، لدمج العشش بالقصور إعلانًا بنهاية الأحلام بعد تطبيق عدالة التشابه.

فعلاها أوّل مرّة عندما تحقّقت معجزة وصوله للقصر الملكي ضيفًا على مائدة الكبار، وفي وسطهم هو الأصغر سنًّا والأكثر نبوغًا.

يأتي الملك لقصر شبرا يومًا في الشهر للتمشية في حدائقها مع الأميرات اللاتي يبهجن قلبه وهن يطاردن فراشات تمّ استيراد يرقاتها من أوربّا لتليق ألوانها الخلابة بالبلاط. تتضمّن أنشطة اليوم الملكي مجيء أبرع الناس في مختلف الألعاب، ومنهم «شطرنجية» يسعون لإثبات نباهتهم أمام رجال القصر المحترفين، على عين الملك يلعبون، يتابع المباريات وسط رؤوس حاشيته المهتزّة إعجابًا بعبقريّته الملكية عندما يهمس، وكأنّما لنفسه، بنقلات كان ينبغي لأيٍّ من المتبارين القيام بها.

سجل فخري اسمه في ديوان قصر شبرا منتظرًا استضافته، لم يكن الأمر سهلًا، فالبراعة وحدها لا تضمن حقّ الوصول. هناك مواصفات أخرى، أن يكون من الأعيان، أو من أصحاب الأطيان، أو متبرعًا لأعمال الملك الخيرية، واسمه لا يناسب خانة مَن تلك، ليس أكثر من «شطرنجي» بمهارة يدّعيها ولم تختبر بعد. شهر وراء آخر يسأل والإجابة استقبال ووداع مهذّب، والرفض في العيون لا يخفى عليه لكنّه عاجز عن التصرُّف فهذه ليست رقعته، ولمّا استفزّه التجاهل البارد جاءه الغضب فترك له نفسه عامدًا...

«هل تخافون الهزيمة من شخص ليس في مستواكم. هذا ليس شطرنج إذًا، سمّوه شيئًا آخر فتصرُّفكم لا يليق بشرف الرقعة».

كلام فخم زيادة عن الحدِّ، ومستفز بما لا يليق، لكنّه غضب وهذه لغة عصره.. إذا اختلفت مع أحدهم لا تسبّه بأُمِّه إنّما تدعوه للنزال...

«فجر الغد في العزبة الشرقية، ولك اختيار السلاح».

وقتها كان للكلمات معنى، لهذا وصلت إلى أذن الملك الذي قهقه لها وعنّف رجاله على أنّهم لم يسمحوا للشطرنجي الشابّ بالمثول بين يديه.

استقبل فخري الدعوة بفرح وشعور بالورطة. غضبه الذي ضمن له مناه كان له أثرٌ سلبيٌّ ضايقه.. العبارة التي انفلتت من لسانه وضعت توصيفه.. «شخص ليس في مستواكم». خرجت منه دون إرادته مخالفة واحدة من قواعده الثمينة...

«كما ترى نفسك يراك الناس».

تصحيح الخطأ تطلب الإصرار على ما قال حتّى لو لم يعجبه الدور.. «المتحدِّي» الآتي من طبقة فقيرة حافية، وأمثاله لا بدّ أن يكونوا غاضبين من وضعهم ومن انعدام العدالة. هكذا صرع من توالَوا أمامه بلا تهذيب، استعراض فجّ للمهارة وقلّة اللياقة، ولمّا لم يتبقّ أحد قام من على كرسيّه، وفق قواعد البروتوكول الملقّنة له سلفًا، ووقف في مكانه منتظرًا تقدّم رجل المراسم الملكية إليه ليسير بجواره ثلاث خطوات لا أكثر تجاه العرش مقدّمًا التحية بانحناءة وبعدها ينسحب للخارج محاذرًا ألا يولّي الملك ظهره. وقفته طالت أكثر من المعتاد، لم يستطع تحديد إن كان ذلك حقيقي أم أنّه التوتر. انشغل بالرقعة محلّلًا المباراة الأخيرة مُفيقًا على ما ارتكبه، الهزيمة التي أوقعها بمنافسه الأخير، الذي تمّ تقديمه على أنّه ابن أحد كبار الباشاوات، مهينة للغاية.. والأصعب أنّ غضبه تبخر في لحظة صعبة مخلّفًا له الخوف. قبل أن تمضي به الأفكار عن مصيره أبعد من اللازم ويطلق ساقيه للريح مال عليه أحدهم بأن يبقى في مكانه، ودّ الردّ بأنّه عاجز أصلًا عن الحركة. لم يجرؤ على إبداء شيء ممّا يعتمل داخله، ولا حتّى تبيّن سبب الضجّة حوله، والهمسات التي داخلتها أصوات أنثوية سمعها بعيدة منذ وطأ الحديقة، جاهد لمنعها من تشتيت تركيزه لما تصوّرهن

يرتدين غلالات شفافة منتشيات بلمسات أوراق النبات اليانع. يقتربن الآن بصحبة أصوات شباب، خمّن أنّ جمهور القصر يتجمّع لحدث جلل.. هل سيقطعون رأسه؟ تسليتهم متابعته يتدحرج بين أقدامهم، يتقاذفونه ساخرين من عبقرية أوصلت العنق للسيّاف.

لم يعمل رجال البروتوكول حساب هذه اللحظة فلم يوجهه أحدهم، وحده تمامًا في مواجهة لم يضعها في الاحتمالات عندما وصلتها الدعوة. أعطاه الملك اللون الأبيض، رسالة بأنّه الأقوى أو هذا ما ينبغي، عليه تحجيم شهوة الفوز، لكن كيف؟ عندما يلعب ينسى قواعد التعامل ويحلّ بدلًا منها مربّعات الأبيض والأسود. هل يدع الملك ينتصر؟ ولو تمكّن من ذلك، ألن تكون إهانة مضاعفة، ألن يقول أحدهم إنّه استهان بالملك! مع النقلات الملكية الأولى حدّد طبيعة خصمه، بمقدوره التغلّب عليه بسهولة، يلعب مثل طفل مدلّل لا يوجد ما يضطره لعناء الخداع والمناورة. وصل إلى الحلّ الأنسب في النقلة الرابعة.. عليه إطالة زمن اللعب لأقصى مدى دون تظاهر، وأن يمنح نقلات الملك قيمة مضافة عبر نقلاته، لن يبدو أيّ منهما غبيًّا، استخدم مهاراته للوصول إلى التعادل في مباراة تليق بهما، موقعة أراد تخليدها في كتب الشطرنج وسير الملوك ليحلّلها الخبراء مقدّرين ما بذله فيها من جهد.

في بيته كانت تنتظره. طفل فرح بما أنجز، يقفز في الهواء، يدور ويرقص، شاركته بهجته بمنحه حقَّ الزيارة الأولى لقلعتها، ليشعر بقلبه يوشك على التوقّف.. حائرًا بين نوعين من الجمال وكلاهما من الأبنوس.. جسدها والشطرنج الخاصّ بالملك الذي منحه له تكريمًا على مهارته مع أمر بضمّه لرجاله من أهل المنطقة...

«شابّ مغرور لكن لطيف ومخلص لنا. قصر شبرا مفتوح لك».

كان طبيعيًّا هكذا أن يكتسب شطرنج الملك قيمة مضافة، يجسّد معاني

الفخر والشهوة. كلّما لمسه يسري في جسده خليط منهما، منتصبًا أمام الملك يتلقّى تحيّته، ومنتصبًا أمامها يتلقّى مكافأته. على هذا يقرّر فخري أن لن يلمسه إلّا من يفهم، ومن يستحقّ جزءًا من الشرف الذي ناله، ويقرّر أيضًا أنّ أحدًا لن يهزمه به أبدًا، ويوم يحدث ذلك ستكون مباراته الأخيرة.

بدا إذن أنّ السعادة اختارت فخري في رحابها، إنّما لو افترضنا لها تلك الإرادة، فعوامل بجانبها أرادت التدخّل في قصّة فخري، وهنا مصدر مأساة عمره. لو كنت من مُصدّقي توقُّعات الأبراج، فالنصيحة الغالية لك.. ابتعد عن الرقعة، لن يمنعك الإيمان بالغيبيّات أن تكون لاعبًا جيّدًا، غير أنّك لن تترقّى أبدًا للمستويات العليا، المجهود الذي تبذله لن يكون كافيًا ما دمت تتوقّع تدخّل عنصر بلا حاكم.. سيقف هذا عائقًا في سعيك لإدراك جوهر اللعبة، وأظنّ أنّه لا داعي لاستخدام عبارات مطّاطة لشرح أنّ «اللعبة» هنا تنفتح على مدلولات عدّة بخلاف ما نتحدّث عنه. الشطرنج في أوّل قواعده ينصّ على...

«النتيجة النهائية مبنية على مجموعة من الحركات المتسلسلة، تشمل الموهبة والاستعداد الشخصي والرغبة في التعلّم والتواضع، هذا مُهمّ لتمكّن اللاعب من زيادة حدّة قدرته على الرؤية. الإخلاص وعد بالقدرة على رؤية القطع تتحرّك قبل أن تُمس».

هناك من يخلصون لدرجة تمكّنهم من رؤية النتيجة النهائية عقب ثلاث نقلات أو أربع، وهناك من يمكنهم اللعب مغمضي العينين. هذا كلّه ضدّ قانون الحظّ إن كان له قانون، وفخري مثل أيّ لاعب عبقري يتحرّك وفق القواعد، لهذا كان اختباره صعبًا، اختبار المؤمن حين يجابه ما يشكّك في عقيدته. كثيرون يلعنون الحظّ السيّء وتحليل شكواهم يفضح أنّ ما أصابهم يعود لخطأ أو تكاسل لكنّ ضعف همّتهم يمنعهم الاعتراف. لكن ما تعرّض له الأستاذ فخري يصلح نموذجًا مثاليًّا للحظ السيئ. يعني ماذا نسمّي تصدر صورته الصفحة الأولى للجرائد والملك يكرّمه بمنحه رقعته الخاصّة، ثم

في اليوم التالي تقوم ثورة تطيح بهذا الملك! وليت الأمر توقّف عند هذا الحدِّ، ساعتَها كان سيكمل طريقه ويعتبر ما حدث أمرًا مضحكًا، لكن هذا النوع من الحظّ الذي لسع فخري بضربته مثل الزلازل القوية موجاتها التدميرية تطمح منافسة الضربة الأمّ في القسوة.

رجال الثورة الآتين للحكم عطشى وجوعى عُرف عنهم الولع بثلاثة: النساء، الغناء، الشطرنج. وفي المقابل يكرهون ثلاثة: الملك، ورجاله، والحرية. على الفور دخلت ميولهم حيّز التنفيذ فتمّ حرمان أم كلثوم من الغناء وهذه حادثة سجّلها التاريخ، متجاهِلًا تسجيل أنّ القرار نفسَه شمل معها الأستاذ فخري، فتمّ منعه من لعب الشطرنج في عموم أندية القطر المصري، ومن السفر إلى الخارج لتمثيل الجمهورية الوليدة، وفي الحالتين كان الملك السبب، فإن كانت أم كلثوم مجّدته بغنائها، فإنّ فخري انحنى له بتعادل مذلّ. أمّا منتهى الظلم بعد ذلك فإنّه تمَّ السماح للسيّدة بالعودة للغناء أمّا فخري فلم يلتفت أحد للتظلُّمات التي قدّمها لمكاتب الثوّار، ولمّا أحسّ بالإهانة حافظ على المتبقّي من كرامته ولزم بيته مكتفيًا بصديق يأتيه متخفّيًا تحت جنح الليل ليلعب معه مباريات عدّة راجيًا منه مع كلّ زيارة إبقاء نشاطهما سريًّا فلا قدرة لهما على مواجهة غضب السادة الجُدد. عاونته التجربة، التي لم يخرج منها إلّا مع انشغال السلطة بأحداث العدوان الثلاثي، إلى التعالي على العالم ووهب روحه للتأمّل الدائم.

أعرف أنّ السقوط حتمي وقد اقترب موعده، لم يعد لديّ سيطرة على الخلافات التي تفشّت في المجموعة الرئيسية ولا المطامع التي بدأت تطلّ برأسها، والمجموعات الفرعية تتداعى، لا يملك العاديّون قدرة طويلة للسيطرة على النزوعات الدونية.

بيننا الآن من يُخفِي مسروقات عنّا، ومن يقوم بعمليات انفرادية، ومن لا يفيق من الخمر.

القصص عني في الشارع تهدّدني، هذا الفصل يقترب من نهايته. بيدي إذن لا بأيديهم.

مصطفى إسماعيل
كتاب الأمان ـ النسخة الأصلية

(23)

بدافع شفقة يمكن تفهُّمُها من جمهورٍ لسينما أفلام هندية، أفسحوا لنا المجال للمرور وتخطّي دورنا في الطابور، من دون تصرّف بهذا النبل كنّا سنبقى أيّامًا وليالٍ قبل الوصول إلى شبّاك التذاكر. لم يكن الاستقبال مفاجئًا له بقدري.. يتلقّى التحيات والتربيتات على كتفه في هدوء من ألف التعاطف، بينما أتقدّم بالكرسي مغمغمًا بكلمات شكر واعتذار عندما تدوس عجلاته على قدم أحدهم. عمّال وموظّفون وفلّاحون وطلبة، يشكّلون لوحة...

«من شبرا».

من مناطقها الراقية حيث الفتية بموضة العام.. قمصان مفتوحة عن آخرها على «تي شيرتات» ملوّنة، تجاورها الجلابيب البلدية التي اخترق أصحابها الشوارع الواصلة بين روض الفرج وشبرا ليقضوا نصف نهار مختلف، أمّا الأكثرية فمن أصحاب المهن اليدوية، مميزون ببقع صغيرة من الشحم وضعتهم أمام الأمر الواقع وتحوَّلت إلى علامات جسدية تأبى الزوال فسلّموا بوجودها مفاخرين بها وشومًا. يوحّد الخليط، الذي لا يجتمع عادة، الرغبة في الحصول على تذكرة في هذا اليوم بالذات، يتمسّكون بالتفاؤل مع أنّ نتيجة عملية حسابية بسيطة كفيلة بإحباطهم.. عشرة دور عرض لن تكفي لاستيعاب الطابور الذي نسير خلاله منذ دقائق ولم نبلغ نصفه بعد. خفت من تغير حالة الواقفين تجاهنا كلّما تقدّمنا، هؤلاء الذين في نهايته تركونا

لعلمهم أنّهم لن يخسروا شيئًا لكنّ من في الأمام تتزايد فرصهم واستمرارنا في التقدم يعني أنّ اثنين منهم سيخسران بطاقة العبور.

يمضي الطابور متلويًا على الرصيف حاجبًا خلفه مداخل عمارات وسلسلة محلّات متخصّصة في بيع الأدوات الكهربائية، يقف أصحابها على مداخلها باستغاثات لا مجيب لها، تاريخهم التجاري الطويل الذي بدأ مع نشأة شبرا نفسها تُطوى ‹صفحته بسبب الزحام اليومي وما يخلّفه من مشاحنات، بات الزبائن يفضلون محلّات شارع رمسيس برغم أنّ منتجاتِها تخلو من ذوق رفيع ورثه بائعو شبرا من أجداد أضاءت بضاعتهم قصور الباشاوات. عندما يئس أصحاب المحلّات انسحبوا واحدًا وراء الآخر إلى داخل محلّاتهم، وسط ما تبقى من النجف الكريستال منتظرين النهاية بكرامة محاربين، واحد منهم فقط يتمتّع بقدر كبير من الخسّة كفته ليلعن التاريخ، وبدلًا من مشاركة النهاية مع رفاق الطريق حول نشاطه إلى محلّ للمأكولات السريعة والتسالي والسجائر محقّقًا أرباحًا جعلت المتمسّكين بتقاليد المنطقة يتساءلون في جدية عن قيمة المبدأ.

لا يمنع انزلاق الطابور إلى نهر الطريق العامّ سوى حواجز حديدية وعساكر ضئيلي الحجم بلباس غير مهندم يبذلون طاقتهم لوقف انهيار السدّ. منظر معتاد لكنّه تضخم اليوم، الأعداد مضروبة في عشرة، جمهور بالآلاف، الحاجز أصبح اثنين خشية من تداعي الأوّل، العساكر بالمئات مصحوبين بضبّاط يزعقون في هياج...

«اثبت يا عسكري».

لكن بنيتهم الضعيفة تخذلهم في تلبية الأمر، يوشك السدّ الأوّل على الانهيار فيزداد قلق المشرفين على الثاني، ينادون على الجمهور فيما يشبه التوسُّل...

«ارجع يا كابتن لو سمحت».

غير بعيد لواءات تلتصق أجهزتهم اللا سلكية بوجوههم وهم يترقّبون وصول موكب النجم الهندي الأشهر أميتاب باتشان الذي قرّر تخصيص ساعة من أوّل زياره له إلى مصر ليلقي فيها على عشّاقه من أهل شبرا تحية ستخفق لها قلوبهم لأعوام.

«الدراما الهندية مبتذلة جدًّا.. ووجود باتشان كفيل بتحويلها لمسخرة».

خلال رحلتنا من شارعنا إلى سينما «شبرا بالاس» بذلت محاولة أخيرة لإثناء لطفي عن رغبته في رؤية ما وصفه بـ...

«التحفة البوليودية الأروع.. الحقيقة النهائية».

«عنوان مبتذل لفيلم مؤكّد أنّه سطحي.. يعني إيه أصلًا حقيقة، ونهائية كمان! شيء عجيب والله».

لكن معارضتي تضحكه وتزيده تصميمًا، وحتّى صفعي له بواقع وضعه الصحي لم يجد نفعًا، لكنّه أوقفه عن الضحك، صمت تمامًا، وعندما ملتُ برأسي فوق الكرسي الذي أدفعه رأيت وجهه مزمومًا على ضيق. لم أكن أدرك أنّ التجربة القاسية التي أحالته مقعدًا تركته كذلك عاطفيًا يظنّ أنّ الواقع يتلاشى بتجاهله. الآن لدي لطفي مختلف، يحبّ الأفلام المبتذَلة وينكر الحقائق، وسيقضي هنا بقيّة حياته.

«با حاول افتكر قصيدة لك كنت كتبتها، بيت منها بيقول:

يا من تظنُّ الدنيا مراتب أنت فيها الأعلى

راقب ودقّق فسوف تقول.. أحا».

ردّ بصوت خافت وبلا اهتمام...

«أنا نسيت الشعر».

«كويس يبقى هدفنا تحقّق».

رفع رأسه محاولًا إدارته ناحيتي ولم يفلح لكنّي لمحت نظرة مؤنّبة، شغلنا بعدها انفعال الجمهور المتزايد مع تقدّمنا...

«بطل».

«كمل يا وحش.. نشوفك في الفيلم».

لم يفكر أحدهم مثلما فكرت، هذا يثبت طبعي الأناني كما وصفتني حسناء، يبرهنون على رأيها بمساندة قضيتنا أمام بائع التذاكر الرافض لدخوله بحجة عدم وجود مكان للكرسي المتحرّك، وصعوبة حمله على السلالم، نجحوا في حثّه للاستسلام بعد اتهامه بالقسوة. علمه بتأثير ما يشاهدون أجبرته التزام الحكمة ليمرّ اليوم بسلام. أحدهم تقدّم إلينا، أمسك بقوّة بذراع الكرسي، وصاح على المتجمعين بشكسبيرية مُفرطة...

«واجب علينا نساعده».

لم أجد بعد ندائه مساحة لأتحرّك فيها، تكاثرت الأيدي التي ترغب في حمل لطفي، بينما بدت دموع في أعين الفتيات اللاتي تجمعن جوار الباب الآخر للسينما والمخصّص للنساء. لم أتيقن من محرّكها.. اندماجًا مع هذه الدراما أم توترًا من قرب نفاد التذاكر، لن يتسنّى لغالبيّتهن رؤية نجمهن المحبوب إلّا لحظة نزوله من السيارة. هل يعقل أن تكون تاليا بينهنّ، هل تسمعني وسط هذا الهرج لو ناديت باسمها؟

«هيلا.. هوب».

ارتقى في الهواء والجموع تتقدّم به إلى الداخل، يلتفت إليّ مبتسمًا في رضًا وليٍّ صالح نال أخيرًا ما يستحقّه من تصديق. قبل عقد من الزمن كان محلّ السينما مقام لـ «سيدي الهندي» مرابط جاء على مركبه من بلاد تركب الأفيال ولمّا وصل المحروسة ترك مركبه يتهادى وفي البقعة التي توقف فيها نثر من كيسه حفنة من تراب لتقوم جزيرة أسماها من جاءوا للسكنى بجواره تيمّنًا باسم من يعبد...

«جزيرة الفيل».

تكاثرت كراماته حتّى سمع به محمّد علي الكبير فزاره للتبرُّك، لكن الطمع أدار رأسه فاستولى على جزيرة الرجل رادمًا ما حولها ليشقّ شارعًا يتنزّه فيه وأعيانه، مُمحيًا آخر وجود للمرابط المسكين بتعديل الاسم إلى «شبرا».

أشدد قبضتي على حقيبة أوراقي. كرسي الوليّ يتقدّم، يصعدون به عرشًا على الدرجات المفروشة بسجاد أحمر. أمضي وراءهم قلقًا من سقوط أحدهم ليتلوه البقية كأحجار الدومينو، لن أجد من جسده، الذي بات من قسوة التعذيب لينًا مثل طفل، سوى ابتسامته الطيبة ملتصقة بالأرض. تدوّي تصفيقة من المتابعين وحاملوه يضعونه على أوّل الممرّ قريبًا من الشاشة حيث لا يعوق المارّين.

«الفيلم طويل يا أستاذ.. تستحمل للآخر؟».

يجيبه لطفي بمنحه ربع جنيه كاملًا انبسطت له أسارير الرجل واعتبره إجابة كافية فخبط على كتفه متعاطفًا. يكفيني الاهتمام الذي وجده للاطمئنان عليه والانصراف. لكنّه يمسك بيدي...

«اقعد لمّا الفيلم يبدأ».

أستسلم لرغبته منجرفًا مع التيار العاطفي...

«لازم تشوفه.. فيلم ممكن يغيّر حياتك».

يقول لي عجوز بينما أجلس على درجة السلم بجوار عجلات كرسي لطفي. لا أقول له إنّي أصبحت أضعف من أيِّ تجربة حتّى لو كانت مجرّد فيلم هندي، تنقذني الأضواء التي تطفأ تباعًا، أهمس للطفي...

«خلص وأنا على القهوة».

أغادر على وقع الحدث الافتتاحي الذي تُغتصب فيه البطلة بينما حبيبها مقيّد إلى عمود يصرخ ألمًا.

في مقابل السهولة التي دخلت بها السينما بدا الخروج مستحيلًا، الضابط يقول إنّ وجودنا بالداخل الضمانة على أنّ أيًّا منّا لم يتسلّل بقنبلة.

لم تعد مفردات مثل «إرهابي» و«تطرّف» و«الحكومة الكافرة» بغريبة على الأذن، نتعامل معها ببساطة، يتحدّث عن «القنبلة» كما لو أنّها موادّ تمَّ إدراجها على قائمة الممنوع دخولها قاعة العرض بجانب المأكولات والمشروبات. من جانبي لم أبال بخطورة التهمة وما يتبعها من إجراءات تُتّخذ في حالات مماثلة، بل ربّما شعرت بالزهو، منحتني «القنبلة» المفترضة قوّة في مواجهة سلطته، غير أنّي لا أبحث عن تحدٍ، لا يعنيني إلّا الخروج.

وكيف مررت بها من الأصل وسط تلك الإجراءات المشدّدة! أسأله محاولًا إدارة حوار ودود، لكنّه يصم أذنيه عن المنطق خالطًا الرفض بحسٍّ فكاهي...

«لا ادخل اتبسط بالفيلم وشوف باتشان من قريب.. فرصة، يا راجل في ناس بتبكي دم برًا وانت عاوز تطلع».

تضيع نصف ساعة ثمينة في ما يشبه التوسُّل. نتجادل في بهو السينما والشارع أمامنا بصخبه، الزحام ازداد، مضافًا إليه عائلات في البلكونات استعدّت للفرجة على الموكب المشهود. أمامي على الناحية الأخرى المقهى ساكن بعيد عمّا يجري حوله، جنّتي التي أسعى للاختباء فيها ويبعدني عنها خطوات، قد أتحوّل إلى الجهاد إن تمسّك برفضه. لكنّه يفرج عني أخيرًا بعدما أوقع على إقرار بأنّي خرجت من السينما على مسؤوليتي الشخصية ولظروف قاهرة، أمهر الورقة باسمي الكامل...

«خالد أحمد مأمون عبد الباسط».

وتوقيعي، وعنواني، ورقم البطاقة، وكلّ هواتفي المتاحة. لو لم أكن مقنعًا كفاية لما تركني إلّا بختم على الورقة من موظّفين ثقات يشهدان أنّي لستُ إرهابيًّا، ولم يُعرف عنّي النزوع للتكفير.

يداهمني صوتُ مصطفى بينما أدفع الباب الخشبي الذي فقد زجاجه. الخشب موصل جيّد للذكريات خاصّة إن كان عتيقًا. هل يعقل أنّه جاء هنا، تعقّبني مثلما تعقّبته؟ يستولي عليّ بالكامل فأنسى رغبتي في معاينة التغيّر الذي طال ما اعتبرته البيت لسنوات.

«النسيان علامة على عدم الاهتمام».

غير صحيح يا حسناء، مقدّر لنا أن ننسى لنواصل ما نفعل بشغف. لولا النسيان لشنقنا الملَلُ. يومًا تعودين عندما تدركين هذا.

وتلك المناضد نداولها بين الناس. أفيق على الواقع.. ليس من قدسية لأحد ولا لشيء، المنضدة التي لم يكن مسموحًا الاقتراب منها إلّا لمن يأذن له فخري استولى عليها العامّة، يجلس عليها دخلاء. لو أنّه معي الآن لسحبني من يدي...

«قصر الملك فاروق نفسه اتداس، القيمة يصنعها الناس وليس العكس».

«فيه حاجة يا أخ».

سرحت لحظات في محاولة استحضار أيّ معلومة عن نظام وتاريخ الأخوية.

«لا أبدًا.. إنّما أظنّ أنّكم تجهلون الأستاذ فخري؟».

«للأسف.. ممكن الجرسون يدلك».

ردّ أحدهم فيما يدير الثلاثة الآخرون رؤوسهم عنّي.

«بالتأكيد لا تعرفونه. ولا أظنّ أنّه كان سيرحّب بوجودكم».

هكذا تعمّدت الردّ.. بفصاحة.

عادت الرؤوس متحفّزة لإهانة لا مبرّر لها.

من ركن السويفي يهلّ عمّ سيّد، احتضنني بمحبّة فاجأتني. ضحك،

والأربعة الذين زاد غضبهم من علاقتنا المنبئة بانتصاره لي، يحكون له اقتحامي لجلستهم وإهانتهم.

«عنده حقّ».

لم يكن الجدل لينفعهم، انصرفوا وأحدهم يؤكّد...

«قلت لكم.. قهوة مجانين».

جلست على منضدة فخري مزهُوًّا بانتصاري الصغير، ويقيني يزداد بأنّي لا بدّ سأراه اليوم.

ما جئت أودعه ضاع. متحف السويفي الكبير علاه التراب وعنكبوت يعمل بهمّة في نسج شباكه على وجهه المنحوت، الباشمهندس أشرف تخلى عن عادته في قراءة الجرائد، وبدلًا منها يتأمّل النساء. لم يعرفني، أنا أيضًا لم أميّزه مباشرة، تهدّلت ملامحه وزحف الصلع إلى مصدر فخره. الوجوه القديمة تلاشت، لم يعد إلّا عمّ سيّد الجرسون مع هرم مبالغ فيه، يجرّ قدميه بصعوبة، وفقد تقريبًا حاسّة السمع، لحسن حظّه حتّى لا تجرحه الكلمات الهازئة من فتيان في عمر المراهقة يلعبون الطاولة والدومينو مثيرين ضجيجًا هائلًا، يتمرّنون على التدخين من علب سجائر أجنبية، ينفّثون الدخان في عصبية وعيونهم تتقافز على الطريق انتظارًا لعبور أنثى يستعرضون جرأتهم على ضعفها، تفرقع خبطات أكفّهم حماسًا ويفتعلون ضحكات يتشجّعون بها على مواجهة عدم استحقاقهم بعد لحياة الصعلكة. قبل عشرة أعوام لم تكن لتواتيَهم الجرأة على المرور أمام الباب.

لا أنتظر معجزة، إن كان من يقين ما أستطيع التأكيد عليه الآن فإنّه لا وجود للمعجزات. نحن حمقى، كلّ منّا يرى نفسَه بتقدير مذهل يوسوس له لتوقّع شيء ما، وعندما لا يحدث يلوم ما حوله.. الأرض والناس والسماء. لو أنّي اطّلعت على هذا مبكّرًا لتغيّر الحال، غير أنّي لست نادمًا، على

العكس يداخلني شعور ما بالراحة. الآن فقط يمكنني التخلّص من وسواس أنّي ارتكبت خطأ، مرتاحًا لإدراك أنّ...

«كل ما كان ينبغي له أن يكون».

بيت الشعر الوحيد الصادق في الغثاء الذي كتبه لطفي، وربّما لهذا كان مخلصًا في الدفاع عنه أمام جلّاديه.

حاولت التماسُك من رعدة شملتني، بالأمس كنت في عمر هؤلاء الفتية، بهذا الإيقاع يلزمني ثلاثة أيّام لأصبح في السبعين. أعوام وأحداث مضغوطة كأنّها الفيلم الهندي الذي يشاهده لطفي، طويل نسبيًّا، لكنّ الوقت لا يقبل الهزيمة، تخرج من شاشة العرض ليدهشك التغيّر والتبدّل.

الصور تتلاحق بغير ترتيب، أستعين بخبرتي لأعيد تحريكها. لدي ثلاث ساعات بعدها أبدأ عهدًا مغايرًا، انتهيت من حسناء، ومصطفى، والورقي، وفخري، والعدل، أودعتهم خزانة مغلقة ورميتها في مكان مظلم من عقلي. حتّى هذا المقهى، تلك زيارتي الأخيرة له، ربّما بعدها ألحق بالأستاذ علي الذي طار بحسناء إلى الصحراء تساعده على تنفيذ بحثه العلمي في إدراك العدم. افتح حقيبتي لأخرج منها الملفّ الذي يخصهما.. «المنطق الضبابي»، أحاول الاستيعاب: هل تصلح نظرية بهذا التعقيد في إغواء امرأة؟ ربما أسافر إلى أميركا بحثًا عن لطفي زاده نفسه، يعينني على إدراك ما فاتني.

«قاعدة الصح والخطأ ليست كافية للتعبير عن كلّ المسائل المنطقية، وطريقة الفهم الكلاسيكية باتت قاصرة في تعريف الدرجات المختلفة بين الصفر والواحد، والميزة التي وفرها المنطق الضبابي أنّه يصف لنا علاقة التابع بشكل أشملَ وأعمَّ من ذلك حيث إنّ الحالة يمكن أن تكون حالة وسط بين الحالتين المألوفتين، فمن خلال النظرية يكون الانتقال بين الوضعين بشكل تدريجي».

قبل أن تختفي قالت لي حسناء إنّ سبب انبهارها بالنظرية أنّه وفقها يمكننا أن نجد مفاهيم علمية للتصرّفات والرغبات التي تقع في المسافة بين الخطأ والصواب، بين الخير والشرّ...

«تخيّل إننا ممكن نلاقي أخيرًا توصيف لعلاقتنا».

أستعيد جملتها ونظراتها المتخابثة فينتابني الحنين إليها، وإلى ما كان، اختفاؤها كان بداية للانهيار، راح الرضا، وانتشر سؤال.. إلى أين؟ اختلف العالم، اشتعلت الحروب في جهات مختلفة منه، تزايدت حدّة المجاعات في أفريقيا، والآن توشك قنبلة نووية في مكان ما على الانفجار لتعلن نهاية التاريخ البشري. هل كانت حسناء بتلك القوّة لتمنع كلّ هذا؟

دليل أرقام وعناوين

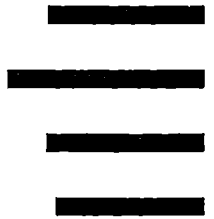

مصطفى إسماعيل
كتاب الأمان ـ النسخة الأصلية

هذا الجزءُ تمَّ حذفُه من قبل الناشر أنور الورقي حفاظًا على خصوصيّاتِ مَن وردت أسماؤهم به.

(24)

هل أخطأتُ عندما رفضت التوقيع على قرار الإفراج عن مصطفى إسماعيل كما طلب مني العدل بصفتي شاهدًا؟ الآن يتبيّن لي أنّ قراره كان بشكل ما صائبًا...

«قرار إفراج لعدم الخطورة

وعليه نرى الإفراج عن مصطفى إسماعيل، ذلك أنّ مجمل أفكاره لا تمثّل خطورة، ليس لأنّها غير جِدّية، إنّما لأنّها خيالية إلى حدٍّ بعيد ومعظمُها لن يُقنع أحدًا».

لو لم أرفض، لكنت ما زلت هناك أستمتع بمزيد من القصص بدلًا من تلك الحكايات الرتيبة.

على الناحية الأخرى بدأ الجمهور يخرج من السينما، سعداء كالأطفال، يتحدّثون بحماس، مؤكّد عن أحداث الفيلم ومغامرات بطله وإطلالته التاريخية عليهم. أغلقت الأوراق المفتوحة أمامي، ملفًّا بعد الآخر.. ما يخصّ قضية مصطفى، نسخة من اعترافاته التي دوّنتُها بنفسي، ملفًا عن علم الشيفرة، وآخر حول نظرية «المنطق الضبابي»، صورة سوسن الكاشف وعشيقها شبه عاريين، نسخة من «كتاب الأمان» في طبعته الأولى، ومسوَّدة الطبعة الثانية بعد التنقيح. وضعت بعضهم فوق بعض وعلى ورقة بيضاء كتبت...

«لمن يريد أن يعرفني».

رزمت المجموعة، توجّهت بها إلى متحف المقهى، في الرف الأخير وحيث الدولاب الزجاجي كانت حقيبة فخري الساموسانيت التي تضمّ الشطرنج الملكي، والتي تركها لي بعد مباراة خسر فيها أمام شاب مغرور زار المقهى خصّيصًا لهذا الغرض...

«سمعت عنك، بيقولوا انك بترفض الهزيمة على شطرنج الملك. أنا باتحداك».

لم أفتحها قط. متشكّكًا في الميلودرامية التي أسقط بها ملكه على الرقعة، وعلى الطريقة التي غادر بها، لم يرد على سخرية خصمه، والذي بدا أنّه فوجئ بهذا الانكسار فغادر مذهولًا من نظرات الغضب في عيون روّاد المقهى. لحقت بفخري أوقفته وقبل أن أفتح فمي وضع يده على كتفي...

«وفر كلامك، خلاص.. استَنسَر البُغاثُ»

كلّما حدّثني صديق عن رؤيته لفخري يجوب الشوارع على غير هدى، أردُّ بثقة بأنّه قادر على استعادة السيطرة والعودة.

2-5-0

وانفتح القُفل الأوّل.

0-5-2

العشرون من يوليو العام 1952. تاريخ لقاء فخري بالملك. فوق العلبة التي تضمّ كَنزه الأثير وضعت الأوراق وأغلقت الحقيبة، وأدرت قفلها لتنغلق إلى الأبد إلّا لمَن سيبحث جادًّا مطاردًا ما جرى.

الجمهور ما زال يخرج من السينما، أعود إلى مكاني بينما يهلّ لطفي على كرسيّه المتحرّك، وقف بعضهم في منتصف الشارع، كوَّنوا سلسلةً بشرية تمنع العربات من المرور، وقفوا صفين بينهما مساحةٌ ليتمخطر

فيها، انزلوا الكرسي بهدوء، أحدهم يدفعه في بطء بالغ، والواقفون صفين ينحنون بالتتابع عندما يمرّ أمامهم، يؤدّون في تخميني لقطة من الفيلم، سائق إحدى السيارات المجبرة على الانتظار احتدّ من الهزل الجاري فضغط على الكلاكس فرمقته الحشود بتحفّز فتقوقع، لحظتهم التاريخية ولن يسمحوا بإفسادها. لطفي يلوّح لي وعلى وجهه علامات رضًا وسكينة، وصل موكبُه مع تصفيق هادر، فتح اثنان الباب وهم يكرّرون الانحناء، ودّعهم بتحية بسيطة تليق بعظيم، أدخلوا كرسيّه وتركوه عائدين لبقيّة الجمهور الذي كوّن مجموعات تعلو همهمتُها، قطعان مليئة بالطاقة تنتظر مَن يُوجِّهها. صوته أسرع من يديه اللتين تدفعان عجلتَي الكرسي...

«بجد خسرت، حالة كان لازم تشوفها».

عمّ سيّد يقف متطلّعًا بلا انفعال. طلبت منه أن يأتيَنا بالشطرنج.

شكر ودعوة

فادي عوض، إيمان مرسال، منصورة عز الدين.

لملاحظاتهم الثاقبة على المسوَّدة الأخيرة من «كتاب الأمان»، وللمحبة، لديهم دعوة مفتوحة إلى مقهانا، حدّثت لطفي كثيرًا عنكم ويتوق للتعرّف إليكم، وربّما تشاركونه مشاهدة أحد الأفلام الهندية في السينما على الجهة المقابلة للمقهى.

العنوان لا يحتاج إلى مجهود كبير للعثور عليه، شبرا كلّها تعرف «مقهى المجانين».

بالغ تحياتي وشكري

خالد مأمون

«هذه الشخصيات والأحداث لا علاقة لها بها بالواقع».

للتواصل مع المؤلف
yasserhafeez@gmail.com

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

بين طبعتين من كتاب الأمان يبحث خالد مأمون، مدوّن التحقيقات في "قصر الاعترافات"، عن حقيقة مصطفى إسماعيل الأستاذ الجامعي السابق في مجال القانون، والحائز على لقب أمهر لص في عقد التسعينيات.

لدينا، طبعة أولى تقوم على خلق أسطورة من الحكاية، وطبعة أخرى غير مكتملة وأكثر واقعية مستندة إلى رؤية حسناء ابنة مصطفى إسماعيل نفسه.

خالد مأمون المسحور بالعوالم المتضادة، الحائر بين الحركة والسكون لا يعرف طبيعة وظيفته التي نالها عبر إعلان غامض، لكنه يمضي مجروراً وراء المقارنة بين عالمي نبيل العدل رئيسه في العمل، والأستاذ فخري لاعب الشطرنج البارع، رحلة يقرر بعدها العودة إلى ما يألفه لكن عالمه كان قد انهار في تلك الأثناء.. بدأ مُعلمه الأستاذ فخري رحلته إلى الجنون، واقتحم "العاديون" المقهى المحرم عليهم.

لا يجد خالد في انتظاره سوى صديقه لطفي زاده الجالس فوق أطلال حياة.

ياسر عبد الحافظ صحفي وروائي يعمل نائبًا لرئيس تحرير جريدة "أخبار الأدب". صدرت روايته الأولى "بمناسبة الحياة" عن دار ميريت في طبعة أولى عام ٢٠٠٥، وطبعة ثانية عام ٢٠٠٧، ووصلت إلى القائمة الطويلة لجائزة البوكر العربية في دورتها الأولى.

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

دار محمد علي للنشر
تونس

ISBN 978-9953-582-65-8
9 789953 582658